

رواية

محمود الزواوي

أرض العيتان

"في أرض لا تزرع، إلا بالدم، كان الأول أول المذبوحين."

رواية / أرض الحيتان

الكاتب / محمود مصطفى عبد المجيد الزواوي.

اهداء

إلى نفسي لأطمئنها أنني ما زلتُ مرغوبًا، وإن خذلني البعض.

((لأن أردت قصة دافئة اذهب وابكِ في حضن سندريلا أما هنا... فأنت في
أرض الحيتان))

أتعلمون ما سرُّ شقاء الإنسان؟

إنه ذلك الفراغ الذي لا يمتلئ، والجوع الذي ينهش الروح قبل أن يمسّ الجسد. جوعٌ يتخفى في صورٍ شتى: شهوةٌ تلهب الجوارح، ورغبةٌ عارمة في سلطان، ونزعةٌ عمياء إلى نفوذ. يخيّل إلى المرء أنّه إن أكل شبع، وإن ملك استراح، وإن استولى على القلوب صار سيّداً، غير أنّه لا يدرك أنّ هذا الجوع لا يروى بالامتلاء، بل يتسع كلما شبع، ويزداد كلما نال.

النفس إذا شرّكت بلا رادع تحوّلت إلى هاوية لا قرار لها، تبتلع ما حولها ولا تقول: كفى. فتستعبد صاحبها، فيأكل أخاه ظلماً، ويشرب من ضعف غيره ليقوّي سلطانه، ويبيني من دموع الناس عرشاً كاذباً سرعان ما ينهار.

أيها الإنسان... ما قيمة ما تجمععه بين يديك إن كنت أسير خوائك؟ وما نفع سلطانٍ أو ثروة أو جسدٍ مترف، إن كان قلبك خراباً وعقلك شاهد زورٍ على رغباتك؟ أليس الدمار يبدأ من هنا: من قلبٍ امتلأ شهوةً وفرغ رحمة، ومن عقلٍ يزيّن الأهواء حتى يغدو عوناً عليها؟

أكل الطعام أهون الجوع، أما جوع الروح فهو الذي يفترس العمر كله. فاسأل
نفسك: أيُّ شيء يُشبعك حقًّا؟ وبأيِّ زادٍ تطفئ لهيبك؟ أبالذي يزول، أم بالذي
يبقى؟

البداية

كانوا يظنون أنَّ النهاية ستجيء على هيئة صقارة إنذارٍ أخيرة، أو ضوءٍ أحمر يومض في الأفق، أو زلزالٍ يشقُّ الأرض نصفين. لكنهم كانوا - كعادتهم - مخطئين.

عام 2559 لم يكن عامًا عاديًا، بل كان المشهد الختامي لتراجيديا إنسانية طويلة قوامها الغطرسة. حينها تحوّل الكوكب إلى مصنع هائل يُنتج الموت البطيء. التصق الغلاف الجوي برداء خانق من الميثان وثاني أكسيد الكربون، وتحوّلت المحيطات إلى مستنقعات سُموم، بينما صارت الغابات رمادًا تحت نيرانٍ لم تخمد لعقود.

وفي خضم هذا الخراب، لم تكفِ الدول العظمى بأن تترك الطبيعة تموت ببطء، بل قررت أن تدبجها ذبحًا. أطلقت أسلحة مناخية خفية، صنعت عواصف مُفتعلة وزلازل مُختلقة، وأغرقت مدناً بأكملها بضغطة زر. خرجت التجارب عن السيطرة، فاختلّت موازين الأرض، وصارت الفصول كوابيس متّصلة لا تنتهي.

غير أنَّ الكارثة الكبرى جاءت من مشروع سري عُرف باسم عين الإله: سلاح نووي مداري قادر على إصابة أي نقطة في العالم خلال ثوانٍ معدودة. لم تسر التجربة الأولى كما أُريد لها، فانفجر الجهاز في أطراف الغلاف الجوي. وهنا وقع الاضطراب المغناطيسي الذي زعزع توازن حزام الكويكبات القريب، فانجذبت النيازك إلى الأرض انجذابًا جنوبيًا.

سقط أولها في قلب المحيط الهادئ، فارتفع تسونامي عظيم التهم السواحل. تبعه نيزك
ثاني في آسيا الوسطى، أشعل نيراناً بمساحة دول. ثم جاءت الضربة الأشد، حين
اخترق نيزكٌ ضخماً صحراء شمال أفريقيا، فأطلق سحابةً قاتمة غطت نصف الأرض،
وأزاحت الكوكب قليلاً عن موقعه، مبتعداً عن شمسهِ.

في أسابيع قليلة غرق العالم في غسقي أبدي، وانحدرت الحرارة حدّ التجمد،
وانكسرت الزراعة، فعمت المجاعة. الناجون لم ينجوا بإنسانيتهم، بل بذبحها.

لكن الدمار المادّي لم يكن أسوأ ما حدث. فقد حملت النيازك جسيمات غريبة لم
تعرفها الأرض من قبل، فانطلقت الطفرات العشوائية: صارت الذئب بجسم الدببة،
وظهرت تفرز سُمومًا لم تُرصد قط. وحتى البشر لم يسلموا، إذ شهدوا موتى ينهضون
من قبورهم، وعقولاً تتهاو، وأجسادًا تتحوّل إلى وحوش لا تعرف الرحمة. العدوى
تنتقل باللمس، والمأوى الآمن صار محض وهم.

وفي قلب الفوضى انقسم الناجون إلى أربع قبائل، كلٌّ منها احتفى بملاذٍ أخير:

قبيلة النار بين البراكين الخاملة.

قبيلة الرياح في الجبال الشاهقة.

قبيلة الظلال وسط الصحراء السوداء.

قبيلة الماء عند الأنهار المتعفّنة.

وفي كل قبيلة وُلد قائد حمل لقب الحوت؛ لا بصفته سيّدًا فقط، بل حارسًا للبقاء في عالم لم يُعَدّ يعترف بالضعفاء.

((الفصل الأول طعنة من الخلف))

نأتي في البداية مع قبيلة النار هي قبيلة نائية تطوّقها الجبال البركانية الهامدة من كل صوب موثوقة في كنف الرماد منذ دهرٍ طويل يعتليها سورٌ مهيب لا يحمل فقط صفة التحصين، بل درعٌ سريّ يحميها من مؤثرات لا يُسمح بذكرها.

خلف هذا السور، تنتصب مبانٍ شاهقة، بعضها منسق بدقة هندسية صارمة، كأن من بناها كان يحسب الأنفاس، بينما تناثرت الأخرى بعشوائية.

في قلب هذه الفوضى المنظمة، تتشعب طرق ملتوية وتنساب المسالك بين الصخور الداجية كأنها ندوب غائرة في جسد الأرض وفي الأفق يبرز قصر الحوت الأحمر شامخًا فوق هضبة بازلية.

في هذا القصر العتيق وداخل قاعة العرش اختلط وهج المشاعل الصاعدة بظلال الأعمدة السامقة، فسكب على القاعة مهابةً تقمع الهمس وتكسر جرأة الأبصار هناك يتربع الحوت الأحمر ملك قبيلة النار، على عرشه الذي لم يُصنع من ذهب أو حجر، بل من عظام الكائنات التي فتك بها بيده فمن طقوس هذا الملك أن يحتفظ بعظام من يقتلهم من الوحوش، لا كتذكّار، بل كجزء من مجده.

كان في أواسط عقدة الخامس غير أنّ ملامحه لم تحمل آثار السنين محياه صلد
الملامح فلم تعرف ملامحه رخاوة ولا وهناً، بشرته متينة تُوحى بجلد لا يفل. عيناه
سوداوان عميقتان، كأنهما بئر مظلمة تستدرج من يحدّق فيهما. قامته تقارب المترين
لكن العظمة في شخصه لم تكن بالطول، بل بما يبعثه حضوره من رهبة تُخمد الهمس
وتُكلم الأفواه. يجلّله رداء أسود تتخلله خطوط حمراء قانية، ينساب حول جسده
فيزيده مهابة قليل الكلام، غير أنّ صمته أبلغ من الحُطْب، وإذا نطق جفّت
الأحاديث، وانطفأت القصص قبل أن تولد على الشفاه.

اقترب أحد الحراس يدعى قنديش يرتدي درعاً بلون النحاس، وقناع استنشاق
تتدلى منه أنابيب ينساب منها بخار خفيف.

انحنى باحترام، ثم رفع قناعه:

— مولاي الحوت راقبت قبيلة الماء عن كثب كما أمرتني، لقد رأيتهم يكّدون تحت
حرارة الشمس التي صنعوها يحاولون إعادة الأرض الميتة إلى الحياة. ولقد مرّت
أعوام من العمل الشاق واليوم رفع عينه لينظر الى الحوت ثم اردف:

—اليوم يحصدون ثمار جهدهم لأول مرة.

أنهى حديثه بينما ظل يراقب سيده الذي ابتسم من كلماته رفع قناعه هو الآخر فكشف عن وجهه المتجهم، ثم مدّ يده إلى الأمام وكأنه يسحق شيئاً لا يراه أحد ، بينما كانت عيناه تلمعان بحقد يكشفه قوله :

__ خذ جنداً من النيران وهاجمهم في اللحظة التي ينتهون فيها من حصادهم. لا تترك لهم شيئاً خذ الغلال، الأدوات حتى الفُتات التي لا قيمة لها.
ثم ازدادت نبرته قسوة :

__ لكن قبل أن تشرع في ذلك، اسحقهم حتى تصير عظامهم غباراً، واجعل صرختهم الأخيرة وسماً يعرف به كل من تحدّى الحوت الأحمر أن مصيره موثٌ لا رحمة فيه.
انحنى الحارس بخضوع، ثم همس بتبجيل وهو يضع يده على صدره:

__أمرك ... وضع قناعه مره اخرى و استدار ليخرج من القاعة. بعد قليل قطعت الصمت خطوات بطيئة اردفت دخول أرمغان، رجلٌ هرم لا يبدو أنه ينتمي للحاضر. خطاه مرتجفة، يتكوى على عصا من خشبٍ مسوّس يطل من عيناه ضوءٌ باهت، كأنهما لا تُبصران، بل تتذكّران.

اقترب... ببطء بينما جسده ينحني أكثر مع كل حركة لكن نظراته ظلّت مستقيمة، لا تنزل عن وجه جلمود عيناه حملتا شيئاً بين الشك والرجاء... أو ربما بين الخوف والنفور.

وعندما وقف أخيراً على بُعد أنفاس، نزع قناع التنفس، وبصوتٍ واهن قال:

— رأيْتُ رجالاً يركبون العربات، فأين امرتهم أن يذهبوا.

ضحك الحوت الأحمر ضحكة خافتة، ونظر إلى العجوز نظرة مليئة بالقسوة وقال:

— إلى حيث يجب أن يذهبوا، هناك سيجدون الدماء وينبشون الموت الذي

سيقودهم لسعي وراء الفوضى، فيقتلوا وينهبوا كل شيء في طريقهم.

ثم أضاف :

— هذه ستكون طريقتنا من اليوم وهذا سيكون قدر قبيلتنا.

رفع أرمغان رأسه، وترك الهواء البارد يلامس وجهه المتجدد ثم قال وهو ينظر في

عيني جلمود:

— ولماذا تفعل ذلك يا بني؟

قطّب جلمود حاجبيه واشتد غضبه وهو يقول:

— لأنه لا شيء سيعطينا القوة سوى الموت، القتل هو مصلحةٌ لنا فكلما قلل العدد

زادت الموارد، وكلما زاد العدد كان العكس صحيح .

تهدد أرمغان، وهز رأسه بأسف قائلاً:

— أنا وزيرك ومن واجبي أن أمنعك عن هذا.

هز جلمود رأسه ضاحكًا ، ثم ثبت قناعه بسرعة ليأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يعيده:

__تعلم يا أرمغان، أنا أحبك لكن ليس لأنك وزيري، أحبك لأنك من ربيتي
وكنت معي عندما كنتُ تائمًا بعد ذهاب أبي إلى "نيمورا"، لكن هذا لا يعني أنك
ستتحكم بي... فلا تنس أنا الآن الحوت الأحمر ولن يملِي عليَّ أحد ما أفعله.

ضغط أرمغان على صدره بآلم محاولاً أن يمسك ببقايا قوته:

__لكن هذا يجعلني المسؤول حين قبلت منصبي فعلت ذلك لخدمة قبيلة النار،
وليس لأن أكون مجرد شاهد على الخراب الذي تزرعه. ألا ترى أنك تفعل ما عجز
عنه أسلافنا، وتكمل مسيرتهم في تدمير البشرية، ألا ترى هذا؟

حدق جلمود في الأرض للحظات ثم رفع رأسه ونظر إلى أرمغان مباشرةً، وبهدوء
غير متوقع قال:

__ سأطيع أمرك و سأجعل الجنود يعودون ثم سأتحالف مع الحوت الأزرق إن كان
هذا ما يرضيك.

توقفت أنفاس أرمغان لثواني مصدومًا من استسلام جلمود المفاجئ... حتى أضاف
جلمود:

__ هذا ليس شيئًا في سبيل إرضائك ...

وبطريقة غير متوقعة تدانى من الوزير، ومد يده نحوه. أرمغان رغم دهشته
استجاب له فأعطاه يده ليتفاجأ بتلك القبلة التي وضعها جلمود عليها وبعدها جذبه
إلى حضنه، كان المشهد يحمل طيقًا من الحنان لكن في قلب جلمود كان هناك
شيء آخر يتخمر.

لم يكن سوى دقيقة وبعدها أخرج جلمود من طيات عباءته خنجرًا حادًا ولامعًا...
وبينما لا يزال أرمغان في غمرة العناق عُزّز الخنجر في قفاه ببطء شديد... شعر
أرمغان بشيء بارد يخترق لحمه وسرت قشعريرة قاتلة في جسده. حدثت عيناه في
الفراغ ثم اتسعتا من الدهول والخيانة، بدأ الدم يسيل من رقبته دافئًا وثقيلًا ثم
خرج من فمه بغزاره حتى انه ملأ قناعه الخاص وحين أوى أن يسقط أمسكه
بين ذراعيه... وهمس في أذنه بينما دموعه الساخنة تنزلق على وجهه:

— أنت من ربيتني، لكن هذا لا يعطيك الحق في مخالفة إرادتي..

ثم بصوت أكثر خفوتًا يحطم به آخر رابط كان يربطه بإنسانيته:

— والآن وداعًا يا أبي.

في لحظة مفاجئة، فقدت ساقا أرمغان قوتها وسقط على الأرض. الدم أحاط به
كبركة قائمة يصرخ من عذابه لكنه كان يعلم أن لا شيء سيتغير.

أما جلمود فوقف فوقه ينظر إليه بنظرة تحمل مزيجاً من الحزن العميق والسعادة المشوّهة، كأنه في تلك اللحظة لم يعد بشراً بل صار شيئاً آخر، شيئاً ابتلع كل ما تبقى فيه من رحمة.

لم يكن لأرمغان قبل مصرعه أمنية إلا أن يصدّ جلمود عن بسط يده على مزرعة المرح غير أن المرح مزرعة المرح ليست مزرعة بالشكل المألوف إنها تقع تحت قبة زجاجية يتشابك فيها اوتار معدنية متشابكة موصله بإضاءة اسموها الشمس الاصطناعية. تعمل من خلال اشعال موقد فحم.

في تلك المزرعة كانت الحياة تسير، فهم يحاولون خلق شمس جديد في عالم فقد شمس الحقيقة، الهواء هناك يتحرك بفضل أنابيب بدائية، والماء يأتي بعد تبخيره وتكريره من المستنقعات العفنة

كل شيء يعتمد على مجهود البشر، و العرق الذي يسيل من جباههم.

داخل هذا الزجاج كان الهواء نقياً مما جعل العمال غير مضطرين لوضع أقنعتهم وهم في الداخل...تمتد القبة على مساحة تزيد عن عشرين فدائاً، وتفصل بينها وبين قبيلة الماء مسافة تبلغ ثلاثمائة متر.

في هذا الوقت وقف صمصام، ممسكاً بمنجله يقطع السنابل الجافة واحدة تلو الأخرى، يحارب به الماضي ليصنع مستقبلاً ما. هناك لم يكن العمل خياراً، بل

ضرورة، فلم يكن أحد هناك يحظى بالراحة فحتى الآلات البدائية التي تعمل بجنون لم تُعط لحظة هدنة.

رفع أحد العمال رأسه، وقد أثقل ظهره شوال ضخم من المحصول، ثم قال محاول تشجيعهم:

— هيا يا رجال فلم يتبق إلا القليل، يومٌ آخر يمضي وسيمهد ليوم جديد. لكن رجلاً آخر بالكاد يقوى على رفع يده نظر إلى صمصام بتردد ثم قال:

— سيد صمصام لا أريد إهانتك ولكنك عزيز علي العمل معنا، ارجوك ارتح قليلاً ودعنا نكمل عنك .

نظر إليه صمصام ثم التفت الى البقية:

— اعملوا يا رجال ، فإن الأرض لا تميز بين من يحرثها ومن يتفاخر بها، ونحن جميعاً هنا لسبب واحد لأجل هذه الأرض، ولأجل أن نبقي احياء ولن نرتاح حتى نحصد ما زرعناه.

في النصف الآخر من المزرعة يوجد قطعة ارض يتم انشائها للموسم الجديد. هناك تتابعت أصوات الأدوات وهي تضرب الأرض وتتغلغل في الطين صانعةً أخاديد عميقة في التربة الهزيلة.

كانت الحيوانات الجائعة تشدّ المحراث بتناقل تكافح مثل البشر للبقاء بينما البكرات تدور فوق الآبار البدائية تجلب الماء النقي المتكثف بعد أن صعد كبخارٍ من فرن التبخير. لكن بعيدًا عن تلك المزرعة في العتمة التي لم يصلها ضوء الشمس الاصطناعية هناك أعين تترصد كل شيء، فرجال قبيلة النار موهون في الظل على رأسهم المبعوث من قبل جلمود الذي همس لهم: اخفضوا رؤوسكم حتى ينتهون...

تدبر المكائد باسم الحوت الأحمر الذي لم يكن يبالى بأي شيء، يبعث رجاله لنهب والسرقة، بينما هو في غرفة الطعام، حيث استقر على الطاولة يمسك بملعقة ضخمة، ليخوض بها معركة ضد الجوع.

بدأ يغرف الطعام بشغف يدفعه إلى فمه وكأنه يخشى أن يُنتزع منه الطبق في أي لحظة.

بعد فترة قصيرة، دخلت زوجته، امرأة فاتنة وجهها يزدان بلامح ناعمة كأنها صيغت من نسيم الفجر، وشعرها الداكن ينساب على كتفيها انسياب السيل في حضن الوادي. عيناها واسعتان تشعان كبريق الزمرد.

بعد قليل أخرجت من يدها بعض الأعشاب ووضعتها على مبخرة في وسط الطاولة ثم أزالَت قناعها عن وجهها واستنشقت هواء الغرفة، وكأن الأعشاب المحترقة قد حررت المكان من التلوث.

ثم جلست بالكرسي الذي بجانبه بينما هو يجلس في المقدمة ،كانت أناملها تنقر بخفة على الطاولة، تحاول مقاومة رغبتها في الحديث. نظرتها حملت مزيجاً من الحيرة والانزعاج، حاولت أن تتحكم في مشاعرها فقالت بنبرة لطيفة:

__تأني على نفسك يا حبيبي الطعام لن يتركك ويرحل ..

__أنتِ زوجة الحوت الأحمر فمن واجبك اعاتي على الاهتمام بجسدي.

دلفت ابنته سمراء هي امرأة في العشرينات من عمرها ذات بشرة قمحية وعينين سوداويين، بينما شعرها بنيّ دأكن طويل يتدلّى على جانب وجهها كأنها تخفي نفسها خلفه. ترتدي ثوباً فضفاضاً يذكر بملابس القرويين في عصور الازدهار، وتترنن بمعطف مصنوع من جلد حيوان تضعه على كتفها من البرد، وضعت المعطف بجانبها بعد ان خلعتة ،ثم اراحت القناع عن وجهها وقالت:

__دعي أبي يأكل كما يريد.....أمسك جلمود قطعة من اللحم بيده وقال وهو يبتسم:

__استمعي يا رابحة إلى سمراء عليكِ تتعلمي منها العطف على زوجك.

ضحكت رابحة وقالت:

__أأخرج أنا منها وأترك السعيد في سعادته، ولكن تذكر ابنتك لن تبقى لك، ستأتي يوماً وتزوج وأنا من سألقي ولنرى حينها من سيدافع عنك مني .

ردت سمراء بابتسامة ساخرة:

—ومن قال إني سأتزوج؟ أنا سأظل أدافع عن أبي منك ولن أذهب .

قال جلمود:

—كل فتاة يأتي وقتها وتتزوج، صحيح أن هذا قد يؤلمني، ولكنني سأكون سعيدًا عندما أرى أطفالك.

قاطعته رابحة بحدة والقلق يعتلي وجهها:

—أين أبي؟ لم أره منذ الصباح .

ابتلع جلمود ما في فمه من طعام:

—لقد ذهب لعقد الصلح من جديد، أرمغان لن يصمت حتى يقتله الحوت الأزرق.

(رابحة)

—والدي يريد السلام، أم تريد من تبقى من البشر يقتلوا ويصير العالم في فراغ، أكثر مما يحمله.

ابتسم جلمود ثم قام من على كرسيه بعد أن مسح يديه، ثم اقترب من سمراء وانحنى ليطلع قبلة على رأسها:

—من قال إن العالم سيبقى فارغًا؟ ... ابنتنا سمراء ستتزوج وتملؤه لنا..

غضبت سمراء تاركةً الطعام من يدها وقالت:

__ماذا بك؟

(أرمغان)

__ ماذا بي ؟؟؟ لماذا كل هذا الغضب؟

تدخلت رابحة:

__ أنت تعلم أنها لا تطيق، ابن أخيك وأنت لا تمل من إلحاحك عليها، والآن تأتي بالألغاز لتفتح قلبها، هي ليست جاهلة.

(أرمغان)

__ أنا أعلم دهاء ابنتي جيدًا، كما أعلم ما يسعدها وما يسعد أبيها وستقبل بقولي في النهاية، فأنا أرى في ثقل الصلابة وأرى انه من سيكون الحوت بعدي.

نظرت سمراء إليه بغضب مكبوت:

__ لكنني لا أحبه.

(أرمغان)

__ لا أطلب أن تحبيه الآن، تزوجيه واحبيه .

(سمراء)

—وان لم استطع؟؟

(أرمغان)

—وان لم تستطعي تزوجيه فقط لا يهم.

لم تتحمل سمراء حديثه ، خرجت مندفعة من الغرفة بينما دموعها الدافئة تسيل على وجهها الغاضب.

تفوهت رابحة وهي تتابع ابتها بنظرات مليئة بالأسى:

—لن تتغير أبدًا جلمود هو جلمود... ثم ذهبت خلف سمراء تاركة جلمود وحده،
الذي جلس مرة أخرى، غير مكترث يأكل بشره وكأن شيئًا لم يكن.

وقفت رابحة أمام باب غرفة سمراء وطرقت الباب متممة بصوتٍ مسموع :

—افتحي الباب يا عزيزتي هذه أنا..

فتحت سمراء بتردد، وما إن رأت رابحة حتى ارتمت بين ذراعيها تبكي بحرقة.

ربتت رابحة على شعرها بلطف ، بعدها توجهت نحو مبخره موجوده امام مرآة
والقت فيها بعض الاعشاب ، ثم التفتت اليها :

__ لا تكوني هكذا، اهدي، مجرد حديث بسيط بينك وبين والدك يستحق كل هذا البكاء.

رفعت سمراء وجهها الغارق بالدموع وقالت بصوت متهدج:

__ يفترض أن تعرفيه أكثر مني، عندما يقول شيئاً لا أحد يستطيع أن يردعه، وأنا لا أريد أن أتزوج من ثقيل إنه غليظ القلب أكرهه! هل تسمعينني؟ أكرهه! كيف يرضى أبي أن يجبرني على طريق أسلكه طوال حياتي؟

مسحت راحة الدموع من وجه سمراء لتكمل:

__ هذا الزواج لن يتم، ولكن اهدي ولا داعي لكل هذا القلق.

سكتت سمراء لثواني ثم قالت:

__ أريد الذهاب إلى غابة نيمورا فأنا أريد أن أرى جدتي وأتحدث معها.

(راحة)

__ قد يكون الأمر صعباً في الوضع الحالي ولكن سأحاول التحدث مع جلمود بهذا الشأن.

مسحت سمراء دموعها واستعادت هدوءها قليلاً بينما استمرت راحة بجانبها تحاول طمأنتها.

((الفصل الثاني: حصاد الهلاك))

الوضع كان طبيعيًا داخل مزرعة المرح، تجمع العمال حول العربات القديمة ليدفعوها عبر الأرض الطينية، بينما العرق يتصبب من جباههم ويمتزج بغبار الحصاد.

تحرك صمصام وسط العمال، كان يمسح جبينه المتعرق وهو ينادى بحماس:
— لم يتبق سوى القليل يا رجال... فاحملوا الغلال وأدخلوها إلى العربات ولنتوجه بها إلى قبيلة الماء لنملئ المخازن.

ابتسم أحد العمال وهو يرفع كيسًا ممتلئًا فوق كتفه وقال:
— أنا لا أصدق هذا، لأول مرة في حياتي سأندوق القمح! لقد تعبت معدتي من دود الرشائق وحلزونات التفل.

قاطعته آخر بحماسة وهو يربت على كتف زميله:
— اليوم يوم عيد الرقص والغناء سيعمّ حتى الصباح... السيد صمصام فعل ما ظنناه مستحيل.

ثم التفت واردف بصوت مرتفع
— يعيش السيد صمصام.....

تعالّت الهتافات مع صوته وبدأ العمال يهللون، يرفعون الأكياس ويذكرون اسم صمصام بفخر، وكأنهم يحتفلون بالنصر بعد سنوات من الجوع والكدح.

في الجانب الآخر جلسن بعض النساء يغربلن الغلال، ينقينها من الشوائب وهنّ يرددن أغنية قديمة بنغمة متناسقة:

((الشبع غمغم والجوع زعزع... والخالي مخلاه لا صبر يسلاه))

الفرحة ملأت الوجوه، والعيون اغرورقت بدموع لم تكن من حزن بل من سعادة خالصة كأنهم وجدوا حياة بعد انعدامها.

ذلك اليوم كانت الفرحة تنبض كأنها وعدٌ جديد وعدٌ بعهدٍ ينهي هذه الوحشية عهد يحمل الأمان والطعام ويعيد لهم إنسانيتهم المسروقة.

لكن أي وعد؟ وأي إنسانية تُرجى والحوت الأحمر يعلم بكل هذا؟

زحف جنود الحوت الأحمر حول مدخل القبة بصمتٍ مريب مثل الجراد الذي اتى لنهش المحصول.

حين خرجت العربات المحملة بالغلال، والعمال خلفها يخرجون واحداً تلو الآخر يضعون الكمامات على وجوههم ويعانقون بعضهم بفرح شديد.

صاح وقتها قنديش، قائد الجنود الحمر بصوتٍ جاف :

__اهجموا على هؤلاء الجرذان.

انطلقت أعيرة نارية من الأسلحة القديمة التي يحملونها فانفجرت الرصاصات في كل اتجاه فأردت العمال واحدًا تلو الآخر. صرخات الغوث مزقت السماء بينما اختلط الدم بأشولة القمح ليصبح الحلم وليمة للخراب.

حاول العمال الهروب فتراجعوا داخل المزرعة لكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين. فقد تدافع الجنود إلى داخل القبة كالسيل الجارف.

صرخ قنديش بقسوة أشد:

__استنزفوا ذخيرتكم بالكامل وبعدها اجعلوا السيوف تعمل في أجسادهم.

تحوّل المشهد إلى مجزرة، الجنود يذبحون الجميع بلا رحمة يقنصون كل من تحرك وحتى من لم يتحرك.

من المشاهد الوحشية أمسك الجنود احد العمال وازالوا كمامته ثم غُرسوا سيفًا في حلقه بقوة حتى اخترق اسفل ظهره. آخرون فُتحت بطونهم وأخرجت أحشاؤهم أمام أعين من تبقى حيًا ليشهدوا رعب النهاية.

لم يكفهم هذا فقاموا بإشعال نار داخل حفرة مُهزّت خصيصًا لهذا المشهد كانوا يلقون فيها الأجساد دون اي شفقه أو رحمة.

حتى النساء لم يسلمن فمن حاولن الهرب جُزّت رؤوسهن بوحشية وسط صرخات العجز.

رغم كل هذا شهد العدو صمصام وقفًا وحده، كالوحش الذي استيقظ من السبات.

ضرب الأرض بيده العارية فأحدث دويًا كالرعد، ثم أمسك بمنجله وانطلق كالثور الهائج، كل ضربة منه تُسقط رجلًا تمزق لحمًا وتُسفك دمًا. قطع رقابًا، شق صدورًا حتى غمره الدم ولم يعد يُميز لون جلده من لون الدماء. ركض جندي من النار محاول التصدي له لكن منجله طار برأسه في الهواء ليسقط جسده بلا حياة. حينها صرخ قنديش وهو يرى رجاله يتساقطون:

__ قيدوه... فأنا لا أريده أن يقتل كل رجالي.

ألقي جنديان حبلاً سميكة عليه فالتفت حول قدميه وكتفيه لكنه كان كالفهد يضرب الأرض بقوة ولا يتوقف. حاول أحدهم طعنه، لكن قنديش أوقفه بإشارة باردة فُسرت من قوله:

__ هذا ليس مجرد عامل، إنه صمصام ابن الحوت الأزرق، وأنا لن اضحي به فحين سيكون هدية قيمة للحوت الأحمر.

جره الجنود على الأرض بقوه لكن لسانه لم يتوقف عن لعن قنديش وأتباعه.

وقتها اقترب قنديش منه ثم رمقه بنظرة متهمكة و مرر أصابعه على وجهه المدمى
همس بازدرأء:

__ لا تستعجل الموت أيها الكلب، سأقتلك ولكن بعد أن نأخذ ما نريد منك.
نفذ صمصام رأسه بعنف ليتفاجأ قنديش بعدها بتلك البصقة المملخة بالدماء
على وجهه:

__ إنك كالبق في الظلام، تهجم على من لا يستطيع الدفاع عن نفسه، هاجمت
الضعفاء والعزل يا خنزير! أقسم بدماء إخوتي سأقتلك وسأروي يدي بدمك
النجس!

مسح قنديش وجهه ثم قهقهه قهقهة باردة:

__ تتحدث عن الشجاعة وأنت مكبل تؤ تؤ يا مسكين. تحدث كما تشاء، فالكلمات
لا تُنقذ أمثالك... ولكن حان وقت صمتك.

أشار بإصبعه لجنديان فتقدما، وأوثقوا يدي صمصام وقدميه بالسلاسل وكأنهم
يربطون حيوان اصابه الصعار، بعدها دفعوه بقوة إلى داخل قفص حديدي ضيق
بالكد يتسع له وأغلقوا الباب بإحكام ثم ألقوا القفص في عربة صدئة مخصصة لنقل
البضائع، وسط كل هذا ظلّ يصرخ:

__ أحلوا قيودي وواجهوني كرجال.

ثبت قنديش أمام القفص:

__لاستعجل فلن يمر وقت طويل قبل أن نرى جثتك ملقاة في العراء، وحينها لن يعرف أحد من تكون يا ابن الحوت..

اقترب فرد من الجنود، وأمسك رأس صمصام من بين قضبان القفص ووضع على وجهة قناع الأستنشاق بعنف حتى يُقيه على قيد الحياة، إذ لا أحد يستطيع تحمّل هواء الخارج لأكثر من نصف ساعة وإن زاد الوقت عن ذلك مات المتنفّس من الاختناق.

ابتسم قنديش بسخرية وهو يرى صمصام يحاول دفع القناع عنه دون جدوى:

__لن أدعك تموت بسهولة.

ثم أدار ظهره وأمر بتحريك العربة:

بينما كانت العربة تبتعد نظر صمصام حوله بعينين مثقلتين بالدموع يتأمل المزرعة التي كانت قبل لحظات مليئة بالفرح والغناء، باتت الآن مجرد ركام من الأجساد المحترقة.

همس بين أنفاسه المتقطعة:

__لِمَ لم أمت معهم؟

ولجت رابحة إلى جلمود الذي كان جالسًا على كرسي هزاز أمام مدفأة قد التى فيها بعض الأعشاب لتنقية الهواء، و فيما كان الدخان يتصاعد ببطء، ناشراً رائحة لاذعة لكنها مألوفة في هذا القصر اقتربت منه بحذر، و بنبرة اضطراب مدفونة قالت:

__عزيزي أردت اخبارك بشيء هام.

نظر إليها بعينين ضيقتين وقال بشك:

__ما هو؟

(رابحة بتوتر)

__سمراء تريد الذهاب إلى جدتها زهيرة.

انفض جلمود من مكانه:

__هل جنتِ يا امرأة؟ تريدن منى أن أرسل ابنتي لتتجول وسط هذا الخطر مع انكِ تعلمين جيداً أن أعدائي يترصدون أي فرصة لإسقاطي.

(رابحة)

__أفهم مخاوفك لكن يمكننا إرسال حراس موثوقين لحمايتها فلقد اشتاقت سمراء لجدتها كثيراً وهذه الزيارة ستخفف عنها.

توقفت قليلاً، ثم أكلت بنبرة خبيثة:

—وربما تكون فرصة لإقناعها بفكرة الزواج من نفيـل... أمك وحدها تعرف كيف
تقنعها.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفـتي جـلمود:

—أحقًا تظنين أن أمي قادرة على ذلك؟

ضحكت بخفة وهي تمرر يدها على شعرها ببطء:

—أقنعتني أنا بالزواج من ابنها الثور فلا أظن أن إقناع سمراء سيكون أصعب
كثيرًا.

تجهم وجه ونظر إليها بحدة:

—ما الذي تعنيه بهذا الكلام؟

أجابت:

—لا شيء فقط تذكير بسيط بمدى نفوذ والدتك.

صمت لبرهة، ثم جلس من جديد أمام النار يفكر ليقول بعد وقت قليل:

—أنا موافق أن تذهب، علما ترضى الزواج من نفيـل....

يسكن نفيـل على بعد أمتار في المنزل المجاور للقصر، هناك خرج بجسده الضخم
وعيونـه البندقية القائمة التي يكسوها عروق من الدماء كما يمتد أثر خنجر قديم عبر

وجهه، يرتدي بنطالاً من الجينز الممزق ، يغطي كتفيه قطعة من جلد حيوان مذبوح
بينما وصل طوله الى ١٩٥ سنتيمتر كان يتسكع في خطواته حتى اقترب من القصر
بالداخل صادف سمراء التي اصطدم بها عمداً، ثبت عينيه في عينيها ثم أزال قناع
الاستنشاق عن وجهه، واستنشق رائحة شعرها:

—صباح الخير ... ثم اخذ نفس آخر وأردف:

—رائحة شعرك تشبه جمالك..

ردت بشمزاز:

—وأنت رائحتك تشبه القبح الذي يخرج منك.

ابتسم بغرور:

—من الواجب أن تتعودي على تلك الرائحة لأنها ستكون جزءاً من حياتك... قريباً
جداً...لأنني سأصبح زوجك.

نظرت إليه باحتقار وقالت وهي تتقدم خطوة للأمام:

—إنه حلم وما أجمل أن أراك تحلم ثم أصدمك بالواقع.

مضت وهي تغلي من الغضب تاركة نفيل يحدق فيها بابتسامة ملتوية.

ثم همس لنفسه:

__طر ياطير واسقط بين يدي، لو سقطت بيد غري لقتلته بيدي، ثم استدار ودلف الى غرفة العرش .

ارتفع بصوتٍ جهوري، حين نظر الى الحوت الأحمر وهو يعتلى العرش في شموخ:

__الحوت الأحمر قائد قبيلة النار، ومعذب الأرواح، الرجل الذي أفتخر به وأتشف بأن أكون ابن أخيه!

ضحك جلمود بصوت عالٍ وقال:

__تعرف كيف تأكل عقل عمك، اجلس يا بني.

جلس نفيل ثم مال بجسده نحو جلمود:

__ولكن يا عمي ألم تعدني بالزواج من سمراء، فلما هي تعاملني بتلك الطريقة ؟ لقد..

رد جلمود بغضب وهو يرفع يده ليقطع حديثه:

__دعك من هذا قلت لك ستزوجها وستزوجها، أنا لا أكرر كلامي.. تابع وهو يغير الموضوع:

__ ما أخبار قبيلة الهواء؟

قام نفيل من مكانه ثم تحرك في القاعة واخذ حفنه من الاعشاب الموضوعة في كل مكان، ثم التى بها في النار واستنشق رائحتها بعمق:

-علمت من جواسيسي أن نساء قبيلة الهوء ينزلن من الجبال ويتجولن في المدن التي ضررتها النيازك واجتاحتها الغابات. إنهم يبحثن بكل الطرق عن مخازن الأسلحة التي تركها أسلافنا، تلك المرأة كارمن الملقبة بالحوت الأبيض لا تترك فرصة لتقوية قبيلتها فهي تريد أن تستعد بكل الوسائل الممكنة.

ثم تابع بصوت منخفض:

— هذا لا يمنع انهن يدفعن ثمناً باهظاً، ففي كل رحلة بحث نصف المجندات المبعوثات او أكثر يلقون حتفهم. بعضهم يُلتهمن بأنياب الحيوانات البرية، والبعض الآخر ينهشن من عناكب الصداح السامة أو يلتهمون من قبل نمل البربر الجائع ومن سلم منهم كان وجهه للأحياء الأموات، ومع ذلك يا عمي لا يمكنني أن أنكر أنني أخشى شيئاً واحداً...

توقف لحظة وهو ينظر إلى جلمود ثم اردف ...أخشى أن تعثر كارمن على ما تبحث عنه، لأنها إن وجدت تلك الأسلحة فلن تستطيع اي قبيلة الوقوف في وجه قبيلتها، حينها ستصبح الحوت الأبيض تهديداً حقيقياً وربما يكون أصعب ما واجهته قبيلتنا منذ أجيال.

(جلمود)

ـولهذا علينا أن نكون دائماً في موقع أقوى، أرسل المزيد من الجواسيس فيجب أن نعرف أعيننا كل تحركات كارمن لكي نسبقها دائماً بخطوة .

فجأة استأذن أحد الحراس بسرعة وانحني باحترام ثم قال بصوت لاهث:
ـمولاي الحوت وصل قنديش.

استقام جلمود، ودون كلمة أخرى ثبت قنائه و خرج من القاعة، تبعة نفيل بخطوات سريعة ليتفاجأ لاحقاً بأن امام بوابة القصر، عربات محملة بالغلال مصطفة اسرت ناظريه.

حدق نفيل في العربات مبتسماً بسخرية وقال بعد ان اراح القناع عن وجهه:
ـ ما هذا يا عمي ؟ هل قررت أن تبدأ حياة الزراعة والحصاد؟

ضحك جلمود بصوت مرتفع وقال:

ـامتع عيناك بمحصول قبيلة الماء...كان يظن الحوت الأزرق أن بإمكانه الزراعة والحصاد دون أن ادنس يدي بما يملكه.

ثم التفت إلى قنديش بابتسامة رضا وقال:

ـاحسنت صنعا هيا أأمر الجنود بإدخال الغلال إلى المخازن، وسأكلفك على هذا قريبا

لكن قنديش لم يُجب على قول مولاه ، بل وقف ثابتاً يعتليه الفخر:

—سيدي هناك شيء قد يهكم أكثر من الغلال.

رفع جلمود حاجبه وسأله بشك :

—وما هو هذا الشيء؟

أشار قنديش بيده إلى العربة المستورة بالقماش فتدنى جلمود منها ثم أزاح الغطاء ببطء ، اتسعت عيناه من الدهشة عندما وجد صمصام مكبل داخل القفص.

ابتسم ابتسامة واسعة ثم التفت الى قنديش سألًا :

—ما الذي يفعله ابن الحوت الأزرق هنا؟؟

اجاب قنديش:

— وجدناه مع العمال في الحقول ، الحق يقال لم يكن يحمل سوى منجل ، لكن هذا لم يمنعه من القتال بشراسة. قتل عشر من رجالنا قبل أن نتمكن من إسقاطه، كان أشبه بوحش هائج لكن الأعداد كانت لصالحنا.

ضحك جلمود بصوت عالٍ من صدمته وقال بسخرية وهو يلتفت الى صمصام:

—عشر رجال هو قتل عشر رجال بمنجل ، ومن أجل ماذا من اجل حفنه من سنابل قمح ؟ يبدو أن الحوت الأزرق يربي أبنائه على الغباء أو الشجاعة الزائدة!

أمال جلمود رأسه بمقدمة الصندوق ليصبح وجهه قريباً من وجه صمصام:

— أخبرني يا ابن الحوت الأزرق، هل الحقول تستحق كل هذا الدم ؟

نظر اليه بعينين ضيقتين ليتابع بنجث:

— اعذرني لم أزح قناعك.

مد يده من بين الحديد ونزع قناع صمصام:

— تحدث الآن.

(صمصام)

— الحقول التي دافعت عنها أشرف منك ومن رجالك.... يا سيد الخراب.

— أتمزح حقاً؟ قال جلمود وهو ينظر إلى جنوده ضاحكاً:

— لم تستوعبوا المزرحة؟ لقد وصفني بسيد الخراب بدلاً من سيد النار

أدار رأسه تجاهه وأردف:

— لكني أجد مزاحك ممتعاً، وسنرى كم سيظل كبرياؤك ثابتاً، أمام سيد الخراب...

اشار بيده :

— خزوه إلى السجن، أريد له موتاً بطيئاً يجد فيه العبر.

أمسك الجنود بالصندوق وابتعدوا به، بينما صمصام يثرثر بكلمات غير واضحة،
مشيراً بأن التحدي لم ينته ..

تأمل نفيل صمصام وهو يُجر بعيداً ثم قال:

__ يبدو أن صمصام هذا ليس رجلاً عاديّالتفت الى جلمود برجاء: عمي أريد
أن أواجهه في قتال رجلاً لرجل.

نظر جلمود إليه بدهشة وقال بحزم:

لا.....لا...هل فقدت عقلك؟ ألم تسمع أنه قتل عشرة من الجند ولم يكن يحمل
سوى منجل؟ فما بالك إن أعطيته سيفاً؟

(نفيل)

__ ولهذا... يجب أن اصارعه، اريد اثبات أنني الأفضل، وأنتي أستطيع هزيمته حتى
وهو في كامل قوته.

(جلمود)

__ ليس كافياً ولا مقبولاً، ثم أنا بحاجة إليه لمساومة الحوت الأزرق...هل تعتقد أنه
سيصمت بعد ما فعلته؟

لم يستسلم نفيل بسهولة وأجاب بإصرار:

__ لن أقتله فقط أريد أن أشعر بقوته، انا لم أذق طعم مصارعة حقيقيه منذ زمن وانت تعلم هذا...رجل يمثل هذه الشجاعة سيكون تجربة تستحق.

فكر جلمود للحظة ثم ابتسم وقال:

__ انا لست مُرحبًا بتلك الفكرة، ولكن أريد أن أرى ما ستفعله.... المواجهة غداً، عند منتصف النهار حين تكون الشمس في أبرد حرارتها.

ابتسم ثيل بارتياح وانصرف في طريقه، بينما ولج جلمود الى القصر وجلس على الأريكة في القاعة التي في المنتصف، وهو غارق في الظلام والهدوء رفع صوته قائلاً: يا سمراء.

بعد قليل دخلت ابنته:

__ نعم، يا أبي.

(جلمود)

__ وافقتُ على ذهابك إلى نيمورا.

(سمراء)

__ حقًا يا أبي؟

(جلمود)

—نعم، ولكن لا تذهبي قبل أن تشاهدي عرض المصارعة.
(سمراء)

—متي العرض؟؟
(جلمود)

—سيقام غدا بين نفيل وابن الحوت الأزرق.
نظرت سمراء إليه بازدراء وقالت:

—ابن الحوت الأزرق؟ أنت بهذا تشعل حرباً بين القبائل!
رد بصوت صارم:

—اصمتي! لم يجرؤ أحد من سكان القبيلة على معارضي ثم تأتي، فلذة كبدي وتفعل
هذا!

قالت بتردد:

—ما تراه هو الصحيح يا أبي.

استسمحته ثم غادرت الغرفة لتذهب بعدها الى الجهة الخارجية من القصر، هناك
كانت أمها تجلس بهدوء تحت ظل شجرة من الأشجار اليابسة التي تملئ حديقتهم .
وما إن لمحت رابحة ابنتها، حتى أشارت للخادمتين بالانصراف، فانسحبتا في صمت.

حينها جلست سمراء بجوارها، تتنفس بثقل ثم نزعت القناع عن وجهها ببطء
وقالت:

__لقد وافق أبي على ذهابي إلى جدتي.

قالت رابحة يهدوء بينما مدت يدها ونزعت قناعها هي الأخرى ١:

__ أليس هذا ما أردتيه؟

(سمراء)

__نعم لكنه طلب بقائي حتى اشاهد عرض المصارعة بين ثقيل وابن الحوت
الأزرق.

تغيرت ملامح رابحة ووقفت بغضب دون أن ترد على سمراء، ثم تحركت بسرعة غير
متوقعة وكأنها تخفي سرأ جعلها تستشيط عندما علمت بأمر المصارعة.

نظرت سمراء إلى ظهر والدتها وهي تسير متسائلة:

__ماذا حدث؟

دلفت رابحة بغضب إلى غرفة جلمود فوجدته نائماً على ظهره يحمل تفاحة في يده
ويقضم فيها:

__تقيم صراعاً بين نفيل وابن الحوت الأزرق؟ ووالدي عندهم يقيم صلحاً للسلام!
هل تضحي بأبي الذي رباك وزوجك ابنته؟

تمت لنفسه: لم اتوقع ان تجربها سمراء بهذه السرعة ...ثم ارتفع صوته ببرود:
__بل أنتقم لوالدي الذي رباني وزوجني ابنته.

وكان صاعقة ضربت المكان، تجمدت رابحة في مكانها، وكان الهواء انقطع عن رئتيها.
عينها تلتقطان كل تفاصيل وجه جلمود. وبصوت مرتجف سألت:

__ماذا تقول؟

قال جلمود، في جمود يتقن الدور كما لو كان يؤمن به:

__الحوت الأزرق... ذلك الثعلب الماكر، قتل أرمغان غدراً..

بدأت الدموع تتلألأ في عيني رابحة، لكنها لم تسقط. تقدمت نحوه وهمست :

__ماذا؟...

اجاب:

__ما سمعته .

تقدمت خطوة أخرى وكان الأرض تسحبها صوتها بدأ ينكسر بين الألم والغضب،
ثم انفجرت صارخة:

ولماذا كذبت عليّ؟ لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟ لماذا أخفيت الحقيقة؟
الأسئلة انهمرت كسيل، واحدًا تلو الآخر، بلا توقف، وقد تغلغل الشك في
أعماقها حتى النخاع.

نهض جلمود من مكانه ببطء، وضع التفاحة جانبًا، ونظر إليها بعينين مملوءتين
بالكراهية:

لأنّني كنت أنتظر اللحظة المناسبة. فالصبر هو سلاح، لقد انتظرت طويلًا
حتى أتمكن من ضرب الحوت الأزرق في قلبه، والآن، الآن ابنه بين يدي. ابن
قاتل أبيك وأبي الذي رباني ... هل تفهمين؟ هذه ليست حربًا، إنها انتقام.
قالت في شك:

أي انتقام وأي حرب؟ لقد حاول أبي مرارًا وتكرارًا الصلح مع الحوت الأزرق
وكان الحوت مرحبًا بتلك الفكرة، فكيف له أن يقتل أبي؟ كيف يمكن أن أصدق
شيئًا كهذا؟

بدت ملامح جلمود متناقضة مزيجًا من الحزن والخبث، لكنه سرعان ما اقترب منها
واحتضنها ببطء. تابع بصوت منخفض:

كان الخنزير ينصب فخًا وأرمغان صدقه يا حبيبتي، ظن أنه يحاول مصادقته
ويقوم الصلح. لكنه لم يكن يريد سوى أن يصنع من أرمغان جاسوس، ليعلم كل

شيء عن قبيلتنا، وعندما علم أرمغان بنواياه الحقيقية، رفض ان ينضم له، ولهذا قتله الحوت الأزرق دون تردد.

لمعت عينا رابحة بالوحشية وصدر منها صرخة مدوية وهي تدفع جلود بعيدًا عنها:
_ابتعد عني ولا تقترب...أنت تلمسني قبل أن تقتل من قتل أي.

تراجعت بينما دموعها تنساب كجمرٍ مشتعل فوق وجنتيها، لم تمنح جلود فرصة للرد، حتى باغتها السعال أمسكت بصدرها وكأن الهواء انقطع عن رئتيها .

تغيرت ملامح جلود من الغضب إلى القلق، فتقدم منها سريعًا وهو يقول:

_هذا لأنك تتحدثين كثيرًا دون أن ترتدي القناع... أين تلك الأعشاب؟

أسرع نحو شيء معلق في زاوية الغرفة ثم مدّ يده وأخرج بعض الأعشاب الخضراء ذات الرائحة النفاذة ووضعها في مبخرة مشتعلة. عاد إليها بجذر وهو يهمس:

_استنشقيها ببطء... ستساعدك على التنفس.

بدأت تأخذ أنفاسها شيئًا فشيئًا حتى هدا جسدها المرتعش ومسحت دموعها ببطء لكنها لم تنظر إليه بعين الرحمة:

هذا لن يغفر لك ... ما لم تأتي برأس مقرعون.

ثم دفعت جلود بقوة، وخرجت بعدها من الغرفة دون أن تلتفت خلفها.

ظل واقفاً يحدّق في أثرها، ثم همس لنفسه بصوت خافت:

__هه تطلبين رأس مقرعون؟... سيكون لكِ لكن بثمنٍ لن تتوقعيه.

((الفصل الثالث: أرامل المرح))

ننتقل إلى قبيلة الماء، هي مدينة باهتة على ضفاف نهر إصفر من التلوّث، هناك بدا كل شيء غارقاً في كآبة لا تخطئها العين. لون المياه العكر المحمّل بسموم يشبه شرياناً ميتاً.

المنازل مشيدة من الطين الصلب تُتوجّها أسطح من القش المتشابك، تحاول عبثاً محاكاة موجات النهر الذي فقد صفاءه. وال جسور الخشبية المعلقة امتدت بين الأكواخ كخيوط عنكبوت نسجها البؤس، تتراقص من شدة الرياح وكأنها توشك على السقوط في أي لحظة.

على مشارف القبيلة هناك سور خشبي ضخم شاهق وذو أطراف مسننة كان يحمي القبيلة من غزو الاموات الأحياء والان يحميها من البشر انفسهم .

الوضع بدا طبيعياً حتى أسكت الصمت الهادئ وجلب الذعر والفرع فقد خرجت من كوخها امرأة عمياء تمسك في يدها عصاً قديمة، ترتدي رداء رمادي باهت يغطي جسدها بالكامل ويغطي فيها كالكمامة. مدت يدها ورفعت القماش ببطء عن فمها، ثم بدأت تشم الرياح بعمق وكأنها تقرأ شيئاً في الهواء. فجأة بصقت على الأرض بقوة

واقتربت من بصقتها ببطء فوضعت إصبعها فيها ورسمت نجمة معكوسة في قلب الأرض.

ثم صرخت بصوت اخترق القبيلة:

—أشتم رائحة تسري في كل مكان رائحة خائفة أهلكت بعضًا منا. فهناك من مات، وهناك رزقٌ قد فنى.

وعلى صوت هذه المرأة تجتمع الناس في الساحة. كان سكان القبيلة يرتدى معظمهم ملابس قديمة ممزقة من العصور السابقة بعضها مصنوع من قماش الجنز والآخر من القطن تتدلى منها خيوطٌ مهترئة و التصقت بها طبقات من الغبار العفن.

أما الآخرون فغطّوا أجسادهم بجلود الحيوانات مشدودة بإحكام حول أكتافهم الهزيلة، تحمل رائحة عفن الماء والرطوبة، وتُضفي عليهم مظهرًا بدائيًا يليق بعالم تُكب بالحياة.

على وجوه الجميع وُضعت كمامات مصنوعة من القماش السميك مغمس بطبقة من ريم النهر ذلك الطحلب اللزج الذي لطالما إستخدموه لتنقية الهواء السام لكن حتى هذا الإجراء البسيط لم يكن كافيًا لإخفاء ارتجاف شفاههم أو قلق أنفاسهم المضطربة.

ارتفع صوتٌ من بين الحشود صاح رجلٌ من تحت كمامته:

__ما الذى قالته العرّافة نَدْرَة وما الذى تنبأت به ؟

رفعت نَدْرَة رأسها نحو السماء ، وتغيرت نبرتها للأسوء:

__أقول لكم... إن موتكم على المشارف، والجوع سيأتيكم بالمجادف والهول لن تمنعوه و الحزن ستعلموه.

ارتجفت القلوب من حديث العرّافة، فالجميع يعلم أن ندرَة لا تنطق بالهراء. كلماتها كانت كالسيف تقطع الأمل وتزرع الرعب، فندرَة لم تكن مجرد امرأة عمياء تحمل عصًا نخرتها السنين، لقد كانت عرّافة قبيلة الماء منذ عقود، اختيرت من قبل العرافة سوراده التي سبقتها، والتي قيل إنها كانت ترى المستقبل في تَوّجات النهر وتعويجات الريح... لكن ندرَة مختلفة قوتها لم تكن في الرؤى وحدها، بل في قدرتها على قراءة فقدان وسماع ارواح الموتى المعذبين التي لا يقدر أحدٌ على سماعها.

فجأة دقّت الطبول بصوتٍ مرتفع، داست الأقدام الجسور باندفاع هستيري يتحرك الناس ووجوههم شاحبة يتساءلون عن هذا الحدث المفاجئ. الهواء امتلأ برائحة الخوف والقلق، وعندما وصلت العربة المحطمة إلى ضفاف نهر القبيلة، انطلقت صرخات عالية في كل مكان.

الجثث مكدسة فوق بعضها البعض... عشرون رجلاً، أجسادهم ممزقة ومشوهة، كأن وحشًا قد مزّقهم بأنيابه، تكسوهم الدماء من الرأس حتى أخمص القدم.

وفي عربة أخرى...

سبع نساء، أجسادهن بلا رؤوس والكارثة الأفظع أن رؤوسهن وُضعت بجانب أجسادهن عيونهن مفتوحة وكأن الموت باغتهن في لحظة ألم أبدي.

لم يبق سوى رجلين على قيد الحياة بالكاد قادرين على الوقوف أجسادها ترتعش من الخوف وعيناها غارقتان في صدمة لا رجعة منها.

صرخات النساء ملأت الأرجاء وكل واحدة منهن تنحب فقيدها بينما الآباء يضربون صدورهم بعنف، الفوضى عمت المكان و الدموع انهمرت كالطر وكل من رأى المشهد شعر بأن لعنة قاتلة قد حلت على القبيلة وجلبت معها رعبًا لا نهاية له. من غرفة المجلس خرج مقرعون الحوت الأزرق، رجل عظيم الحجم لديه كرش ممدود وجامد كالصخر، ذقنه طويلة تتخللها شعرات بيضاء ناصعة. عيناه تموجان بلون البحر العميق تنضحان بالقوة والدهاء. صوته حين تحدث أشبه بصوت الطبول التي قُرعت للتو يحمل بين نبراته الغضب والسخط:

__ ما تلك الفاجعة؟

سار نحو العربات والجنود يحيطون به بحذر. نظر إلى الرجلين الجرحى، ثم إلى الجثث المكدسة حوله، عينيه تبحثان في كل زاوية عن ابنه عن صمصام، سحب كمامته لي اسفل:

— أين ابني؟ ومن فعل هذا؟

بصوت متهدج بالكاد يُسمع قال أحد الرجلين:

— يا... يا سيدي كنا نحصد الغلال بسلام وعندما انتهينا وقررنا العودة فجأة
أمطرت علينا الذخائر من كل مكان... قطعونا بالسيوف..... الجثث تمزقت والنار
أكلت الباقين... نحن فقط..... نحن فقط من نجونا أخذنا هؤلاء الجثث معنا أما
البقية فقد أحرقوهم أحياء.

اقترب مقرعون ثم أمسك ياقة الرجل بشدة:

— من هم؟! من فعل هذا؟

رد الرجل بصوت مرتجف:

— لم نرى وجوههم بوضوح، لكن كانوا يشبهون، رجال قبيلة النار.

دفع الرجل بقوة ثم قبض على سيفه ثم رفعه عاليًا وصاح بصوت غليظ:

— وأين صمصام؟ أين ولدي؟

أجاب الرجل وهو يحاول الابتعاد:

— لم يمت يا سيدي.... لم يقتلوه.... لقد أخذوه أسيرًا.

انزل سيفه و قطع رأس الرجلين بلا تردد، وبينما الدماء تتدفق على الأرض كالشلال قال:

__ ادعيتم الموت لتعيشوا وتركتم إخوانكم يُقتلون... لا مكان لكم بيننا سوى الموت.

ظهرت زوجته نوهارا من خلفه، وكأنها خرجت من الجدار.

امرأة في أواخر الأربعين، لم يكن في حضورها جمالٌ يُهيج بل مرارة تسير على قدمين، كان الغضب ينعكس في عينيها مثل ضوء مكسور:

- أين ابني يا مقرعون ؟ لقد ضيعته... هل هذا هو السلام الذي كنت تسعى إليه ؟

هل هذا هو التجديد والنجاة التي حلمت بها ؟ كل حوت يسعى للسيطرة وأنت

اخترت الاتجاه المخالف، انظر الآن إلى ما حل بك وبنا... أنا أريد

ابني أسمعني اريد دددددد ابني ؟

ضغطت على كلماتها الأخيرة لتأكيد غضبها.

(مقرعون)

__ سأحضره ولو كان في أعماق الجُب... لكن عليك أن تهدئي فيجب أن تفكر

بعقلانية حتى لا يصيبه الأذى.

إستدار ونادى بينما يغمد سيفه:

- راغيث راغيث .

من خلفه ظهر رجل ذو هيبة وقامة طويلة، ازاح كمامته الى اسفل ذقنه:

__ انا هنا يا مولاي..

أشار مقرعون إليه بجدة:

__ أريد اجتماعاً مع المستشارين الآن..

انحنى راغيث قليلاً وأجاب:

__ كما تأمر..

بعد نصف ساعة أتى راغيث وقال:

__ الجميع بانتظارك في قاعة المجلس.

تحرك مقرعون، رغم الغضب الذي يتألق في عينيه ودلف إلى قاعة المجلس.

كانت القاعة واسعة، تحتوي على طاولة مستديرة ضخمة من الحجر الأسود مزخرفة بنقوش تحكي قصص أمجاد الحيتان الزرق. في مقدمة الطاولة كان مقعد مقرعون الضخم المزين بالذهب، يعلو كل المقاعد الأخرى في إشارة إلى سلطته المطلقة.

وفي وسط الطاولة وُضع إناء نحاسي معتق يغلي فوق نار هادئة، يتصاعد منه بخار كثيف ناتج عن مزيج من الطحالب والمواد المخمرة. هذا البخار يتسلل في أرجاء

القاعة ينثي الهواء من السموم مما يمنح الحاضرين فرصة للتنفس بحرية دون الحاجة إلى ارتداء الكمامات.

جلس مقرعون على عرشه واضعاً يده على مقبض سيفه المغروس بجانبه. وعلى يمينه ويساره المستشارون جالسين على كراسي أقل شأنًا لكنها تبقى أنيقة بلمسات من الفخامة.

ارتفعت الأنظار نحو مقرعون الذي التزم الصمت لبضع ثوانٍ، ثم قال بصوت هادر:
_لقد علمتم جميعًا بما حدث للعمال على أيدي جنود جلمود وما حل بابني صمصام.
دماؤنا تُسفك وأرضنا تُدنس... انتهى زمن الانتظار ولقد اجتمعنا هنا لنضع خطة
لإنقاذ ابني، وإعادة هيبة قبيلة الماء التي دنستها قبيلة النار. والآن أريد أن أسمع
اقتراحاتكم... ولكن احذروا فكل كلمة ستقرر مصيرنا.

تقدم فايضون، مستشار الاقتصاد وقال بصوت متهدج:

_هي ليست مجرد كارثة بل انهيار لجذور ما زرعناه ضاعت جهود سنوات في
إستصلاح تلك الأرض، بعد كل ما بذلناه لجعلها خصبة صالحة وهذا أول حصاد
كنا ننتظره ولكن... بدل أن نحمله خسرناه، إنَّ الأرواح أزهقت في الحفاظ على
الأرض ولم تجد من يحميها.

انتفض زاهرون المستشار الروحي وقال

__ ولكن يا مقرعون اعذرني على جرأتي... أنت من تتحمل كل هذا.

صمتت الغرفة لثوانٍ. ثم نظر مقرعون إليه وقال:

__ كيف تجرؤ على إلقاء اللوم عليّ؟

لم يرتبك زاهرون بل رد بثبات:

__ نعم أقولها وأتحمل عواقبها، هل نسيت يا مقرعون؟ لقد دعوت إلى السلم بينما أعداؤك لم يجنحوا له. ليس هذا فقط بل أعطيتهم الأمان وثقت بعهودهم ولم تكلف نفسك بتعيين حراس على العمال في الحقول لقد انخدعت وهذا الشتات الذي نحن فيه الآن نتيجة لأفكارك المغلوطة، كنت دائماً أقول من أراد السلم أعطيناه، ولكن من عزم على العداوة وفيناه، فالكأس دائر والأفواه تطلبه.

ضرب مقرعون يده على الطاولة بقوة، فرتج صوت ارتطامها أرجاء القاعة التفت إلى زاهرون:

__ كلماتك وحة لكنها تحمل الحقيقة، اليوم انتهى زمن الأوهام، لن أجنح للسلم إلا إذا كانوا يسجدون أمامنا طلباً للصفح ومن هذا اليوم لا أمان ولا عهد.

قال سليمان، مستشار الحرب:

__ أنا لست كبير المستشارين فقط بل مستشارك العسكري أيضًا، ورأيي ألا
تتسرع في إعلان الحرب نحن لا نملك أسلحة كافية، بينما جلمود وقبيلته يمتلكون
بنادق من أسلحة الأسلاف.

سأل مقرعون:

__ وما هو الرأي المناسب.

اجاب سليمان:

__ الأفضل أن نرسل فريقًا من الجنود المهرة لإنقاذ صمصام خلصة، وعندما يكون
ابنك آمنًا ، نقرر بعد ذلك خوض القتال أو لا.

التفت مقرعون إلى جرميد وقال:

- ماذا عن العمل الذي طلبته منك؟ هل أنهيته؟

أجاب جرميد بارتباك:

__ نعمل بجدي يا سيدي لكننا بحاجة إلى المزيد من الوقت.

نظر المستشارون إلى بعضهم البعض بغموض ، متسائلين عما قد يكون هذا العمل
لكن لم يجرؤ أحد على السؤال.

(مقرعون)

— حسناً من منكم يوافق على رأي سليمان؟

واحدًا تلو الآخر وقف المستشارون وضربوا الطاولة السوداء مرتين وقالوا:

— نوافق. ثم انحنوا احترامًا للزعيم.

بعد انتهاء الاجتماع وخروج الجميع وقف مقرعون عند مدخل القاعة غارقًا في صمت طويل ينظر إلى السماء الملبدة بالغبار، وهي بثلقي بظلمها الثقيل على وجهه، قاطعته رؤية امرأة تقترب ببطء على جسر خشبي وسط الضباب.

تحمل طفلًا صغيرًا بين ذراعيها وطفلة صغيرة تمسك بطرف ثوبها البالي. وجهها متعب وعيناها تخفيان ألمًا دفين. توقفت على مسافة قصيرة منه ثم قالت من تحت كمامتها:

— أنا حيندة جئت أشكو حالنا.

(مقرعون)

— وما هو حالك؟؟ سألها بفضول.

(حيندة)

— زوجي كان مع عمال المزرعة، ولقد دفنته اليوم بيدي وأطلب منك إما أن تنصفنا أو تدفني معه.

نظر إليها مقرعون ببرود ظاهري وقال:

__ ما الذي تطلبينه مني ؟ لست الأولى التي تفقد زوجًا ولن تكوني الأخيرة نحن جميعًا نعاني، العالم كله يعاني.

رفعت المرأة رأسها والدموع تلمع في عينيها لكنها لم تنهمر:

__ وهل فراق الأحبة شيء يستهان به ؟ زوجي كان عماد حياتي وحياة أطفالي قل لي ماذا فعلوا ليستحقوا أن يصبحوا أيتامًا قل لي ماذا فعلوا ليكونوا جوعًا عطاشًا ؟ ... أجبني.

في هذه اللحظة تركت الطفلة يد أمها وتقدمت بخطوات صغيرة نحو مقرعون. رغم الغبار الذي يغطي وجهها كانت تبسم ابتسامة بريئة فجأة بدأت تغني بصوت ناعم وهي لا تبالي ولا تشعر بمن حولها:

__ أحلامنا أزهرت بعد ليلها الحزين وقلوبنا أبحرت مع موج بحر جميل .

ابتسمت بخفة ورفعت يدها الصغيرة وكأنها تداعب شعاع شمس تحيلت وجوده ثم عادت فجأة إلى أمها بخطوات مسرعة محولة ملامحها البريئة إلى حزن طفولي.

همس أحد الواقفين بجانب مقرعون:

__ وكأنها تختلس لحظات السعادة من عالمنا الموحش... ثم تُعيد نفسها إلى واقعها المر.

اقترب مقرعون من الطفلة ببطء ثم جثا على ركبتيه حتى أصبح في مستواها نظر إليها بنظرة لم يرها أحد من قبل:

ما اسمك يا صغيرة؟

نظرت الفتاة إلى أمها التي ابتسمت لها بحزن ثم أجابت بصوت خافت:

- طريفة.

ابتسم بحنان وقال:

— طریفہ وانتِ فعلاً طریفہ...هل تعلمین یا طریفہ أنتِ تشہین ابنتی کثیرا .

ثم سألها بلطف:

— ماذا كنتِ تغنين؟ تذكرين هيا لنغني معًا.

ابتسمت الصغيرة وكأن ابتسامتها تضيء المكان، ثم بدأ الاثنان يغنيان معًا بصوتٍ منخفض مليء بالبهجة:

__أحلامنا أزهرت بعد ليلها الحزين، وقلوبنا ابجرت مع موج بحر جميل....

وسنملي القلوب انهاراً من الحنان، همسات الأجنة تُشعل لنا الأمل.....ان.

كان صوتها ينادي بشكل طبيعي وقلوبهم تهدأ مع كل كلمة وكأن الأغنية تمثل رغبة في الحياة وفي الأمل وفي المستقبل الأفضل.

ثم التفت إلى المرأة وأخرج من ملابسه زجاجة صغيرة تشبه زجاجة العقاقير:
_ افتحي في الصغير أولاً.

أزاحت المرأة الكمامة عن وجه طفلها الرضيع بحذر، فاقترب مقرعون وقطر بضع قطرات من الماء في في الصغير، تأوه الرضيع بلطف وهو يتذوق الماء النقي ثم ربت على رأسه برفق كأنما يطمئنه.

ثم التفت إلى الطفلة الأكبر سنًا وأشار لها بيده:
_ افتحي فيك يا طريفة.

أزاحت الفتاة الكمامة عنها، وبلل مقرعون شفيتها بقطرات من الماء، بينما كانت عيناها تلمعان بامتنان.

أخيرًا نظر إلى المرأة وقال:

- الآن دورك.

ترددت للحظة ثم نزع الكمامة بهدوء. فسكب مقرعون بضع قطرات في فمها بعدها اعادت الكمامة إلى مكانها سريعًا تراجع قليلًا وقال:

_ سيصلك أسبوعيًا لتران من الماء، وستصلك المؤن بانتظام، طفلاكِ لن يناما جائعين وإن احتجتِ إلى أي شيء آخر أنا هنا.

انحنى قليلاً وقبّل يد الرضيع وربت على رأس طريفة ثم وقف والتفت إلى رجاله:
—رافقوها إلى منزلها وتأكدوا من وصول المؤن دون تأخير.

وبينما كان سيعود إلى القاعة ثبت للحظات ينظر إلى الطفلة التي اختبأت خلف أمها لتعود في ذهنه صورة ابتسامتها فتسللت دمعة خفية إلى عينيه مسحها بسرعة قبل أن يراه أحد وهمس لنفسه:

—اطفال مثلها هم ما تبقى من الأمل... لكن هل يكفي الأمل لإيقاظ هذا العالم.

احل الليل ستاره المظلم في الأفق، و تسلل البرد عبر الفجوات ولم يكن هنالك سوى صوت الريح الذي يلعب بالخارج، مما جعل الأبواب الخشبية تنن بأنين خافت.

في تلك الأثناء، داخل كوخ خشبي تتزين جدرانه بشرائط ممزقة من الأقمشة الملونة، كانت الشموع تبعث بنور متذبذب على الأركان، و العرافة ندرة جالسه أمام إناء فخاري مملوء بالماء، تتأمل سطحه الهادئ تحاول قراءة ما لا يرى.

امامها رجل يجلس محاطاً بدائرة من الشموع، عينيه مثبتتين عليها، يراقب كل حركة وكل همسة في انتظار ما سيحدث بعد ذلك.

رفعت ندرة إصبعها نحو الرجل، ونفخت في يديها بقوة، ثم ضربت سطح الماء بحركة مفاجئة، ما أدى إلى اهتزاز توجاته تحت أصابعها. بصوت منخفض وخيف همست:

__تعال ... اقترَب... أكثر.

تقدم الرجل نحوها، ابتلع ريقه بفعل الذعر وهو يراقبها بعينيه المرتجفتين. وعندما دنى منها، انحنت نحوه وهممت في أذنه:

__اغسل وجهك بهذا الماء.

تردد الرجل للحظة، ثم مد يده المرتجفة نحو الإناء، أغرف قليلاً من الماء بين راحتيه، وغسل وجهه. وما إن لامست القطرات بشرته حتى اهتز جسد ندره بشدة، كأنها تلقت صاعقة مفاجئة انتفضت عيناها العمياء نحو الأعلى.

تشنجت أطرافها قبل أن تهمس بصوت ضعيف يحمل الرعب:

__أرى كل شيء...نعم كل شيء يتجلى أمامي...أُذني تسمع الصراخواشي يستنشق الحريق .

حدّق الرجل فيها، وقلبه يدق دقات سريعة من شدة الخوف ، ثم تجرأ وسألها بصوت يعتريه القلق:

__ماذا ترين؟

لم ترد على الفور بلعت ريقها بصعوبة، تتذوق نكهة النبوءة قبل أن تتحدث بها ثم نطقت ببطء، صوتها مبحوح كأنه يأتي من بُرٍ بعيد:

__ بعد سبعة أشهر ستندلع النيران... أستطيع شمّها الآن... الدخان في أنفي...
وأصوات الصراخ تصم أذني.

تصلّب جسده، وازدادت ضربات قلبه ، بينما هي أكملت بصوت مخيف:

__النار ستلتهم بيت أخيك، ستمحو كل شيء... هو...زوجته...رضيعه...أما أنت؟
فسوف تكون هناك تراقب كل شيء وتبتسم.

انعقد حاجباه في توتر، لكن قبل أن ينبس بكلمة أضافت بصوت خافت مليء
بالسخرية:

__لن تحزن أليس كذلك؟ بل ستكون سعيدًا لأنك ستأخذ كل شيء، نصيبه من
المياه والحبوب و الطعام المخزن في خزينته كل ذلك سيظهر بعد موته... ستصبح
الرجل الأغنى، و بالارث الشرعي.

بيطء... تحركت زوايا شفثيه إلى الأعلى، حتى تكونت تحت كمامته ابتسامة مختلطة
بالدهشة والنشوة تظهر اثرها في عينيه، انفجر في ضحكة خافتة لم يستطع كتمانها
أكثر:

__ سأصبح غنيًا.

رفعت ندره رأسها نحوه، كانت عيناها العمياء تتلألآن في الظلام كأنها قادرتان على
الرؤية ثم ابتسمت كاشفة عن أسنانها الصفراء الغير منتظمة، وهمست بصوت ناعم:

—وأين هو نصيبي من هذا؟

لم يتردد الرجل دس يده في جيب معطفه المترب، وأخرج منه علبة قديمة عليها ملصق باهت يُظهر حبات فول مُعلّب، قدّمها لها كأنه يمنحها كنزًا وقال:

—عثرت عليها خارج القبيلة... إنها من طعام أسلافنا... طعامٌ مُبارك.

حدّقت في العلبة بصمت ثم مررت أصابعها المتعرجة فوق سطحها المعدني البارد وأخيرًا أخذتها منه برضا، وضعتها بجانبها، وربّنت عليها برفق كأنها قطعة ذهبية؛

—سعرٌ مُرضٍ.

لم يكد الرجل يتحرك حتى فُتح باب الكوخ فجأة، وتسَلَّلت منه نسِمت هواء باردة أطفأت شمعة في الزاوية، انحنى الرجل عند رؤية القادم، ثم هرب من الكوخ دون أن يلتفت.

رفعت ندرة رأسها، اشتمت رائحته ثم مالت بابتسامة باردة وهمست:

—مرحبًا يا سيد مقرعون... لم تأتي لزيارتي منذ سنتين!!

(مقرعون)

—وكنْتَ أتمنى ألا آتي مرة أخرى ولكن أريد أن أعرف امرأ..

(ندرة)

وما هو؟؟

(مقرعون)

هل سيعود ابني إلى حضني أم سيموت؟

(ندرة)

وهل مع الحوت الأزرق الثمن لذلك؟

لم يرد، بل مدّ يده وألقى أمامها زجاجة تحوي لترين من الماء الصالح للشرب، وكيّسًا من حبوب الطعام، انحنى ندرة نحو الأشياء، شمّت رائحتها العتيقة، كأنها تقيّمها ثم أومأت ببطء وقالت:

هذا ثمنٌ باهظ... يليق بحوت..

رفعت رأسها ناحيته ومدّت يدها نحوه قائلة:

أعطني إصبعك.

تقدّم الحوت الأزرق ببطء ومدّ يده فأخذت ندرة تتحسسها بأطراف أصابعها النحيلة حتى وصلت إلى خصره، بظفرها الحاد وخزت أصبعه فتدفقت منه قطرات دم داكنة، أمسكت بزجاجة صغيرة جمعت فيها الدم ثم وضعتها جانبًا.

بعدها رفعت شمعة من قربها، قَرِبت الزجاجَة منها حتى بدأ الدم يغلي بداخلها بينما يدها تظل ممسكة بها دون أن تتأثر بحرارة اللهب، كأنها فقدت الإحساس تمامًا. عيناها ظلَّتَا شاخصتين نحو الدم المغلي قبل أن تصبّه في إناء الماء أمامها.

ببطء، غمست إصبعها المملّخ بالدم في الماء، وأخذت ترسم به دوائر عشوائية على السطح، وهي تهتمهم بكلمات غامضة:

—أنا العاشقةُ العمياء، جلسْتُ في الأرض السوداء، قبلْتُ كلَّ ما كان، وناديتُ على ما سيكون، وعشقتُ القاتل... قبلَ أن يقول. فيا هامون يا بنتَ عُقاب يا ظلَّ السِّرِّ في بطنِ الغياب، أقسمُ عليكِ بعِمةِ الليلِ حينَ يُخفي، وبوميضِ النجم حينَ يشقّي، أخرجني من الصمتِ، من الحُجبِ، من الغمام، تعالي كما جئتِ أولَ مرة، تعالي كما كُتِبَ في اللوحِ أولَ الزمان.

فجأة انتفض جسدها بقوة واندفع صرخة عميقة من داخلها كأن روحًا أخرى قد استقرت فيها بالقوة. اهتز وشاحها بعنف وسقط عن رأسها، كاشفًا عن شعرها الأبيض المتجعد الذي تراقص مع العاصفة الخفية حين اجتاحت المكان. في تلك اللحظة انبعث من عينيها العمياء نور غريب كأنها أبصرت ما لا يرى وكأن العالم كله تجلّى أمامها بلون آخر، امتلأ الكوخ بهواء ثقيل

خانق يحمل رائحة لا تنتهي إلى هذا العالم وكأن بوابة خفية قد فُتحت بين العوالم.

من شدة الهواء أنطفأت الشموع دفعة واحدة وترك المكان في ظلام مضطرب
تتراقص فيه ظلال غريبة على الجدران ، خرج صوتها لكنه لم يكن صوتها بل صوت
آخر، غريب، ثقيل ممتلئ بالغضب والرغبة كما لو أن امرأة أخرى قد سرقت
حنجرتها لتتكلم عبرها:

__أراه هناك... في مكان ضيق... حيث لا يمر الهواء إلا من بين القضبان... حيث
الأم ليس في الجسد وحده بل في الروح التي تبحث عن مخرج ولا تجده، قلبه
يحترق مما رآه... وجسده يتلوى مما سيلقاه.. أما روحه فهي ممزقة تائهة كهاجر في
صحراء بلا نجوم... كلما ظن أنه اقترب ارتفع أمامه جدار آخر وكلما حاول أن يقف...
سقطت عليه تلك الجدران.

(مقرعون)

__وماذا بعد؟

ابتسمت ندرة ثم اردفت:

__ غدا... سيواجه المصير وهناك سينكشف كل شيء... ابنك سيعود نعم
سيعود .. لكن لن يعود كما كان فالماء حين يختلط بالنار لا يعود ماء.. والظل
حين ينكسر لا يعود ظلاً... ابنك سيرجع لكن حينها لن يكون صمصام الذي
تعرفه بل سيكون الحوت الجديد.

ما إن لفظت كلماتها الأخيرة، حتى انتفض جسدها بعنف وارتفع للحظات في الهواء، ثم سقطت على مقعدها، فارتج المكان تحتها، وتحطم إناء الفخار الذي يحمل الماء أمامها فتناثرت قطراته على الأرض.

((الفصل الرابع: تجاعيد الصراع))

في أحد الزنازين المعتمة داخل سجن رهيدا التابع لقبيلة النار، جلس صمصام القرفصاء في زاوية الزنزانة، كأنه يحاول أن يذوب في الجدار، أن يختفي من كل شيء... حتى من نفسه.

ظهره ملتصق بالحائط البارد، ويدها تطوقان ساقيه كطفل ضائع في عالم لا يعرف الرحمة، لم يكن نائماً ولا يقظاً، غارقاً بين حافة العقل ومهوى الذكري.

عقله لا يصمت فالصور تتراقص كأشباح فوق عينيهِ، وجوة مذعورة، دماءٌ سالت بلا إذن، العمال الذين سقطوا... الصرخات سكنت الزنزانة أكثر مما يسكنها هو.

عيناه البندقيتان تغيم كلما تذكر، تتوهجان من الداخل بدموع يأبى أن يتركها تسقط، كأنها ستفضحه إن فعل.

ثم فجأة... في لحظة واحدة وسط صمته المنهك... ضحك.

ضحك كالمجنون ضحكة مفاجئة، حادة، كأن شيئاً عبثياً تسلل إلى وعيه المكسور، وترك الباب مفتوحاً خلفه وجهه شاحب، بشرته تميل إلى الرماد، وشفاهه متشققة

من الجفاف، عيناه محاطتان بسوادٍ كأن النوم هجره منذ أيام لا تُعد. شعره منكوشًا، كُثًا، لحيته نمت بطريقة غير منتظمة، نصفها يدل على التخلي، والنصف الآخر على الغرق، قيصه ممزق من عند الكتفين وساعده نجيلان من الجوع... جسده يحمل ذاكرة المجزرة، وأنفاسه تخشى أن تتكرر.

الحزن، السخرية، الخوف، الجنون... كلهم يعيشون فيه لكن لا شيء منها يعرف اسمه

تتم مع نفسه:

__ماذا حدث؟ هل أنا في حلم؟ أتمنى أن يكون كذلك، أريد أن أنام وعندما أستيقظ أجد نفسي في القبيلة حيث لم يحدث شيء... أريد أن أنسى.

عقله لم يرحمه، في كل مرة يسمع فيها هتافات العمال تتردد في ذاكرته (يعيش السيد صمصام) يصرخ ثم يضرب رأسه في الجدار يحاول إسكات ذلك الصوت:

__توقفوا... توقفوا.... السيد صمصام لم ينقذكم توقفوا.

لكن الأصوات لم تتوقف فلم يكن هناك سوى صدى عذاباته في الزنزانة الضيقة، وضع قناعه قبل أن ينهار على الأرض، جسده ارتجف، ودموعه تساقطت حتى غلبه الإعياء ونام كطفل مذعور لجأ إلى النوم هربًا من كوابيسه.

في صباح اليوم التالي ومع بزوغ الشمس التي أَلقت ضوءها الشاحب على قبيلة النار.

فُتح باب الزنزانة تبعه صوت صرير بطيء ثم دخل أحد الحراس خطواته رتيبة وعينه جامدتان على صمصام.

كان صمصام لا يزال نائمًا أو ربما غارقًا في وهم الهروب من واقعه. لكن مع اقتراب الحارس فتح عينيه ببطء.

رفع الحارس شعلة نارية قريبة من وجهه وقال بجدة وهو يزيل قناع الاستنشاق عن وجهه:

__ استعد يا هذا، ستواجه اليوم نفيل في قتال دموي.

رفع صمصام رأسه ببطء ونظر اليه بعينه المتعبتين وبرغم جروحه أزاح قناع الاستنشاق بيده المقيدة:

__ نفيل؟ ومن يكون هذا النفيل؟

ضحك الحارس بستهزاء:

__ يبدو أنك تجهل مصيرك فقليلون جداً من نجوا من تحت سيف نفيل، حتى وإن نجوا لم يخرجوا سالمين.

صمصام بشغف:

__ أنت لم تجبني ايها الاحق من هو نفيل.

اردف الحارس بغضب:

__ نفيل هو ابن أخ الحوت الأحمر، ومن أقوى شباب قبيلة النار، هو قاتل
الوحوش صاحب البأس والقوة نفيل بن خلدون، ويحتمل أن يكون الحوت الأحمر
بعد عمه.

ابتسم صمصام بسخرية وأجاب وهو ينظر الى الحارس بطرف عينه:

__ للأسف قد يكون اليوم يوم مصرعه... ثم اردف بضحكه هستيرية انصدم من
سماعها الحارس حينها تجهم وجهه لكنه لم يرد، فك قيوده وألقى إليه بملابس جديدة
قائلاً:

__ ارتدها لكن لا تظن أنك تستطيع الهرب فالسجن محاط بالآلاف من الحراس
وستقتل في اللحظة التي تفكر فيها بالمحاولة.

تركه بعد أن أغلق الباب خلفه ليهمهم بسخرية:

__ من هذا المجنون اقول له نفيل فيضحك.

نادى عليه صمصام مجدداً:

__ يا هذا أخبرني لماذا هذه الأقنعة هكذا ؟ انا لا أستطيع حتى الحديث من تحتها!

توقف الحارس ثم التفت إليه ببرود، وقال بصوت أجوف:

__ يفترض أنك على دراية بذلك، إذ أنك ترتدي هذا القناع منذ فترة ولكن سأوضح

لك مدى تقدم شعبي بالمقارنة مع شعبك، يتميز القناع بخارجيته المصنوعة من الحديد، بينما يحتوي من الداخل على طبقات كثيفة من القماش تمتد لتجاوز ما بعد الشفتين. أما الفتحتان الصغيرتان عند الأنف، فهما مخصصتان للتهوية، حيث نضع فيها عشبة الميرمية المحترقة لتنقية الهواء. هذه التقنية تضمن تصفية الهواء الداخل من الملوثات والسموم، وقد أثبتت فعاليتها خلال العصر الذي نعيشه في هذا الوباء، الوباء الذى أهلك الكثير غيرنا بينما بقينا نحن أحياء.

قطب صمصام حاجبيه وقال:

__ كل هذا لا اريده ، أنا أريد كما متي الخاصة قبل أن أصاب بالجنون تحت هذا القناع...لقد علمت الآن أن شعبي قد تخطى شعبكم بفضل كماداته، فلم يكن بحاجة لكم حديثه من تحتها.

لم يجبه الحارس هذه المرة، بل استدار وغادر.

بعد وقت قليل نهض صمصام ببطء لكى يرتدى الملابس التي احضرها الحارس بدأ بالقميص الأحمر ثم ارتدى البنطال الجلدي الضيق، بعدها شدّ القناع الذي يساعده على التنفس بإحكام ثم دس قدميه في حذاء مصنوع من الجلد.

بعد انتهائه رفع القناع قليلاً عن وجهه تأمل نفسه للحظات قبل أن يغتم:

__تمتلك تلك القبيلة ذوقاً رفيعاً في اختيار الملابس.

تحرك في مكانه ليختبر مرونة البنطال حتى وقعت عيناه على ملابسه القديمة المملطخة بالدماء، فالتقطها ببطء وتأمل بقع الدم المتناثرة فيها ليستنشق رائحتها بعمق، ثم همس لنفسه:

__أنا أعهد بهذا الدم أن أروي الأرض بدماء من تعدّى على شعبي.

مرّت ساعة كاملة حتى فتح الحارس الباب مرة أخرى فرفع قناعه عن وجهه وقال:

__اتبعني.

تحرك صمصام خلفه خطواته تتردد في الممرات بلا تردد فجأة وقف امام باب خشبي مطلى بلون فضي، فتح الحارس الباب لتظهر غرفة الأسلحة.

قاعة واسعة سقفاها مفتوح تتسلل منه أشعة الشمس البيضاء تلمع فوق المعادن الصدئة مانحة إياها وهجاً زائفاً.

أشار الحارس بلا مبالاة:

__ اختر سلاحك.

دخل وعيناه تمسحان المكان حتى وقعتا على رف حديدي قديم تصطف عليه مجموعة من السيوف، لكل واحد منها وزن وشكل وتاريخ محفور على نصله. مرر أصابعه على مقابضها يستشعر برودتها حتى استقرت يده على سيف لامع رفعه ببطء اختبر ثقله فوجده خفيفًا متوازنًا كأنه صُنع خصيصًا له. تأمله للحظة ثم مرر أصابعه على النصل وتمتم بصوت خافت:

__ هذا يكفي.

وبعد وقت ليس بالكثير قاد الحراس صمصام عبر ممرات السجون الداخلية ليلم وضعه في عربة محكمة الاغلاق حتى وصل إلى ساحة المصارعة تلك الساحة بنيت على طراز ساحات المصارعة الرومانية القديمة، كان المكان سوداوي الشكل تغطي أرضيته الرمال الحمراء، ينكس فيه نور الشمس الداخلة من السقف الشفاف.

ومن الأعلى كانت قبيلة النار قد احتشدت في المدرجات المرتفعة يهللون بحماس ويصفقون بانتظار بدء القتال، البعض منهم يحمل رايات مزينة برموز القبيلة، وآخرون يقرعون الطبول.

في زوايا الساحة وقفت تسع نساء بملابس رمادية فضفاضة، زين وجوههن بمكياج غامق، يحملن في أيديهن مبخرات نحاسية يتصاعد منها دخان أعشاب مثل المرمرية وإكليل الجبل الذي ينثر في الهواء ليبقى الجو نقيًا، فلا يكون هناك حاجة لارتداء الأقنعة.

كان عرش الحوت الأحمر أقرب إلى الساحة من الجميع وأعلى منهم جميعًا العرش ضخّم مصنوع من الحديد والخشب المطعم بالعاج، يظهر مزيج بين القوة البدائية والفخامة الملكية.

جلس الحوت الأحمر عليه بتفاخر، يرتدى رداء قرمزي يحيط بجسده العريض يتدلى على كتفيه، على يمينه جلست زوجته التي كانت تردى وشاح أحمر يغطي وجهها. وعلى يساره جلست سمراء الذي لم يظهر على وجهها سوى الجمود. فهي لا تكثر لكل هذا ولا تريد ان تجلس مع هؤلاء القوم المتعطش لدماء.

أشار الحوت الأحمر بيده فالتفت أحد الجنود وأسرع نحو بوابة من بوابات الساحة الست ففتح الباب ليقترحم المكان مجموعة من الرجال يجزّون وحشًا مهجئًا جسده شبيه بالثور لكن قرونه أكثر صلابة وطولاً، كان يزجر ويضرب الأرض بحوافره بعنف يحاول التحرر من القيود التي تكتله.

وقف الجميع ينتظرون إشارة البدء في الطقس المقدس الذي يسبق المصارعة عندها نهضت زوجة الحوت الأحمر وهي تبتسم ابتسامة غامضة .

ثم رفعت يدها وبعدها ألقت بمنديل حريري في الهواء.

في اللحظة التي لامس فيها المنديل الأرض اندفع رجل أسود الوجه عاري الصدر ممسكاً بسيف ضخم وبمركبة خاطفة قطع رأس الوحش بضربة واحدة. تدحرج الرأس العملاق على الرمال الحمراء، بينما جسد الوحش ارتعش للحظات قبل أن ينهار تماماً.

علت الطبول أكثر وبدأ الجميع يتمم انشودة لي أكمال الطقس

__ ((تيجنا برطاق فقانا عقدر فراه ... يا دم الأرض يا نار السرد بارك قوتنا وأقتل كالبرد))

تقدم الرجل نفسه الذي قطع رأس الوحش و التقط وعاءً كبيراً وملاه من الدماء الساخنة التي نزفت من الجثة ثم مشى نحو العرش وانحنى مقدماً الوعاء إلى الحوت الأحمر.

أخذه جلمود ببطء تأمل اللون القاني للحظات، ثم رفع الوعاء إلى شفثيه وشرب منه القليل ليباركه ، بعدها أخذ الوعاء الرجل ذاته، مرة أخرى.

وإشارة جديدة تم سحب الجثة الضخمة خارج الساحة تاركة وراءها آثار الدماء التي غطت بقعه كبيره من الارض الرملية .

ثم فُتح الباب الغربي فدخل صمصام مكبلاً من قدميه و السيف الذي اختاره يحمله في يده اليمنى.

أحاط به الحراس حتى وصل إلى قلب الساحة، ثم أطلقوا سراحه وتراجعوا للخلف.

تقدم إليه الرجل الذي قطع رأس الوحش رفع الوعاء المليء بالدماء وسكب بعضه على وجه صمصام، ليمنحه بركة القتال لم يتحرك صمصام ظل ينظر إلي الرجل بدهشة فلم يفهم الهدف من هذا الفعل، ثم بهدوء رفع عينيه إلى المدرجات المكتظة وبصوت عالٍ اخترق تهليل الحشود نادى بعد أن أزاح القناع عن وجهه:

— أين نفيل؟ ام انه خائف ان يُقتل.

ارتفع صوت التصفيق والتشجيع عندما ظهر نفيل من المدخل الشرقي مظهرة مخيف يحمل سيقاً فضي يلما يتفوق عن صمصام في الحجم والطول.

عند اقترابه تناول الرجل ما تبقى من وعاء الدم ولطخ به وجه نفيل لم يبدُ على نفيل أي انزعاج ثم امسك الوعاء وارتشف مافيه الى اخر قطرة ويده الصلبة القاه بعيداً وقال:

__أنا نفيل الذي تبحث عنه، ومن الأفضل أن تُعدّ نفسك لأن هذه الساحة
ستشهد نهايتك.

نادى جلمود:

__فليبدأ القتال.

اندفع نفيل نحو خصمه كوحش هائج ملوحًا سيفه بضربة عمودية سريعة تفادها
صمصام فأتبعها نفيل بضربتين إضافيتين. في حين تراجع صمصام بخفة مرة
أخرى حيث كان يراوغ بمهارة.

صرخ نفيل وهو يلهم:

__يكفيك مراوغة وقاتل كرجل!

أجاب صمصام مبتسمًا :

__إذا كنت تجيد القتال فلماذا تضع ضرباتك سدى، يا من تتوهم أنك رجل؟

ركض نفيل بغضب بعد أن سخر منه صمصام، ووجه له ضربة خاطفة أصابت ذراعه
اليسرى فبدأ الدم ينزف.

قال نفيل بجبث وهو يحدق في الجرح :

__ضرباتي لا تذهب سدى بل تشق طريقها شقًا.

رسمت ابتسامة مأكرة على وجه الحوت الأحمر تظهر أنه يحتفل بانتصار مبكر. لكن قبل أن يتمكن نفيل من توجيه ضربه اخرى تمكن صمصام من استعادة توازنه وصدها بحركة سريعة. ثم قفز عالياً وضرب صدر نفيل بكلتا قدميه فسقط على الأرض كالصخرة ناشراً رذاذ الرمال حولة . حينها ظهر قلقاً شديداً في عين الحوت الأحمر فأمسك صدره كأنه يحاول كبح مشاعر الغضب أو الخوف.

وقبل أن يتمكن صمصام من توجيه ضربة جديدة لنفيل، تدخل الجنود وأمسكوا بالسلاسل التي تقيد قدميه، وسحبوها بعنف فسقط على وجهه حاول صمصام الوقوف ثم قال بشمزاز: وهل هذا هو قتال الرجال؟ ما أراه هو مجرد عبث أطفال.

سُرعان ما أثار هذا غضب نفيل، الذي نهض وهو يتنفس بشدة. التقط رمحاً كان بجانبه ورماه نحو صدر أحد الجنود فاخترق جسده وسقط ميتاً على الفور.

ثم التفت الى صمصام وقال بصوت مرتفع:

__ أنا نفيل ابن خلدون، لا أختبئ ولا أضرب من الخلف.

ثم خلع درعه لتظهر عضلات صدره المفتولة والقي السيف من يده وهو يقول:

__ تعالى ولنحسم الأمر كرجلين!

ابتسم صمصام. ونزع سترته بدوره، كاشفًا عن جسده النحيل لكن في نفس الوقت كانت عضلاته منحوتة مثل الصخر ثم رمى سيفه هو الآخر ورد عليه:

__ليكن كما تريد مواجهة لا سلاح فيها فقط القوة والمهارة.

اندفع الاثنان نحو بعضهما كأنهما ثوران هائجان.

بدأ نفيل بضربة قوية بقبضته نحو وجه صمصام لكن الأخير تفادها ببراعة، وانحنى ليضرب بركبته خصر نفيل مما جعله يتراجع خطوة للخلف.

أمسك نفيل بذراع صمصام وسحبه نحوه بقوة ثم أرسل لكمة هائلة إلى معدته، أوقعت صمصام على ركبتيه للحظة.

لكن صمصام استغل وضعه وأمسك برجل نفيل وسحبها ليسقطه على الأرض. اعتلى ظهره سريعًا، وأمسك بذراعيه محاولًا تثبيته، لكن نفيل أطلق زئيرًا كوحش بري واستدار بعنف ليرميه جانبًا.

ثم وقف ورفع صمصام عاليًا بكلتا يديه ملقيًا إياه بعنف على الرمال.

سقط صمصام بجانب السيف الذي ألقاه سابقًا. نظر إليه للحظة ثم ابتسم وهو يمسكه والتفت بطرف عينه الى نفيل ثم ألقاه بعيدًا مرة أخرى وقال:

__إن أردت المواجهة بشرف لن أحتاج هذا السلاح.

اشتعلت الحماسة في قلوب الجمهور. حتى سمراء ابنة الحوت الأحمر ظهر وكأنها
عجبت بهذا القتال ولا سيما ما فعله صمصام.

بدأ نقيـل بضربة سريعة بكـوعه إلى صدر صمصام، مما جعله يتراجع خطوتين. استغل
ذلك وأمسكه من خصره ثم رفعه عاليًا كأنه قطعة اثاث وقذفه إلى الأرض بعنف.
لكن صمصام رغم الألم نهض سريعًا وأرسل لكمة مباشرة إلى فك نقيـل، تبعتها ركلة
خاطفة إلى ركبته مما جعله يهتز.

استجمع قوته وانقض على نقيـل بخفة واضعًا قدميه حول عنق خصمه حتى أسقطه
أرضًا. ثم تسلق عليه وبدأ يوجه له اللكمات الواحدة تلو الأخرى على وجهه حتى
بدأ نقيـل بالتعب ولم يستطع النهوض مجددًا.

ساد الصمت في الساحة. الحاضرون في حالة من الذهول بينما الحوت الأحمر بدا
محرجًا من خسارة ابن أخيه في هذه المواجهة.

لكن فجأة، وقف نقيـل مرة أخرى وهو يلهمث بغضب وبدون تفكير، أخرج مسدسًا
من جيبيه، وجهه فوهته نحو صمصام.

ارتفعت شهقات الناس، كأنهم توقعوا صوت الرصاصة قبل أن تنطلق.

لكن قبل أن يضغط الزناد، دوى صوت الحوت الأحمر:

— توقف، قلت لك لا أريده أن يموت.

يد نفيل اهتزت لكنه لم يُسقط المسدس، وقف معلق بين تنفيذ الأوامر وبين رغبته في محو الإهانة، وأخيرًا بعصبية ظاهرة رفع المسدس إلى الأعلى وأطلق الرصاصة في الهواء، الجميع ظلوا في أماكنهم، لا حركة لا همس فقط العيون تدور بين نفيل وصمصام والحوت الأحمر، تنتظر ما سيحدث بعد ذلك. رفع الحوت الأحمر يده ببطء، مشيرًا نحو صمصام، ثم قال:

— هذه المعركة لم تنتهي بعد يا ابن مقرعون.

نظر صمصام إلى القناع الملقى على الأرض، التقطه ببطء، ثم أعاده الجندي إلى زنزانه دون مقاومة.

نزل جلمود الى الساحة وتوجه نحو نفيل:

— ماذا حدث؟ كيف هُزمت؟ لقد أخرجتني أمام الجميع!

رفع نفيل عينيه بالكاد وقال:

— أعلم يا سيدي لكنني أعدك سأهزمه في المرة القادمة.

ابتسم جلمود ابتسامة ساخرة وهز رأسه قائلاً:

— تحلم، لم أكن مرحبًا بهذا النزال منذ البداية لكن أنت الذي أصررت على مواجهته! والأسوأ من ذلك عندما أمرتك ألا تقتله، عصيت أمري ورفعت السلاح في وجهه، أتعلم عاقبة من يعصي أوامر الحوت الأحمر؟

نظر نفيل إلى الأرض، وقال بصوت منخفض:

— نعم يا سيدي.

صمت جلمود لبرهة ثم قال :

- اذهب، أنت تعرف ما عليك فعله.

دخل نفيل غرفة العقاب حيث وقف الجنود في انتظار تنفيذ الحكم، ربطوه بالسلاسل من معصميه ورفعوا جسده قليلاً عن الأرض.

بدأ أحد الجنود بالجلد، ضرباته تقطع الهواء قبل أن تنغرس على ظهر نفيل بقسوة، كل ضربة كانت تترك أثراً حتى امتلأ قميصه بالدماء.

الجلدة الأولى، تلتها الثانية، ثم العاشرة...

صرخاته خفت تدريجياً كأن جسده استسلم للألم، استمر العقاب حتى وصل إلى 130 جلدة. في النهاية فك الجنود السلاسل ليسقط نفيل على الأرض وجسده يرتعش ودماءه تلتطخ قميصه، عاد إلى جلمود وهو يعرج بالكاد تقوى قدماه على حمله، وقف أمامه بجسده الممزق بالكدمات والجروح

قال جلمود وهو ينظر إليه بازدراء:

— هذا جزاء من يعصى امرى، أرجو أن تكون قد تعلمت الدرس .

أجاب بصوت مبحوح:

__أجل يا سيدي تعلمته جيداً.

اقترب جلمود منه بعد ان ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه، ثم مد يده ورتب
ملابس نفيل المملخة بالدماء وقال له:

__اذهب الآن واسترح وسأرسل لك الطبيب، فأنا لا أريد من سمراء أن تراك في
هذا الحال.

.....

ذهب جلمود بعدها الى القصر بينما الغضب يعصف به، هدر صوته في أرجاء
المكان:

__راجحة يا راجحة.

أسرعت زوجته نحوه بينما قلبها ينبض باضطراب:

__ماذا هناك؟

نظر إليها بصرامة وقال بجدة:

__اجعلي ابنتك تستعد فستذهب إلى جدتها اليوم.

ارتبكت راجحة قليلاً، لكنها لم تجادله، بل أسرعت إلى جناح ابنتها.

فوجدت سمراء جالسة أمام المرأة تعبت بخصلات شعرها وعندما لمحت والدتها ابتسمت .

قالت رابحة وهي تراقبها بجذر:

والدك أمر أن تذهبي لجدتك اليوم.

أضاعت عينا سمراء بسعادة، لكنها سرعان ما مالت رأسها بفضول:

كيف حاله ؟ أراه متوترًا بعد هزيمة ابن أخيه.

شهقت رابحة، واقتربت منها في سرعة ثم همست:

اصمتي يا حمقاء إن سمعك والدك تتحدثين بهذا الشكل، سيجلدك في غرفة العقاب بجوار نفيل.

اتسعت عينا سمراء من الدهشة:

ماذا؟ هل أدخله هناك؟

اومأت رابحة :

نعم لكنه لا يريد أن يعلم أحد، وإن عرف أنني أخبرتك فلن يرحمني.

ابتسمت سمراء بخبث:

__ لا تخافي لن أقول شيئًا لكن هناك مكان أريد الذهاب إليه قبل السفر.

(راجحة)

__ إلى أين؟

(سمراء)

__ سأودع صديقتي صهوة ولن أتأخر.

نظرت إليها والدتها بقلق:

__ وماذا لو لاحظ غيابك.

(سمراء)

__ أخبريه أنني أخذتُ ثوبًا لجفيدة من أجل تضييقه.

تهتدت راجحة، ثم أشارت إليها بإصبعها:

__ لا تتأخري.

ضحكت سمراء وقبّلت خد والدتها:

__ نصف ساعة وسأعود.

كانت معتادة على الذهاب الى صديقتها في الخفاء فإنها تهاب أن تصارح ايها بأمر تلك الصداقة، فتحتال بالخروج إلى الخياطة، فهي تخشى غضبه فإذا علم أن الاميرة تهبط من مقامها لتخالط من هم دونه مقامًا، وتربطها بهم صلة ودّ سيشعل البيت ولن يطفئه.

غير أنها كانت تخطط إلى امر اخر حيث انها كانت تخدع والدتها هي الاخرى خرجت من القصر بخفة، لكن بدلًا من التوجه إلى منزل صديقتها تسللت بحذر نحو سجن رهيدا الملاصق للقصر، حين وصلت إلى البوابة، وقف أمامها أحد الحراس، تتأرجح في عينيه نظرة شكٍ ثم ازاح قناعه وقال:
— إلى أين تذهبين؟

رفعت رأسها بثقة مصطنعة وأجابت بلهجة آمرة:

— أرسلني أبي

— لماذا؟؟؟

— يريدني أن أتعلم القسوة حتى لا يرقّ قلبي .

تردد الحارس لبرهه، لكن ذكر اسم الحوت الأحمر كان كافيًا ليتراجع ملوحيًا بيده أن تعبر.

خطت سمراء داخل الممرات الحجرية ثم توقفت لوهلة. نظرت إلى أحد الحراس المازين، واستغلت انشغاله بلحظات شرود فمدّت يدها بخفة وانتزعت المفاتيح المعلقة بجزامه، ثم أخفتها سريعاً بين طيات ثوبها وأكملت بحثها بين الزنازين حتى وصلت إلى صمصام.

كان مقيداً بالسلاسل، رأسه منكس، وآثار الجروح تملأ جسده أخفت سمراء وجهها خلف شالها بعد ان رفعت القناع وقالت:

— كيف حالك؟

رفع صمصام رأسه، عينيه متعبة من الألم وقال بسخرية بعد ان نزع قناعه:

— كما ترين أسير خلف القضبان.

نظرت إليه بعينين يملأهما الدمع، وهمست:

— قلبي الآن هو المسجون، وليس أنت.

تهدد وقال:

— لطالما كان حبنا سرّاً فلماذا تخاطرين الآن؟ اذهبي قبل أن يراك أحد.

(سمراء)

— أبي يريد تزويجي من نقيّل.

نظر إليها بحدة وسأل:

__ وماذا قلتِ له؟

قالت بمرارة:

__ استسمحته أن أذهب إلى جدتي في نيمورا للتفكير، لكن قراره نهائي.

أشاح صمصام بوجهه بعيداً:

__ ولماذا تخبريني الآن؟

أجابت وهي تشد قبضتها فوق قلبها:

__ لأن لدي سبعة أيام فقط، إن لم تأتِ لتأخذني سأعود وسأتزوج نفيل لكن حينها لن أعترض حتى لو اردت ذلك.

التفت إليها سريعاً:

__ هل تمزحين معي؟ ألا ترين ما أنا فيه؟ والدك حطم حلمي، دمر كل ما كنت أتطلع إليه قتل أناساً أبرياء أرادوا فقط العيش بسلام والآن تطالبين أن أهرب معك؟ وكيف أنسى ما فعله بي؟

اتسعت عينا سمراء:

__ ماذا فعل أبي؟

(صمصام)

__ هاجم المزرعة التي أخبرتك عنها لقد أحرقتها بمن فيها.

(سمراء)

ولماذا...سألت في ذهول.

أغمض صمصام عينيه للحظة، ثم فتحها:

- هذا السؤال يجب ان يقال له.

صمت قليلاً ثم تابع:

__هل أنتِ من أعلمه بأمر المزرعة.

شعرت سمراء وكأن خنجرًا غُرس في قلبها فتراجعت خطوة وهي تهمس:

__أنا لا أعلم ما حدث، لكنني أرى انعكاسه في عينيك، ولن أبرر شيء لم أفعله،

لكن ما خذلني حقًا أنك شككت بي، رغم كل الحب الذي وهبتك إياه.

أدارت ظهرها، ثم أخرجت المفتاح من تحت شالها، ومدّت يدها نحوه دون أن

تنظر إليه:

__هذا هو المفتاح خذه وحاول أن تخرج.

صمت صمصام طويلاً حتى نطق بصوت خافت:

__حسناً لماذا تبكين، تعلمين أن دموعك هي نقطة ضعفي، لطالما كانت كذلك.

لم تجبه فقط بقيت صامتة، لكن جسدها كان يرتجف.

قال بصوت أكثر ليئاً:

__انظري في عيني وستعلمين لماذا قلت ذلك.

نظرت إليه:

__أنا أسامحك فأنا اعلم ما في داخلك جيداً فقط لا تتركني.

(صمصام)

__أنا لن أتركك أبداً.

رفعت شالها فظهرت ملامحها التي كانت غارقة في الحزن، مدّ صمصام يده من بين القضبان، ویرغم السلاسل التي كانت تكتبله الا أنه تحمل لمسح دموعها بأطراف أصابعه:

__كيف أملك القوة للهرب، وأنا آري تلك الدموع؟

ابتسمت رغم ألمها ووضعت المفاتيح في يده قائلة:

__ لا تهرب حتى أغادر... وإن كنت تريدني ستجديني.

استدارت لتتركه لكن قبل أن تخطو بعيدًا، همست:

__ سلامًا الآن.

أغمض صمصام عينيه وقال في المقابل:

__ وداعًا يا ندى الصباح..

في عصر نفس اليوم، جُمع جلمود عربة مرفقة بسائق وسبعة جنود، كان يقف عند بوابة القصر، متحفظًا، ينقل بصره بين الطريق الممتد أمامه وبين زوجته رابحة، بينما قال بنبرة صارمة:

__ أين سمراء؟ ولماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

رفعت رابحة طرف عباءتها لتغطي توترها:

__ لا تقلق لا بد أنها قد انتهت وستأتي في أي لحظة.

وما إن أنهت جملتها حتى لاحت سمراء من بعيد، تسير بخطوات سريعة، والقلق يتراقص في عينيها، ابتسمت رابحة، وربت على كتف زوجها قائلة:

__ ها هي قادمة.

لم يبدُ جلمود مرتاحًا، بل استقبلها بسؤال مباشر:

__ لماذا تأخرت ؟

أجابت سمراء، محاولة الحفاظ على هدوئها:

__ ألم تخبرك أمي بوجودي عند جفيده، أردت تضيق فستاني.

رمقها جلمود بطرف عينه، وكأنه يلتقط خللاً في حديثها، ثم قال ببرود:

__ وأين هو ذاك الفستان ؟ لا أراكِ تحملين شيئاً.

ابتلعت سمراء ريقها بصعوبة، وحاولت إخفاء ارتباكها وهي تحرك يدها في الهواء، وقبل أن تجيب سارعت رابحة بالتدخل، محاولة إنقاذ الموقف:

__ لابد أنها خشيت أن يتأخر الوقت، فتركت الفستان لتكمله الخياطة لاحقاً.

التفت إليها جلمود بنظرة صارمة:

__ لم أطلب منكِ الحديث عنها.

عاد بصره إلى سمراء، منتظراً منها إجابة مباشرة فهزت رأسها سريعاً وردت:

__ نعم، هذا ما حدث يا أبي.

لم يبدُ مقتنعاً تماماً، لكنه لم يشأ إطالة الحديث، فزفر قائلاً:

__ ولماذا لا تأتي الخياطة إلى القصر ؟ أنتِ ابنة الحوت، تأمرين وهؤلاء يطيعون.

خفضت سمراء بصرها للحظة، ثم رفعته بثقة وقالت:

يا أبي ما طابت لي حياة في عزلة، إني أحب وجوه الناس، وأجد نفسي في
دفع الحديث معهم... فلا تحرمني هذا النبض.
(جلمود)

__ لن اناقش هذا الموضوع الآن، لقد جمعت أملك ما يلزمك، والعربة على أهبة
الرحيل تنتظر إشارة وداعك...أتمنى ان ترجعي بكامل عقلك.
تقدمت سمراء، واحتضنت والدها بقوة، ثم التفتت إلى والدتها وعانقتها .
وقبل أن تصعد العربة، قال جلمود:

__ ابعثي سلامي لأبي، لتضيف رابحة: ولا تنزعي قناعك الا في بيت جدتك.
صعدت إلى العربة، وجلست في مقعدها وزفرت طويلاً، كما لو أنها أزاحت حملاً
ثقيلًا عن كاهلها، وبعد ان ارتدت قناعها، انطلقت القافلة نحو "نيمورا" العربة كانت
تهتز تحتها برتابة، اما هي فكانت تحديق عبر النافذة بصمت، وعقلها يضحج بذكريات
اللقاء في السجن، بينما ملامح صمصام العالقة في ذهنها. هل سيلتزم بوعده؟ هل
ستمضي الأيام السبعة كما تشتهي، أم أن القدر يخبئ لها مفاجآت أخرى؟
وقف جلمود متجههم الوجه ينظر الى العربة التي تحمل سمراء وهي تبتعد ثم التفت
إلى حارس كان يقف خلفه في انتظار أمره:

__هل أنت جاهز؟

أوما الحارس بإيجاب، فمدّ له جلمود رسالة مختومة، وهو يقول:

__هذه هي لا تتأخر.

أخذ الحارس الرسالة، عقدها بحزامه ثم ركب جواده وانطلق خارج أسوار قبيلة النار ليتوجه بعدها إلى قبيلة الماء.

((الفصل الخامس: كرهت فتواكم))

في صباح اليوم التالي كان الجو باردًا، والرياح القارسة تنسلل بين أطراف قبيلة الماء، وفي سط الضباب الكثيف ظهرت هيئة رجل ملفوف بعباءة سوداء، خطواته البطيئة تغطي على السكون، وعباءته ترفرف كجناح غراب فوق الطين الرطب. وقف عند سور القبيلة المكون من اخشاب مسننة، ثم رفع رأسه قليلاً، وعيناه اللامعتان اخترقتا الضباب، قال بصوت غليظ بعد ان ازال قناعه:

__أريد رؤية السيد مقرعون.

قبض احد الجنود على رمحہ بجذر، وسأله بلهجة متوترة تظهر من تحت كمامته:

__من تكون؟ ولماذا تريد مقابلة الحوت الأزرق؟

تقدم الرجل خطوة واحدة، حتى بات الضباب يغطي نصف وجهه:

__أنا رسول الحوت الأحمر ولدي رسالة لا تنتظر فخذني إلى مقرعون أو دعني أرى غضب الحوت الأزرق يتجسد عليك أولاً.

ارتبك الجندي فأشار إلى الحارس بالدخول، وهو يحاول إخفاء قلقه. في هذا الوقت كان مقرعون يجلس على عرشه، يلفه معطف ثقيل من الفرو، قطع صوت الجندي هدوئه وقال في انحنائه:

__مولاي هناك شخص يحمل رسالة من الحوت الأحمر.

مقرعون بلهفة:

__أدخله.

دخل الحارس رأسه منخفض قليلاً، وعباءته مبللة برذاذ الضباب الصباحي. توقف على مسافة محسوبة لينحنى بخفة، ثم قال بصوت متماسك:

__كيف حالك، يا سيدي الحوت؟

لم تتحرك ملامح مقرعون، لكنه رد بصوت مشمئز:

__حالي ليست من شأنك أين الرسالة؟

مدّ الحارس يده إلى حزامه، وأخرج من جيبه أسطوانة خشبية محكمة الإغلاق مختومة بختم أحمر قاتم، تناولها مقرعون بهدوء ثم فكّ الختم بأصابعه الباردة، وفتح

الغلاف ليكشف لفافة ورقية تحمل كلمات كُتبت بحبر داكن أشبه بالدم اليابس.
تراقص ضوء النيران على ملامحه وهو يقرأ بصوت خافت:

إلى صديقي مقرعون الحوت الأزرق، صاحب السلام والأوهام. من جلود،
سيف الليل، مطفئ النور، وموقف العدم إلى مقرعون ذا القلب الضعيف والعقل
الشحيح.

اكتب لك بدماء غاضبة وريشة قُدت من عظام أعدائي. هذا الخبر الذي ترى نزفه
ليس سوى ظل لما ينتظرك إن تجاهلت رسالتي. لدي الآن شيءٌ يخصك، شيء
ينبض بالحياة، شيء يُدعى صمصام ابنك الذي ورث منك أكثر مما توقعت، وربما
أقل مما كنت تتمنى.

توقفت عينا مقرعون على هذا السطر للحظة ثم أكمل القراءة، بينما اشتدت أصابعه
حول الورقة:

سأكون صريحًا، كما اعتدتُ دائمًا أن أكون. ابنك الآن بين يدي، قيدٌ في رقبته
وسيفٌ فوق رأسه كل لحظة تمر تنقص من حياته، وكل شهيق يلتقطه قد يكون
الأخير... لا تفكر كثيرًا انا سأمنحه الأمان لكن بئس.

ارتفعت نظرة مقرعون ببطء، ثم زفر زفيرًا طويلًا قبل أن يعود بعينه إلى الرسالة:
ومطالبي:

ألفا لترٍ من الماء.

- ثمانمائة علبة من الطعام المعلّب الخاص بأسلافنا.

- ستمائة كيلو من الحشرات المجففة.

- مائة من أندر جلود الوحوش.

- خمسون رأسًا من الماشية المهجّنة.

- وبعض الأسماك من الجانب الشرقي من بحيرتك الملعونة.

وإن لم تفعل؟

فلتعلم، يا أخي أنني سأبعث إليك رأس صمصام، محشورًا في فك كلبٍ ضارٍ من كلاي... لديك يومان لا أكثر.

تذكر عندما تعتقد أنك في أمان، فاعلم أن ظلي أقرب إليك مما تظن.

صديقك وعدوك، جلمود الحوت الأحمر.

انتهى مقرعون من القراءة، وأغلق الرسالة ببطء لم يتغير وجهه، لم تهتز شفّته، لكنه شعر بشيء يغلي داخله.

ثم التفت نحو الحارس الأسود وسأله بصوت هادئ:

__هل رأيت صمصام بعينيك؟

انحنى الحارس برأسه قليلاً وأجاب:

__ نعم كان مقيّداً بالسلاسل لكنه لم ينحن.

(مقرعون)

__ أخبر جلمود أن مطالبه ستكون عنده في الوقت المحدد.

ابتسم الرسول ابتسامة خبيثة، وكأنه قد انتصر، ثم استدار وغادر القاعة دون أن يلتفت، ومع تلاشي خطواته انفجر غضب مقرعون، فضرب الطاولة بقبضته صائحاً:

__ أحضروا لي صفيدر فوراً.

ثم خرج بعدها ولا شيء يوقفه سوى أفكاره المتصارعة قصد "ناشد" راعي المخازن الرجل الذي يعرف كل شبر في مخازن القبيلة، ويعرف كيف يحسب قوتها، ويقدر مدى احتمالية بقائها على قيد الحياة. حين وصل إليه، لم يقل كلمة، بل رمى إليه الرسالة قائلاً:

__ اقرأها.

أخذ ناشد الرسالة، قرأها بصوتٍ خافت، ثم رفع رأسه بصدمة وقال:

__ هذا..... هذا مستحيل! إذا أعددنا كل هذا وأرسلناه للحوت الأحمر، فلن تبقى لنا مؤونة تكفي الشتاء. البحيرات بدأت في التجمد الصيد شحيح حتى قبل الشتاء كان لا يوجد أسماك فالأسماك لم تعد تتحمل تلك المياه الملوثة وتموت، المخازن لن تصمد طويلاً، والقبيلة ستفنى جوعاً.

رد مقررعون:

__ فناء القبيلة أهون عندي من أن يموت ابني، تجهّز المطلوب حالاً، وادفع العمال للعمل ليل نهار. اغلوا المياه جهّزوا كل شيء، وأظهروا للجميع أن الحوت الأزرق خاضع.

ترك المكان ومضى، تمايلت عباءته الثقيلة مع الريح، وهو يسير عبر الجسور الخشبية التي تفصل بحيرات القبيلة عن بعضها. وقف عند أحدها، واستند إلى الحبال المتشابكة، يراقب المياه المظلمة أسفل منه كان يعرف أنه لا خيار أمامه سوى إنقاذ صمصام، لكنه يعلم أيضاً أن الخضوع لجمود ليس خياراً.

لم تمر دقائق حتى ظهر قائد جماعة الوريد، "صفيدر" رجل طويل، عريض الكتفين، بشرته قمحية تميل إلى السمرة وعيناه سوداوان يحيط بهما كحل خفيف يزيد من حدة نظره شعره جعد أسود، يتدلّى حتى كتفيه، ويتحرك مع خطواته الواثقة.

تقدّم نحو مقرعون ثم توقف على مسافة قصيرة وقال بصوت منخفض وواضح:
_أمرك سيدي.

(مقرعون)

_كيف حالك يا صفيدر؟

(صفيدر)

_بأفضل حال وكيف حال مولاي؟

توقف مقرعون عن الحديث لثوانٍ، ثم نظر إلى صفيدر نظرة لم يسبق أن رآها فيه
من قبل وقال بصوت حزين:

_لست بخير.

اقترب أكثر، ثم أضاف:

_أعلم أنك وصمصام أصدقاء.

رد صفيدر دون تردد:

_صمصام ليس صديقًا فقط، إنه أخت وأكثر فهو من أنشأ جماعة الوريد، وقادنا
للقبض على اللصوص ومحاربة الوحوش. من جلب الأمان للقبيلة من زرع الحقول

مع العمال، من حمل السلاح لحماية الجميع الكل يجبه أنا وجماعتي مستعدون للموت من أجله.

ابتسم مقررعون بجزي عميق ثم قال:

__ وهذا هو المطلوب.

صمت قليلاً قبل أن يضيف:

__ جلمود يريد فدية ضخمة مقابل رأس ابني فدية لو دفعناها، لانتهد القبيلة جوعاً قبل أن ينتهي الشتاء وانا لا يمكنني السماح بذلك.

نظر إليه صفيدر بتساؤل وقال:

__ إذن لماذا أمرت بتجهيز الفدية؟

ارتسمت ابتسامة مأكرة على وجهه وقال بهدوء:

__ لتكون غطاءً دع الجواسيس يرون أننا نخضع لمطالب جلمود. أما في الباطن.

تقدّم خطوة إلى الأمام، قبل أن يضيف بصوت صارم:

__ ستذهب أنت وجماعة الوريد لتحرير صمصام من محبسه وأي شخص يعترض طريقكم لا ترحمونه.

لمعت ابتسامة واثقة على شفتي صفيدر وهو يقول:

— كما تأمر يا سيدي سيكون السيد صمصام بيننا قريبًا، وستدفع قبيلة النار
ثمن كل قطرة دم.

مشى صفيدر سريعًا عازمًا على تنفيذ المهمة دون تردد، وخلفه وقف مقرعون ينظر
إلى الأفق البعيد عيناه لا تريان البحر بل حربًا تقترب...

عند الطرف الشرقي للقبيلة في غرفة عائمة على سطح الماء ، تجمع بعض
المستشارين في ظلام الليل يضعون الكمامات على أفواههم ويرتدون الجلود الثقيلة
على أكتافهم من البرد كانوا يحملون في قلوبهم الغضب والحنق، ويريدون زعزعة
سيطرة مقرعون.

كانا لكان معزولًا عن أعين الفضوليين، لا يُسمع فيه سوى صوت الماء المتأوج حول
الأخشاب العتيقة التي تحمل الغرفة، كأنها تتنفس معهم، تشاركهم قلقهم ومخططاتهم.
جلس فيضون عند رأس الطاولة الخشبية، كفه تضغط على سطحها حتى أبيضت
مفاصله، عينيه ضيقتان بجدة وهو يقول بصوت مشحون:

— الوضع خرج عن السيطرة إذا استمعنا لحديث ذلك المغفل مقرعون، سنموت
جوعًا جميعًا.

زهرون أمال رأسه قليلًا و نظر إلى بقية الرجال بنظرة تحمل مكرًا خبيثًا:

– سنوات ونحن نعمل، أيدينا حفرت الأرض، زرعنا الحقول، وحمينا هذه القبيلة بأجسادنا والآن يريد أن يفرغ المخازن من أجل ابنه؟ إنه يقودنا نحو الهلاك، وأقولها لكم لن أسير خلف رجلٍ أعمى نحو الحفرة.

همهم بعض الرجال، بينما نظر آخرون لبعضهم بتردد.

رد رجلٌ ذو لحية مشعثة قائلاً بحذر:

– لكن مقرعون لم يخذلنا من قبل، لم يقل نفسي نفسي حتى في أسوأ الأزمات. لماذا الآن تقولون هذا؟

فيضون لم ييتسم، لكنه أمال جسده للأمام، ضاقت عيناه أكثر وهو يقول:

– لأنه الآن يقولها... لأنه الآن قال نفسي، لأنه الآن يبيعنا جميعاً من أجل ابنه!

هنا رفع الرجل صوته:

– ألا يحق له أن يفعلها ولو مرة، أليس ابنه ومن دمّه؟

زهرون هز رأسه ببطء، ثم، بصوتٍ أشبه برياح باردة تهبُّ في ليلةٍ ساكنة قال:

– دعوني أخبركم الحقيقة التي نعرفها جميعاً، لكننا نخاف مواجهتها، لم تعد في الروح

روحٌ تُجبرُ الجسد على الحياة. لقد نهَشْنَا الزمن ومزَّقْنَا الأخطاء. صرنا كطائرٍ

جريح، لا يستطيع الطيران ولا الهبوط، فقط يُرفرف في الفراغ كنا نظن أن الحياة

تُجبرنا على الاستمرار، لكنها خُدعة نحن من اجبرنا انفسنا على الاستمرار
لأننا اردنا ذلك. فلن نُقاد كالأغنام، لن نموت جوعًا وهو يساوم بأرواحنا إن كان
يريد أن يفدي ابنه، فليفديه بنفسه أما نحن فلن نُدفن معه أحياء، أمن أجل روح
واحدة تزهق الآلاف.

دوّت أصوات التصفيق لكنه لم يكن تصفيق فرح، بل تصفيق غضب.
وقف الرجل الذي اعترض:

__أنا لا أرضى بما تقولونه نحن أبناء شعب واحد وهو حوتنا!

ابتسم زهرون بسخرية وردّ عليه ببرود:

__لو كان أخي نفسه هو سبب جوعي، فلا أريده.

تقدّم الرجل الأول خطوة، وحدّق فيه بعينين غاضبتين:

__هذا لأنك عديم الأصل.

(زهرون):

__لست عديم الأصل، لكنني ممتلئ بالخوف، الخوف من جوع أطفالي الخوف
الذي سيصرخ في أذني، ولن يسمعه احد سواي، أما أنت، فاذهب إلى صديقك،
فنحن اجتمعنا لنقلب عليه يا خائن الجمع .

رفع الرجل رأسه بفخر، وقال بثبات:

—أشرف لي أن أكون خائنًا بينكم، لكن وفيا لشعبي ولسيدي.

عندها تقدم فيضون ببطء:

—من ليس معنا فهو علينا وأنت تعرف ما يعنيه هذا.

نظر الرجل إليه بارتياح وشعر بقلبه ينقبض، فتمتم بقلق:

—ماذا تقصد؟

لم يُمنح وقتًا للتفكير، إذ اندفع زهرون من الخلف، وبمركبة خاطفة، شقّ الهواء بسيفه لتزهق رقبة الرجل وفي لحظة تدحرج رأسه على الأرض وسط ذهول الجميع.

مسح زهرون نصل سيفه ثم انحنى قليلًا نحو الجثة، وهمس ببرود:

—ما اقصده هو ما سمعته...عذرًا نسيت أنك لم تعد تسمع.

ثم التفت زهرون إلى الباقيين ورفع صوته بقوة:

—من معنا ومن معه؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض بتردد، ثم ارتفعت أصواتهم في صوتٍ واحد:

—نحن جميعًا معك!

عندها وضع فيضون يديه على كتفي زهرون قائلاً:

—أنا وأخي نريد المصلحة العامة فقط.

أوماً زهرون مؤكداً:

— نعم يا أخي والآن الخطة واضحة سيرتدي الجميع كمائتهم وسننطلق ليلاً دون أن يشعر بنا أحد سنتحدث مع الناس، وسنجعلهم يدركون الحقيقة فعلهم أن يعلموا أن الجوع سيقتلهم إن لم يتحركوا.

(فيضون)

—نعم يا أخي فمن حُكم عليه بالموت، عليه أن يعرف سبب الحكم.

تحرك الجميع في صمتٍ عبر الجسور الخشبية، وانتشروا بين الأزقة المظلمة، يدقون الأبواب، يدخلون المنازل، ويبتئون الفتنة بين الناس.. همسوا في الآذان، أشعلوا الشكوك، ونثروا بذور الغضب في كل زاوية..

كئن مقرعون يجلس أمام طاولة خشبية، يلتهم الطعام بشراهة وكأنه يحاول سدّ جوع لا ينتهي، جوع الخوف، جوع الفكر لم يكن يعلم أيهما يلتهمه أولاً، يهرب في طعامه كما يهرب الحزين إلى نومه، جلست نوهارا أمامه تحديق في الطعام دون أن تلمسه، حتى قالت:

__أراك تأكل وكأنك لا تحمل أي هم في هذا العالم، كأنه آخر ما ستأكله.

رفع مقرعون نظره إليها للحظة، ثم رمى قطعة اللحم من يده بعنف على الطاولة، وقال بنبرة ثقيلة:

__وماذا تريد مني أن أفعل.

(نوهارا)

__لا شيء فقط املأ بطنك الواسع.

(مقرعون)

__أنت تعرفيني أكثر من نفسي هل أنا جائع؟

انحدرت دمعة على خدها:

__لا... أنا أعلم أنك عندما تحزن تأكل ، وعندما تتألم لا تستطيع أن تسيطر على نفسك.

(مقرعون)

__ولماذا تقولين ذلك؟

(نوهارا)

__لأنتي أخاف على ابني، أخاف أن أفقده كما فقدت طفلي.

قبض على يده بقوة حتى كاد يكسر أصابعه:

__تعلمين أنتي قتلها وسأقولها مجددًا سأعيده، حتى لو اضطررت لأن أجعل شعبي
كله يصوم لكي يعود، حتى انا لا أريد هذا الطعام، لا أريد أي شيء من أجل أن
أستعيده ولكن لا تزيدني من تعبي بذكريات فقدان ابنتي.
وضعت يديها على أذنيها وهي تهز رأسها بعنف، صارخة:

__أرجوك .

ضاقت عيناه بالأم، وهو يقول بحدة:

__ولم لا؟ وأنت من ذكررتني أولاً.

خففت رأسها، وهست بصوت متهجج:

__لم أقصد....

نظر إليها نظرة قاتلة وقال:

__هل تتذكرين كيف ماتت؟

أغلقت عينيها بقوة، ثم انفجرت الكلمات من شفيتها:

— نعم لقد ماتت من المرض ولم نستطع علاجها، الطفيليات نخرت عظامها، لقد كانت تشعر ببرد قارس فكنتُ أشعل لها النار وأتركها لأحضر الدواء، وعندما أعود أجدها تحترق أطرافها في اللهب من شدة البرد... أصابها السعال، وكانت تحاول تدفئة نفسها.. لم أعلم ما كان بها، لكن فجأة، انطلق الصراخ من قلبي، وانجرح حلقي من البكاء، وهي تموت بين يدي .

(مقرعون)

:وماذا فعلت حينها؟

غطت وجهها بكفيها، وقالت بصوت يكاد لا يُسمع:

— لم أكن أتحمل عذابها..

(مقرعون)

— في المقابل قتلتها.

(نوهارا)

— ليس بيدي.

(مقرعون)

— لقد كان في ذلك الوقت بيدك.

(نوها را)

__لقد كانت تتقيأ الدم، المرض نخر عظامها وكلما تحركت انكسرت أطرافها هي لم
تعد تتحمل، فطلبت مني أن أخلصها.

حدّق فيها بعينين جاحظتين، ثم قال بصوت مخنوق:

__ابنتنا كانت أجمل فتاة في القبيلة، كانت نور عيناها وانتِ اطفأتِ هذا النور.

شهقت وهي تمسك برأسها كأنها تريد أن تقتلع الذاكرة من عقلها:

__أرجوك لا تقلها..

ضرب الطاولة بقبضته وصرخ:

__بل سأقولها كنتُ أريدها، حتى لو لم يبقَ منها إلا العظام.

انفجرت بالبكاء:

__أرجوك لا تذكّرني فأنا أموت كل يوم، إني اسمع صراخها وهي تقول خلصيني يا
أمّاه...لا... لا ابنتي لم ترحل، هي هنا أسمعها تناديني من جديد وتطلب الخلاص.

(مقرعون)

__لا أريد شيئاً لا طعام لا نوم، لا راحة لا أريد إلا تكوني قوية حتى أرجع إليك
ابنك.

افتتح الباب فجأة، ودخل جرميد، أحد المستشارين، يلهث من الركض...
(مقرعون بغضب)

__ ما بك؟ وكيف تفتح عشاى أنا وزوجتى؟

مسح جرميد عرقه، وقال لاهثاً:

__الوضع سىء لم أفكر حتى فىما أفعله، كان على أن أصل إلك فوراً.
(مقرعون)

__ماذا هناك؟

(جرميد)

__فىضون وزهرون.

ارتفع حاجبه، وسأل بصوت متوجس:

__ما بهما؟

ابتلع جرميد ريقه قبل أن ينطق بالكلمات الحارقة:

__لقد خانوك، يخرضون الشعب ضدك إن الأخوان يقودان انقلاباً، وينادون بعدم تجهيز الفدية.

ساد الصمت لثوانٍ ثقيلة، قبل أن يميل مقرعون برأسه قليلاً، ويقول بصوت خالٍ من الدهشة:

__لطالما عرفتُ أن هذين الاثنين سيخوناني لكنني كنتُ أمنع نفسي من التصديق.
وضعت نوهارا يدها على قلبها وقالت بقلق:

__وماذا ستفعل؟

وقف مقرعون بعدها سحب نفساً طويلاً:

__فقط سأواجه.

تردد جرميد ثم قال محذراً:

__لن يمنعك أحد من المواجهة، ولكن المواجهة دون تخطيط لن تصلح.

بعدها غادر الغرفة ولم ينتظر الرد من مقرعون.

لكن ما إن مضت بضعة دقائق حتى عاد، كان وجهه أشدَّ شحوباً من ذي قبل، وعيناه تشعان بخوفٍ لامع، كأنهما رأتا ما لا يروى.

__ لماذا عدت؟؟ سأله مقرعون.

أجاب جرميد:

—لم أعد يارادتي، الناس يسرون بأفواج عبر الجسور، يحملون الشعلات.
.....الانقلاب نجح.

وضعت نوهارا يدها على فمها من الصدمة، بينما نهض مقرعون ببطء، ونظر إليه
نظرة طويلة قبل أن يقول:

—تعال معي.

تمسكت نوهارا بكفها، وقالت بتوسل:

—لا تخرج.

سحب يده منها بلطف:

—دعيني انا لن أترك كل شيء ينهار من بين يدي.

خرج مقرعون ووقف أمام الجموع التي تتحرك نحوه بينما كانت الهاتفات تتصاعد في
الفضاء:

—لا نريد حوتًا خاضعًا.

—لا نريد حاكمًا ضعيفًا.

—جوع الأمس يعود.

—مات حوتنا اليوم، ولا نريده بعد الآن.

ثبت مقرعون بلا حراك، عيناه تجولان بين الوجوه الغاضبة، ثم رسم ابتسامة
ساخرة كشفت عن نقاد صبره.

رفع صوته فجأة، كي يسمعه الجميع:

__ماذا يا قومي؟ ترفضونني الآن؟ حسناً، ابتسموا، اضغطوا على صدوركم..لم أكن
اعلم انكم تأتون وتذهبون ببعض الكلمات! لا أصدق ما أراه، أريد أن أقتلع عيني
من محجريها وأغسلها ثم أعيدها مكانها فقد يكون الذي أمامي الآن وهم.

تقدمت امرأة من الحشد وقالت:

__بل صدّق.. فكلما تك العظيمة لا تُشبع جائعاً ولا تغيث فاجعاً.

أمال مقرعون رأسه قليلاً، وقال بسخرية:

__وماذا أيضًا؟

صرخ رجل من بين الجموع:

__لن نُخرج الفدية إلا على أرواحنا.

رفع حاجبيه، وقال مستفزاً:

__وماذا أيضًا؟ أهروني

وقتها ساد الصمت ولم يتكلم أحد.

ابتسم ابتسامة واسعة وقال فى غضب عارم وهو يلوح بيده:

— هل نسيتم ما فعلته من أجلكم؟ هل نسيتم ما فعلته عائلتي أتم كخنازير تعيش فى الوحل، وتنسى أنها أم القذارة! هل نسيتم أن جدي هو من حماكم؟ جدي الذي قادكم بعيدًا عن المدن التي غزتها الوحوش، وملأها بمخلوقات البشر المتحولين. نظر إلى الجموع التي بدأت تنصت بصمت متقطع، ثم تابع بصوت عميق، موجهاً كلماته للجميع:

— هل نسيتم أي، الذي هزم فيل السرايل صاحب الخمس رؤوس لولاه لما بقيت القبيلة على قيد الحياة، ولتحولت الأرض إلى بركة من الدماء! هل نسيتم أنني أنا من زرع الأرض، وأطعمكم بيدي؟ من صنع المزرعة؟ من ملأ المخازن؟ من جعل لهذه القبيلة عقلًا بعدما كانت تسير بلا هداية؟

تقدم خطوة إلى الأمام، وعيناه تتسعان بقوة، وجسده يزداد تماسكًا:

— ومع كل ما فعلته، ها أتم اليوم ترفضوني، في كل مرة كان يموت فيها الحوت الذي قبلي، كُنَّا نرضى بما يقرره القانون. ومن أراد القيادة، دخل المصارعة العادلة، وكل من وقف أمام عائلتي.. فشل لم يستطع أحد هزيمتنا والآن، تظنون أنني سأسقط بسبب بعض الكلمات.

رفع يده مشيرًا للجميع، ثم قال بصوت مليء بالثقة والتحدى:

__ القانون هو من يقرر وأنا الحوت الأزرق... لا أقبل بغيره أما عن المخازن، فهي ملكي، وأنا من ملأها بعرق جيني فمن يعترض فليتقدم الآن وليوجهني.

((الفصل السادس: الذي لم أعرفه))

كانت هذه الليلة عاصفة بالأحداث، فقد واجه مقرعون الثوار بقلبٍ صامد، قاوموا بكل ما أوتوا من قوة، لكن الهجوم كان كاسحاً، ولم يلبثوا أن انتكسوا وتراجعوا تحت وطأة كلماته . غير أن هذه الليلة لم تَمُر مرور الكرام على صمصام .

كان في زنزاته الضيقة يجلس وحيداً، عيناه تائهتان بين الجدران التي حفظ كل تشققاتها عن ظهر قلب، يرفع قناع الاستنشاق للحظات، يتنفس الهواء الملوث كمن يختبر قدرته على الاحتمال، ثم يعيده مجدداً قبل أن تخونه رثاه. استمر هكذا لدقائق كثيرة عقله يغوص في دوامة لا نهاية لها، يفكر في سبيل للهرب.

وفجأة كسر صرير الباب الحديدي أفكاره، ودفع جسدهً منهك إلى الداخل، ارتطم الرجل بالأرض ولم يحاول النهوض. كان شاحباً، هزيلاً، ثيابه ممزقة، وجسده مخطط بندوب حديثة تشبه خرائط من العذاب. انكمش في الزاوية، ضمّ ركبتيه إلى صدره، وتمم بكلمات غير مفهومة.

لم تمر سوى لحظات حتى عاد أحد الحراس، نزع القناع عن وجهه وألقى أمامه ريشه ومجبرة وبعض الاوراق المتأكل اطرافها قائلاً ببرود:

__طلبك.

ثم استدار عند الباب، وقبل أن يغلقه قال باشمزاز :

__لو لم تكن ستُعدم غداً ما اهتم أحد بك .

ظل الرجل صامتاً، يحدّق في الورق كما لو كان آخر خيط يربطه بالحياة ثم مدّ يده المرتجفة، أمسك بالريشة، وبدأ يغمسها في المحبرة ثم بدأ يكتب ودموعه تخطلت بالحبر، ترسم كلمات قد تكون الأخيرة.

لم يكن صمصام معتاداً على هذا النوع من الصمت، فتأمل السجين الجديد حتى قال بصوت خافت:

__ ما بك، يا هذا؟

لم يرفع الرجل عينيه فوراً. بدا وكأن السؤال نفسه عبء آخر عليه، لكنه في النهاية قال دون أن ينظر:

__وما شأنك أنت؟ دعني وشأني.

لم يكن في صوت صمصام استفزاز أو إلحاح، بل شيء من اللين:

__ ربما أملك حلاً ربما أستطيع مساعدتك.

- لا تُضع وقتك إنه أحق، فالناس هنا تكرهه و يتحدثون عنه بالسوء فلن تجني من حديثك معه إلا مضيعة الوقت.

لم يلتفت صمصام إلى السجنان فوراً، أمسك بكلماته قليلاً، ثم رفع عينيه إليه وابتسم بهدوء:

- الحماقة الحقيقية يا صديقي، أن تلغي عقلك وتكره شخصاً فقط لأنك سمعت عنه سوءاً.

لم يقل السجنان شيئاً ثبت كأن الكلمات علقت في حلقة، ثم أدار ظهره واختفى في الممر.

أما السجين، فلم يرفع رأسه، ظل يكتب دون كلمة، كأن كل ما تبقى له من العالم هو هذه الكلمات. تطلع إليه صمصام وقال:

_الكلمات يا صديقي كاللحجارة إما أن نبني بها جسراً يقربنا من الآخرين أو نرجمهم بها دون سبب... أما أنا فأفضل الجسور.

رفع الرجل رأسه بتردد، عيناه متورمتان من البكاء، تنفس بعمق، لكن الكلمات ظلت عالقة في صدره ترفض الخروج وحين نطق خرج صوته متقطعاً، هسّاً كأفئاس محتضر:

— اسمي حيدر سميل العتيب من مدينة حف، المدينة التي انطلقت فيها الحياة يوم سقطت النيازك على الأرض. لم يبقَ منا إلا القليل، وظننا أن النهاية قد حلت، لكننا كنا مخطئين لقد كانت بداية أخرى، بداية أشد ظلامًا من أي شيء يمكن أن يتخيله عقل.

توقف لحظة ابتلع ريقه بصعوبة، وعيناه شاردتان في فراغ بعيد، كأنه يرى ماضيه يتجسد أمامه ثم تابع:

— حين عمّ الخراب لجأ أجدادي إلى برج قديم أخرجوا الجثث من داخله، حولوه إلى مأوى وعاشوا بين جدرانه الحجرية، يقتاتون على أي شيء حتى الحشرات والكلاب. لقد نجوا، لكنهم كانوا أمواتًا من الداخل. مئة عام مرت ولدنا في ذلك البرج، حملنا عبء بقائنا وكأننا خطيئة يجب أن تُكفّر.

أخذ نفسًا مضطربًا، مسح دموعه بيد مرتعشة، ثم همس:

— لكن شيئًا تغيّر بعد كل تلك السنوات الجثث لم تتحلل فقد بقيت هناك هادمة، حتى بدأت تتغير. لونها تحول إلى أخضر باهت، كأن الحياة المسلوبة عادت إليها بطريقة مشوهة وفي ليلة مطرية، سمعنا الخطوات خطوات ثقيلة زاحفة، في البداية ظنناها أوهامًا، لكن حين نظرنا من النوافذ رأيناهم كانوا يتحركون. الأموات عادوا لكنهم لم يكونوا بشرًا بعد الآن كانوا كوابيس تمشي على الأرض.

حاصرونا أغلقنا الأبواب دفعنا الأثاث أمام المداخل، تجمدنا في زوايا الغرف، نحاول الصمود لكننا كنا نعلم أننا نموت ببطء إما من الجوع أو من أنياب تلك الكائنات.

اهتز صوته عند الجملة التالية، اظهرت أنه على وشك الانهيار:

__كنت أرى زوجتي وطفلي يضعفان أمامي كانوا كل يوم يذبلان أكثر.

لم أتحمل ذلك وفي لحظة ضعف فتحت الباب هرعت إلى السطح بحثًا عن طعام لكنني... لكنني نسيت أن أغلق الباب خلفي..

ارتجف فكه، شهق كمن يختنق ثم تتم بصوت مكسور:

__عدت فوجدتهم دخلوا.

انحنى إلى الأمام، دفن وجهه بين يديه ثم همس:

- رأيتهم ينهشون طفلي.

ارتجف جسده لكنه تابع كمن يعاقب نفسه بالنطق:

__كان يصرخ باسمي، لكنه لم يعد يستطيع الكلام.

رأيت زوجتي تحاول حمايته بجسدها، لكنها سقطت أمامهم.

لم أفعل شيئًا.

أنا السبب.

أنا من ترك الباب مفتوحًا.

أنا من قتلهم.

أخذ صمصام الورقة من يد حيدر، حرق فيها للحظة قبل أن يضعها جانبًا برفق. ثم رفع عينيه إلى حيدر، الذي جلس أمامه كظلٍ للإنسان، محاصرًا بذنوبه.

قال بهدوء:

__ هناك جروح لا تلتئم، لكن هذا لا يعني أنها يجب أن تقتلك.

لم يرد حيدر، لكنه نظر إليه نظرة طويلة يحاول بها استيعاب ما سمعه.

تابع صمصام:

__ لا أحد يستطيع تغيير الماضي، لكن إن ظللت تسجن نفسك داخله، فلن يبقى منك شيء.

اهتز كتفا حيدر قليلًا يحاول مقاومة شيء ما، لكن مقاومته لم تدم طويلًا.

ارتجفت شفاته ثم انحنى للأمام

لم يتحرك صمصام على الفور. انتظر لحظة، ثم وضع يده على كتف حيدر برفق دون أن يقول شيئًا هو لم يكن بحاجة للكلمات في هذه اللحظة، لأن بعض الأحزان لا

تحتاج إلى نصائح بل إلى شخص يجلس بجانبك، دون أن يطالبك بالتوقف عن البكاء.

مرت ساعات ثقيلاً، تكاد تدقُّ على صدر الليل دقاً، حتى إذا اقتربت عقاربُ الوقت من الثانية والنصف صباحاً، تحرَّكت يدٌ في الظلام، تهزُّ كنفًا ساكناً، وتهمس بصوتٍ خافتٍ:

—حيدر... استيقظ... حيدرررر.

فتح عينيه بثناقلٍ، كمن يُنتزع من قاع حلم ثقيل، يتنفسه كالغرقى، فإذا بوجه صمصام يطفو أمامه، يحدق فيه بعينين لا تعرفان النوم.

تحدث صمصام بصوت خافت لكنه واضح:

—يا حيدر نحن البشر ضعفاء أحياناً نخطئ، وأحياناً يدفع من نحب ثمن أخطائنا ولكنك لم تخطئ... لم تكن تريد أن تؤذيه فكل ما فعلته كان بدافع الحب، بدافع النجاة. العالم الذي دمرته النيازك لم يترك لنا سوى الخيارات الصعبة وربما أنت ترى نفسك مذنباً، لكنك كنت أباً حاول أن يحمي عائلته بأي ثمن.

رفع حيدر رأسه قليلاً، لا يفهم شيء بل كاد يستطيع ان يفتح عيناه:

—لكنني لم أحميهم، أنا السبب في موتهم كل ليلة أسمع أصواتهم، أراهم يلومونني في أحلامي.

(صمصام)

العيش مع الألم ليس عقاباً بل فرصة...فرصة لأن تفعل شيئاً يجعل ذكراهم تستحق
هذا الندم إن كان القدر قد سمح لك بالبقاء حياً بعد كل هذا، فرمما يريدك أن تكفر
عن هذا الألم بطريقة أخرى.

(حيدر)

__ كيف وقد اختار القدر أن أعدم غداً؟

(صمصام)

__ لن تُعدم لأننا سنهرب الآن.

حيدر في عدم مبالاة:

__ لا أريد الهرب دعهم يقتلونني، فهذا مصيري ولا أرغب في تغييره.

ضاق صمصام ذرعاً بكلمات حيدر، اقترب منه وصفعه مرتين متتاليتين، حتى سالت
قطرة دم من زاوية فمه ثم صاح فيه بغضب:

__ كفك هراء! اسمعني ربما، فقط ربما، لم تكن زوجتك قادرة على الصبر. ربما هي
من فتحت الباب. وربما كان القدر أقوى منك ومن قراراتك فلماذا تلقي كل هذا

العبء على نفسك؟ أنت لم تقتلهم بل قاتلت من أجلهم وإن كنت تحمل وزراً فهو
عدم إنقاذ نفسك الآن.

ابتسم حيدر ثم نهض ببطء وسأل:

__ كيف سنهرب؟

صمصام وكأنه ينتظر هذا السؤال. أخرج من جيبه مفتاحاً ورفعته أمام عيني
حيدر:

- هكذا.

كان يخفي في بطانة حذائه إبرة صغيرة، مسننة الأطراف، انتزعها بخفة، وراح يحرق
بها قدميه من الأغلال

ثم تحرك نحو الباب ينظر بجذر من بين القضبان الحديدية، متأكداً من خلو الممر
تماماً من أي حركة. المكان هادئ لكنه لم يكن يثق في هذا الهدوء. أمسك المفتاح
وأدخله في القفل، فأحدث صوتاً خفيفاً فتح الباب بجذر ودفعة ببطء شديد حتى
لا يصدر أي ضجيج.

ثم خرج بخطوات محسوبة، قدماه بالكاد تلامسان الأرض، تبعه حيدر يتلفت في
خوف كان الممر مظلمًا، تضيئه بين الحين والآخر مصابيح زيتية معلقة.

وبينما هم يتسللون رصد صمصام جنديًا يقف متأهبًا، فقام بالإشارة لحيدر ليتوارى خلف الجدار.

تقدم هو بخفة حتى اقترب من الجندي من الخلف، وقام بحركة سريعة ليمسك برأس الجندي كما لو كان يكسر غصنًا جافًا.

((طق))

سقط الجندي على الأرض ميتًا على الفور، وصوت ارتطامه بالأرض جاء مكتومًا. انحنى بسرعة ليأخذ المسدس وخنجرًا صغيرًا مُعلّقًا في حزامه.

أشار لحيدر بالتقدم، وناول له المسدس قائلاً:

- هذا لك استخدمه بعقل فلن ننجو إلا إذا قاتلنا معًا.

امسك بالمسدس ثم أحكم قبضته عليه واكمل السير خلف صمصام.

واصل الاثنان تقدمهما حتى ظهر جندي آخر عند نهاية الممر. لم ينتظر صمصام، بل انطلق نحوه كذئب جائع، وفي حركة سريعة غرس خنجره في صدره طلق الجندي أنينًا خافتًا وسقط على الأرض، لكن صمصام لم يتوقف، بل أشار لحيدر بسرعة ليسرع قبل أن يُكتشف أمرهما.

بينما كانا يركضان في ممر آخر، برز جندي ثالث، ورفع بندقيته نحو صمصام صارخًا بصوت عالٍ:

- قف في مكانك، وإلا سأمزق رأسك!

رفع صمصام يديه ببطء كعلامة استسلام، لكنه فجأة انحنى نحو الأرض، مما مكن حيدر من تسديد ضربة للجندي بمسدسه، فأطلق الرصاصة أصابت رأسه مباشرة. سقط الجندي على الأرض بلا حراك، لكن صدى الرصاصة الأخيرة تردد في الممرات.

تسارعت أصوات الأقدام نحوهم من كل الاتجاهات، استولى صمصام على سلاح الجندي القليل وتدارى خلف الجدار، وأوماً لحيدر ليكون في حالة تأهب، اندلعت الأعيرة النارية دون انقطاع.

في خضم هذه الاشتباكات ظل صوت الرصاص يهيم على المكان ويسقط العدو دون توقف، لكن مخازن الطلقات بدأت تنفذ بشكل مقلق. ضغط صمصام على الزناد، لكن لم يُسمع سوى صوت الخواء المرعب. دون تردد ألقي سلاحه جانباً، مُركّزاً نظره على الجثث المنتشرة حوله.

ثم استل سيفاً كان يحمله أحد الجنود الذين سقطوا، أمسك مقبضه بإحكام ثم التفت إلى حيدر الذي يجتمى خلف عمود حجري فرأى مالم يتوقعه، كان حيدر يتأمل الجثث، وقد فُتحت شفتاه بصورة بشعة تم على شهوة، حينها سمع صمصام همسات تكاد تكون غير واضحة في أذنه تقول:

__لا تصدق .

اعتقد صمصام أنه يتوهم، ثم حاول استعادة تركيزه ليلحق أفكاره بعقلانية.

فأشار الى حيدر بشك وقال :

__اترك المسدس الفارغ و خذ سيفًا من الأرض.

بعدها لم يتردد وباندفاع حاسمة، انحنى وانتزع جثة جندي سقط للتو، رفعها أمامه كدرع، ولم يكن في نيته الاحتواء فقط، بل الهجوم كان الرصاص يخترق الجسد الميت، يخترقه ويكاد يطال قلب صمصام، لكنه واصل التقدم كأن لا شيء قادر على وقفه.

وحين اقترب بما يكفي من أحد الخصوم، رمى الجثة الثقيلة عليه، فسقط الأخير كأن الموت باغته على حين غفلة وقتها لم يمنحه حتى صرخة، بل انقض عليه مثل ظلٍ غاضب، وغرس سيفه في عنقه. كان الدم ساخنًا، والرغبة في النجاة أكثر سخونة.

التقط السلاح من يد الجندي القتيل، أفرغ رصاصاته القليلة في صدر آخر كان يحاول التصويب عليه، ثم زفر بصوتٍ مسموع، وقد غلبه اللهاث ثم التفت إلى حيدر:

- ابحث عن جندي لم تُفسد ملابسه... لن نخرج من هنا إلا متخفين.

لم يضيّعا وقتًا فيين الجثث ظهرت فرصة للبقاء جنديان بدت ملابسهما شبه سليمة
لم يفكرا صمصام وحيدر كثيرا خلعا زيهما المملطين وارتديا زيّ العدو، ثم سحب كلٌّ
منهما قناع تنفس ولصقه بوجهه.

بعدها سار الاثنان في الممر الطويل المؤدي إلى المخرج.

كل جندي مرّا بهما لم يلتفت إليهما القناع والزي العسكري كانا كافيين لخداع العيون
المرهقة.

وحين بلغا بوابة السجن الخارجية، وقف حارس ضخم يعترض طريقهما، رفع يده
مشيرًا إليهما، صوته جاء حاد حين ينزع قناعه:

—عزّفا عن نفسيكما، أيها الاثنان.

لم يمنحه صمصام الوقت فلقد أخرج سيفه في ومضة، وبضربة قاطعة شطر الحارس
من عنقه.

سقط الرجل قبل أن يكمل كلمته، بعدها مسح صمصام نصل السيف في سترته:

تفضل هذه هويتي. ثم التفت لحيدر بسرعة:

—افتح البوابة الآن.

ركض حيدر نحو العارضة الثقيلة، ودفعها بكل قوته، لكن الصرير جذب أنظار الجنود داخل الساحة.

ارتفعت أصوات الصراخ، وأطلقت أولى الطلقات.

لم يتردد صمصام ركض باتجاه الفرس المربوط عند البوابة، امتطاه في قفزة واحدة، ومد يده نحو حيدر.

_أمسك يدي صرخ... بينما الرصاص يتطاير حولهما.

قفز حيدر وتمسك بذراع صمصام بكل ما أوتي من قوة، وانطلق الفرس بقوة خاطفة خارج الأسوار، والرصاص خلفهم يلهث دون أن يدركهما.

كان هذا السور الخلفي هو آخر حدود السجن... وآخر حدود قبيلة النار ومع سقوط حوافر الفرس خارج الجدار، لم يكن صمصام قد هرب من سجنٍ فقط... بل نجا من قبيلة كاملة.

وعندما ابتعدا عن قبيلة النار بما يكفي، أبطأ الفرس قليلاً ليلتقط أنفاسه وبعد وقت قليل رفع صمصام القناع وقال وهو يتنسم:

- لم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق...

مع بزوغ الفجر وصلا الاثنان إلى تخوم قبيلة النار هناك كان الضباب يزحف على الأرض كأفعى ضخمة والجبال تحيط بالمكان وشمس الصباح الشاحبة بالكاد تبث

دفنها الذي لم يعد له وجود لكنها كانت جميلة بشكل غريب محاولةً استعادة لونها المفقود عبر القرون.

أشار صمصام نحو كهف عند قاعدة الجبل بالكاد يُرى. كانت الرطوبة قد غلّفت مدخله بطبقة سميقة من الطحالب الخضراء. توقف عنده ثم استدار ناظرًا إلى الحصان، ومزّر يده على عنقه بحنان قبل أن يهمس له:

—ساعمني يا رفيقي، لكن هذا الطريق ليس لك.

رفع يده وصفع خاصرته بقوة فسهل الجواد وانطلق يركض بعيدًا تاركًا أثر حوافره على الأرض المبللة.

راقبه حيدر وهو يستند إلى جدار الكهف، ثم قال متشككًا:

—لماذا فعلت ذلك؟

ابتسم صمصام ابتسامة خفيفة وقال:

—إذا أردنا النجاة، فعلى أعدائنا أن يظنوا أننا سلكنا طريقًا آخر.

دخل الاثنان إلى الكهف ثم تتبعاه حتى أوصلهما إلى الجهة الأخرى من الجبل حيث ظهر ضوء خافت انبعث من بعيد.

قال صمصام:

_ لنسترح هنا حتى يضيع اثرنا.

اجاب حيدر وهو يتشاءب:

_أنا سأخلد للنوم.

(صمصام)

_وأنا كذلك ولكن لاتنسي ان تضع قناعك حتى لا تختنق وانت نائم .

قال حيدر متوترا:

_اشكرك .

(صمصام)

_لا تشكرني ولكن لا تنسي ، فنحن لم نمت هناك ولا اريد ان يموت احدنا هنا....

(حيدر)

_انا لا اشكرك على القناع .

(صمصام)

_عن ماذا تتكلم ..

(حيدر)

—عن كل شيء فعلته لي اجلى.

لم يرد صمصام بل ابتسم واستلقى على الارض بينما تبعه حيدر واستلقى بجواره ثم أغمضا أعينهما، حتى غرقا في النوم وسط سكون الكهف العميق.

((الفصل السابع: صرخة في فم الهاوية))

في كهف آخر يبعد عن مخبئهم بكيلومترات كان نفيل يقف أمام طاولة خشبية ضخمة تتناثر فوقها أشلاء جثتين ممزقتين ينير الكهف المشاعل المعلقة على الجدران ، ينبعث منها ضوءاً خافتاً يكشف وجوه كائنات مشوهة يحتجزهم خلف القضبان، تحديق فيه تلك الكائنات بعيون واسعة بعضها مرتعب، وبعضها يكتم صرخاته.

أمسك نفيل شاطوره الضخم و رفعه عالياً ثم هوى به على الأشلاء بقوة يقطعها بلا رحمة مما جعل اللحم يتمزق أكثر و العظام تتكسر، والدماء تتطاير لتلطخ وجهه وتغمر يديه حتى التصقت بجسده كما يلتصق الدهان بالحائط ، لم يكن ينظر إلى ما يفعله، بل كان يهمس بغضب كأن الجثث التي تحت يديه تسمعه، يفرغ غضبه فيها كما لو كانت السبب في كل أوجاعه.

—أتما من جلدتاني ، صحيح لم تأمرا بذلك لكنكما كنتما السبب أتما من جعلتاني أشعر بكل جلدة على جسدي، هل سألتكم كم من الألم جعلتاني اتذوقه ؟ كم من الصرخات ابتلعها ؟ 130 جلدة.

رفع قطعة من الجثة بين يديه، نظر إليها ملياً ثم رماها جانباً وكأنه يتخلص من ذكرى مؤلمة.

__ سأقطع كل جسد منكما 130 قطعة كل واحدة منها ستكون جزاء لما فعلتموه بي.
توقفت يده لوهلة ثم التفت نحو الجدار حيث الظل المهتز بفعل المشاعل، وحدّق بعينين تضيقان .

__ أما أنت يا عمي العزيز..

ابتسم ابتسامة نائمة ثم اردف.

__ سأعرف كيف أنتقم منك سأجعلك تشعر بما شعرت به حتى لو كان الثمن حياتك.

استمر في تقطيع الأشلاء حتى اندفع أحد رجاله إلى داخل الكهف خطواته المتسارعة تعكس التوتر والخوف من سيده.

وقف متردداً للحظات ثم قال بصوت خافت محاولاً أن يخفي ارتجافه:

__ سيدي لقد وضعنا حيدر المتحول في زنزانة صمصام كما امرت وعندما يجوع سيعود إلى طبيعته الوحشية وسيهجم عليه.

لم يرفع نفيل عينيه عن اللحم الذي يقطعه، فقط ابتسم ابتسامة باردة واستمر في عمله وكأنه لم يسمع شيئاً حتى همس بنبرة متلذذة:

__ أحسنت صنعاً فعندما يتحول وحشي، سينهش لحم صمصام. يجب هو الآخر أن يشعر بكل شيء، كما شعرت أنا ولنرى كيف سيحميه الحوت الأحمر.

التفت إلى الرجل صاحب الخبر فرأى الذعر المرتسم على ملامحه، فاستمتع للحظة بذلك الخوف الذي يبعثه في قلبه.

بابتسامة مشوهة بين الفرح والحزن ابتسامة لا تخرج إلا من مجنون:

__ أطعم وحوشي الأليفة.

تسمر الرجل مكانه وتردد، لكن نظرات نفيل الثابتة لم تترك له مجالاً للرفض، تنفس بعمق ثم تقدم نحو الطاولة، عيناه تنتقلان بين اللحم المقطّع وسيده، وكأنه يخشى أن يكون هو الضحية التالية.

مد يده المرتعشة ورفع قطعة لحم لا تزال طرية لزجة بالدماء الدافئة، وبدأ يرمي القطع واحدة تلو الأخرى داخل القفص.

بمجرد أن سقطت القطع أمام المتحولين اندفعوا عليها بجنون، أصوات نهش اللحم وتمزيقه ملأت الكهف. أنفاسهم اللاهثة مع أصواتهم المتوحشة جعلت الرجل يقف

متجمداً في مكانه، يراقب المخلوقات الجائعة وهي تلتهم الطعام بشراهة، كأنها لم تأكل منذ سنوات.

بينما في الخلف مكث ثقيل يراقب المشهد وعينيه تتألقان بلذة خفية وهو يهمس لنفسه:

__ هذه مجرد البداية.

نرجع إلى صمصام الذي ظلّ مستلقياً على الأرض، يبدو من هيئته أنه غارق في نوم عميق، أنفاسه هادئة وجسده مسترخياً تماماً يظهر أنه استسلم لسبات طويل لم يكن هناك سوى ضوء خافت يتسلل من الجهة الأخرى وهدوء مطبق يلف المكان فيزيد من سكونه.

صمتٌ اختلط بهدوء، يكتنفه ضوءٌ خافت يجعل الثور ينام لكنه فشل في اخمادٍ حيدر.

فالجوع كان ينهشه من الداخل، يدفعه إلى حافة فقدان السيطرة يدوي في كيانه، يذكره بطبيعته الأخرى طبيعته التي لم يعد بإمكانه كبجها.

في البداية وقف يحدّق في جسد صمصام المسحّي أمامه، نظراته تتحول إلى جمر متقد والرغبة تتوهج داخله كحريق جائع فجأة بدأ جسده في التحول.

بشرته تغير لونها تدريجيًا إلى أخضر قائم، كأنها جلد ميت خرج للتو من قبره،
أصابعه بدأت تتضخم وأظافره امتدت بسرعة وتحولت إلى مخالب حادة لعابه سال
بيضاء من بين أنيابه التي طالت، وصدره أخذ يعلو ويهبط مع أنفاسه اللاهثة.

انحنى على أربع، زاحقًا يهدوء كحيوان كسلان لكن صوته كان كحشرة ذئب
جوعان. كلما اقترب، ازداد شوقه للدماء، حتى لم يعد قادرًا على كبح نفسه أكثر.

توقفمكنته حدق في وجه صمصام الناعس، ثم فجأة أطلق زئيرًا حادًا واندفع نحوه بفم
مفتوح مستعد بأنياه الحادة تمزيق رقبته..

لكن قبل أن يغرس أنياه في اللحم انفتحت عينا صمصام فجأة ، وفي لحظة خاطفه
تحركت يده بسرعة وكأنهما كانتا تترقبان هذه اللحظة.

خنجره الذي أخفاه طوال الوقت انطلق في هجوم مباغت ليخترق عين حيدر في
هجوم مخطط.

انطلقت صرخة مروعة من فم المتحول فتراجع إلى الخلف وهو يمسك وجهه النازف،
يترنخ من الألم لكنه لم يسقط بعد.

لم يمنحه صمصام أي فرصة قفز على قدميه وأحكم قبضته على خنجره، ثم بدأ
يطعنه بلا رحمة.

طعنة في الفخذ ، تلاها صرخة مكتومة.

طعنة أخرى في البطن، تلاها الدماء تتفجر.

طعنة في الصدر، تلاها الرجفة تزداد.

طعنة في الرقبة. العيون تتسع برعب.

ثم أخيراً.

غرس الخنجر في الرأس بقوة كافية لجعل الجثة تسقط في سكون أبدي.

مات حيدر أخيراً بينما جسده المتحول بدأ يعود تدريجياً إلى هيئته البشرية، لكنه الآن بلا حياة مجرد قشرة فارغة لما كان عليه.

بصق على الجثة ثم مسح خنجره بكمه، حذق فيه بعض الوقت قبل أن يخلع قناع الاستنشاق عن وجهه ويقول باحتقار:

—أتظن أنني كنت نائماً؟ كنت أعلم بحقيقتك منذ البداية شراحتك للدماء، نظراتك الجائعة، كل شيء فضحك! حتى أنك بقيت بلا قناع لأكثر من ساعتين ولم تختنق في حين الإنسان العادي لا يحتمل هذا الهواء أكثر من نصف ساعه لقد شككت فيك، لكنني كتمت شكي بداخلي.

نظر إلى الجثة ببرود، ثم أضاف بصوت مغمور بالازدراء:

—والآن فهمت رسالتك التي كتبتها، حين قرأتها لم افهم المعنى جيداً.

—سأحوني لم أستطع السيطرة على نفسي، خرجت لجوعي والجوع من قتلكم..

لم تكن تتحدث عن وحوش جائعة كنت تتكلم عن نفسك أنت من قتل زوجتك وأكل أبنائك، لا أحد غيرك.

ثم بصق عليه مرة أخرى، وجلس بجواره ينتظر زوال الشمس...

هروب صمصام كان لبعضهم رحمه، وكان للبعض الآخر ناراً تُحْمى

نعم ناراً لأن الحوت الأحمر حين يعلم، لا يفضب، بل يشتعل، وما فعله صمصام لم يكن هروباً، بل شرارة أُطلقت في نفق مليء بالديناميت، وقتها كان الحوت الأحمر جالساً على عرشه ساكناً كجبل يغطي بركائاً في جوفه. حتى اندفع أحد الحراس إلى الداخل كان وجهه مسلوخ من الذعر، كأن الشياطين تلاحقه.

سقط على ركبتيه، وقناعه يرتجف في يده اليمنى، وصوته يخرج متحشرجاً، مكسوراً تحت وطأة الرعب:

—سيدي... صمصام... لقد هرب.

تشاءب الحوت الأحمر ببطء وكأنه لم يسمع ثم مال برأسه قليلاً، ونظر للحارس كمن يتفحص فأراً محشوراً في زاوية من نظرات القط الشرس. وفجأة انقضَّ عليه كالنمر، وقبض على رأسه بكل سهولة ثم بضربة واحدة، قطع عنقه بيده العارية.

تهاوى الجسد أرضاً والدم تفجّر كالنبع على الأرض الرخامية. حدّق الحراس الآخرون في المشهد، وأجسادهم ترتجف من الرعب، لكن الحوت لم يكثرث. التقط سوطه الجلدي الطويل واندفع خارجاً كالإعصار، جمع كثيراً من الحراس معه وتوجه الى السجن .

في الأزقة الضيقة بات يضرب كل من يراه في طريقه رجال، نساء، حتى الأطفال لم يسلموا. البعض فرّ إلى داخل البيوت، والبعض الآخر سقط أرضاً تحت وقع ضرباته المجنونة صار أشبه بكلب اصابه السعار.

ولمّا وصل إلى السجن صرخاته سبقت خطواته دكّ الأبواب بقدمه وانطلق إلى الدهاليز المظلمة حيث احتشد حراس السجن وجعلهم يجثو على ركبهم .

— كيف سمحتم له بالهرب أيها الحمقى ؟

كيف اوصف لكم صوته في هذا الوقت ، استمعوا معي جيداً ها تسمعون صراخه هل هو صوت بشر، انت أيها القارئ نعم انت هل تُحس به ؟ إنه ليس مجرد صوت، بل صرخة مدوية كأنها فيضان ضرب صخرة ارتدّ للحظة ثم هدأ الموج كأنه استسلم. لكن هل تستمر السكينة ؟ لا يمكن فيعود الموج ليضرب نفس الصخرة من جديد، هل شعرت به لقد كان كذلك يصرخ قليلا ويصمت قليلا

— لقد ضيّعتم فرصتي للسيطرة على مقرعون.

لَوْح بسوطه في الهواء، ثم أشار بعنف إلى الجنود الآخرين:

—زيدوا الجلد أريد أن أرى الدماء!

هوى السياط على ظهور الحراس صرخاتهم ملأت المكان لكن هذا لم يكن كافيًا لإطفاء غضب سيدهم. تقدم إلى الأمام يحدّق فيهم بعيون وحشية.

حتى عروق رقبته تنتفض من شدة الغضب، ووجهه يزداد احمرارًا كطماطم انفجرت بعد استوائها.

—قولوا لي

صاح أكثر

—كيف يهرب اثنان فقط من زنزنة محكمة الإغلاق؟ كيف يقتلان عشرين حارسًا ثم يختفيان من بين مئتي جندي؟ هل كنتم نائمين... لقد ضيعتم هبّة سجن رهيدا.

نظر حوله إلى الوجوه المذعورة لم يكن بينهم من يجرؤ على الرد. اقترب من أحد الحراس المرتعشين، أمسكه من ياقة قميصه ورفع عن الأرض بسهولة ثم همس في أذنه بصوت منخفض لكنه أشد رعبًا من الصراخ:

— أخبرني هل كنت تتواطأ معهم؟

— لا لا يا سيدي

تأثأ الحارس لكنه لم يكد يكمل كلمته حتى هوى عليه السوط، فشق صدره بجرح عميق جعله يطلق صرخة مدوية:

__زیدوا الجلد...صاح الحوت الأحمر مجددًا، وهو يدفع الجسد النازف بعيدًا:

__ لو لم أكن بحاجة لكم لذبجتكم جميعًا الآن، لكنني أريد كل شخص حي، حتى لو كان ضعيفًا لأننا سنحتاج لكل قوة ممكنة حين يهبط غضب مقرعون علينا.

التفت عاليًا ونظر إلى السماء عبر فتحة صغيرة في سقف السجن. كانت الشمس لم تغرب بعد ، لكنه شعر أن الظلام يقترب.. الظلام الذي سيحمله مقرعون معه حين يأتي.

__لا بأس...تم بصوت خافت وشفثيه تنفرجان عن ابتسامة شرسة.

__إن كان يظن أن الهروب يعني النجاة فهو مخطئ ، لن يفر مني لن يفر أبدًا.

__نفيل...نادى على ابن اخيه

لم يتأخر نفيل وخرج من بين الحراس، انحنى قليلًا:

__ نعم يا سيدي.

(جلمود)

__هل أرسلت الرجال؟

(نفيل)

__ فعلت إنيهم يفتشون كل شبر بحثاً عنه.

(جلمود)

__ هذا لا يكفي أريده حياً أو جثة لا تهمني الطريقة، لكن لا أريد أن أسمع أعداءاً
أذهب بنفسك، وإن لزم الأمر فاقلب الأرض رأساً على عقب حتى تعثر عليه، فلم
يولد من يهرب من سجنى ولن يولد مجدداً.

انحنى نفيل مرة أخرى:

__ أمرك يا سيدي.

استدار نفيل مغادراً بينما الأفكار تتصارع في عقله، لكن السؤال الأكثر إلحاحاً ويشدّ
أنفاسه:

__ أين ذهب مصمام؟ وكيف اختفى حيدر؟ وماذا حدث بالضبط؟

بعد ساعات طويلة من التخفي والهروب حين استقر الليل ولف الأرض بظلمته
عزم مصمام أخيراً وخرج من الكهف، كانت الحشرات تئن بين الصخور ويعلو
العواء من أماكن مجهولة.

سار بجذر متجنبًا كل نظرة قد تفضحه وبعد ساعات من السير الطويل سقط أخيرا على ركبتيه من شدة الانهك، كان يرتفع صدره وينخفض ولا يستطيع اخذ انفاسه. رفع يده إلى وجهه ونزع قناعه، تنفس بصعوبة ثم تتم بتعب:

__ سَمْتُ من هذا القناع لا أستطيع ان اتنفس به ولا أستطيع ان اتنفس بدونه ..

كان يئن من جروح جسده التي لم تندمل ، تجول بعيناه في الظلام يبحث عن شيء لا يعرف ماهيته، لكنه كان واثقًا من وجهته.

__ لا تخف يا صمصام أنت ابن الحوت الأزرق.

قالها لنفسه كأنه يقنعها و يُذكرها انه ليس كأى احد فهناك من يعتمد عليه وهناك من ينتظره.

رفع رأسه الى الاعلى وتأمل سحب صفراء تتخل سماء يزينها كواكب قريبه فجعلت من هذا الليل مميزا ، شعر بدوار في رأسه وأحس بأن كل شيء يسحبه الى الجنون ، ثم أغمض عينيه للثانية وزفر زفرة قوية ليقول بعدها:

__ سمراء تنتظرني عليّ أن أتحمل من أجلها.

حاول أن ينهض، لكن ساقيه خائتاه، فسقط على ركبتيه من جديد وارتطم كنهه بالصخور الرطبة، أغلق عينيه للحظة فعاد به الزمن إلى ذلك اليوم.

كانت الشمس تميل إلى المغيب حين رأى وجهها للمرة الأولى..

قالت له يومها بابتسامة ساخرة، ويدها على خصرها:

__ من تكون يا هذا؟

نظر إليها ببرود، كأنه لم يفهم السؤال ثم رد :

__ أنتِ لا تعرفيني!!! أنا صمصام ابن الحوت الأزرق.

ضحكت لكن ضحكتها لم تكن خالية من التهمك، وكأنها تنسلى برؤية ثباته المصطنع:

__ لا... لم أسمع عنك من قبل، ولن أود حتى لو كنت وسيماً.

ثم اقتربت منه قليلاً رفعت حاجبها وقالت:

__ بالمناسبة أنا سمراء ابنة الحوت الأحمر.

كان يمكن لصمصام أن يرد بسخرية مماثلة أن يشيح بوجهه، لكنه لم يفعل. شيء في عينيها أثبتته في مكانه، كأنها كانت تحمله بين نظراتها إلى عالم آخر، عالم لم يدخله من قبل.

ابتسم حين افاق من عقلة التائه معها وقال:

__والآن و بعد كل هذه السنوات، ما زال اسمها يضرب في صدري كنبض ثائر.

وضع يده المرتعشة على قلبه ضاحكاً رغم الألم:

__ آه يا سمراء، آه يا حبيبتى المشاكسة.

ثم همس كما لو أن كلماته تتسرب من بين ضلوعه:

((قررتُ في نفسي ألا ألتاقي.

ومع كل بُعدٍ زاد اشتياقي

نَفَرِ قلبي كغصنٍ يابسٍ

فأين عقلي قبل احتراقي))

__ اين انتِ فقد جعلنى حبك اقول الشعر...تحامل على نفسك يا صمصام هيا قم...

قالها وهو يزحف فوق الأرض الوعرة.

زحمت الرياح من حوله كأنها تحاول إيقافه لكنه واصل رغم أن جسده كان يخلذه في كل خطوة.

سقط مرة أخرى فنظر حوله بعينين نصف مغلقتين. لا طعام، لا ماء، لا شيء سوى الصخور الباردة والأرض القاحلة.

دفع نفسه نحو صخرة كبيرة رفعها ببطء فوجد تحتها ديداناً صغيرة ،تردد لوهلة لكنه أمسك واحدة، وحدق فيها قبل أن يدفعها إلى فمه ويمضغها بشراهة.

تتم وهو يتلعلها بصعوبة:

__ سأصل إليك يا سمراء لن أتحمل هذا الاحتراق طويلاً.

وفجأة كما لو أن المدى قد انشق ظهر أمامه خيال غريب، ملامحه ضبابية، لكن حضوره كان طاغياً كانت امرأة أو ربما لم تكن، كظلال متموجة ترتدي شالاً أسود يلف جسدها بالكامل، ينساب كالدهان ويدوب في ظلمة الليل. لم تكن تتحرك لكن الهواء من حولها يرتجف. وقف صمصام مدهوشاً، جسده يقشعر رغم أن الرياح لم تكن باردة حاول أن يتكلم، أن يسأل من تكون لكن الكلمات لم تجد طريقها إلى لسانه.

حتى تمكن منه الفضول، لكن الرهبة أثقل من أن يتجاهلها تساءل بصوتٍ خرج مرتعشاً رغم محاولته إخفاء ارتباكهِ:

__ مَنْ هناك؟

لم يجبه سوى الصمت حتى كاد يظن أنه يتخيل الأمر لكنه لمح تلك الابتسامة الغامضة التي ارتسمت على شفتيها قبل أن تتلاشى في العتمة من جديد.

كأنها كانت جزءاً من الريح، أو سراباً عابراً لم يكن له وجود حقيقي رمش بعينه وأخذ نفساً عميقاً محاولاً استعادة تماسكه، لكن قبل أن يستدير تماماً، شعر بأنفاس باردة تلامس عنقه، وسمع الهمسة تتردد في أذنه خفيفة كنسيم الليل:

__ أنا ميساس.

ارتعدت أطرافه من هذا الصوت الذي جاءه ، فتساءل وقد تجددت الحيرة في صدره:

__ ماذا تريد مني؟

لم ترد عليه بل اختفت مرةً أخرى، ثم عادت بشكلٍ مفاجئ، محمولة على جناح الليل وهبطت أمامه، قالت بصوتٍ مخيف قد ملأه الشوق :

__ قلبي من جاء بي، فأنا من الجنيات العاشقات.

غمرت الدهشة قلب صمصام وتلعثت كلماته بينما يحاول استيعاب ما سمعه:

__ جنيتي؟ هل أتم حقًا موجودون؟

اجابت بسخرية:

__ وكيف لا وانا الآن امامك.

(صمصام)

__ولماذا انا؟

(ميساس)

ولماذا ليس أنت ؟

(صمصام)

اقصد لماذا اخترتيني.

(ميساس)

انا لم اخترك بل اجبرت عليك.

سأل بفضل:

ماذا تقصدين؟؟

اجابت بحزن:

هل البشر يسألون قلوبهم عندما يعشقون لماذا عشقتم، فقط يشعرون به، ثم

يتبعونه ويفعلون ما يستطيعون حتى يحصلون على مرادهم. لكن انا عشقي

يختلف، عشقي لك لا يتبعه شهوه مجرد من النزوات وكل شيء...

اقتربت منه حتى أصبحت أنفاسها تلامس بشرته:

لا ترفض حبي.

تجمد في مكانه كلماتها كانت وكأنها أحجية لا يفهمونها ويردد في نفسه:

__أنا لا أستوعب ما يحدث، كي أرفض أو أقبل...ولكن أنا أحب..

(ميساس)

__ابنة الحوت الأحمر سمراء.

نظر إليها بذهول ثم سألها :

__كيف تعرفين

(ميساس)

__ألم أخبرك أنني جنيّة؟ لقد أحببتك منذ زمنٍ بعيد وأعرف عنك كل شيء..

(صمصام)

__تعرفين عني كل شيء؟؟

(ميساس)

__نعم كل شيء ما تحبه، ما تكرهه، ما تفعله، وحتى مالا تفعله أنا لم أتركك أبدًا

ولكنك لا تراني، أنا من رفعت يد نفيل فأطلق النار في الهواء. كان يريد قتلك

ونداء الحوت عليه لم يكن ليمنعه، ولكنني من منعت ذلك، وأنا من همست في

اذنك وحذرتك من حيدر حين قلت لك لا تصدق..

__ولماذا ظهرتي الآن؟؟

__ لأنني شعرت أنك بحاجة إلي... لأنك وحيد.

صرخ في وجهها:

__ أنا لست بحاجة إلى أحد ابتعدي.

ثبتت ميساس لحظة ثم انفجرت دمعاً من عينيها فقالت في حزن:

__ حين تحتاجني ردد اسمي مرة وعكسه مرة أخرى.

قل ميساس ساسيم جنية الأرض والطين الحب يسري، والقلب سليم..... سأكون هناك حين تفتح قلبك ولكن لا تنسي، ميساس ساسيم جنية الأرض والطين الحب يسري والقلب سليم..

ثم تلاشت كالعطر الذي يذوب في الهواء.

تركته في صدمة لا تنتهي عينيه تتسارع في النظر حوله بحثاً عن تلك الجنية التي كانت تطوف حوله منذ قليل، لكن لم يجد شيئاً لم يكن هناك أثر لميساس كأنها لم تكن سوى خيال، أو حلم عابر ترك قلبه في حالة من التيه ليظل يسأل نفسه، هل كانت تلك اللحظات حقيقة أم مجرد أصداء واهية؟

((الفصل الثامن: احلام الغرقى))

وصل صفيدر، قائد جماعة الوريد، إلى منطقة نائية عند أطراف قبيلة النار. لم تكن هذه الأرض تابعة للقبيلة، ولكن السكان هم من كانوا اتباعًا لها، كانت خارج أسوارها والبيوت لم تكن بيوتًا بل كوماتٍ من الحجارة المقدسة بعشوائية، مغطاة بأقمشة ممزقة بالكاد تحجب الرياح القارسة. في الزوايا وقف الأطفال حفاة، وجوههم مغبرة يشربون من برك وحل تجمعت أسفل الجبل، حتى أنهم اعتادوا غلي الطين وأكله كي يطفئوا نيران الجوع.

قبيلة النار لم تسمح لهم حتى بأخذ أقنعة الاستنشاق، ولهذا كانوا يغطون أنوفهم بقطع قماش رطبة، لكنها لم تكن كافية. الموت هنا ليس حدثًا صادمًا، بل زائرٌ معتاد يأتي على فتراتٍ ليحصد أرواح من ضاقت صدورهم ولم يعد بمقدورهم أخذ نفس آخر.

عينا صفيدر كانت تنتقل بين المشاهد نساءً يحملن جرارًا ممتلئة بالماء الموحد، رجالٌ يجلسون في صمتٍ مميت كما لو أنهم ينتظرون شيئًا لن يأتي أبدًا. على الجانب الآخر، جثةٌ لرجلٍ طاف عليها الذباب، مُلقاة على التراب ولم يجد أحدٌ ضرورةً في دفنه.

أطلق صفيدر زفرة طويلة وهو يشق طريقه بين الأزقة الضيقة حتى توقف أمام بائع يجلس قرب كومة من الأقمشة البالية. كان رجلًا في منتصف العمر، عيناه غائرتان وملابسه مهترئة نظر إليه صفيدر للحظة، ثم قال :

__ السلام عليك.

رفع الرجل رأسه ببطء يتأمل هيئته للحظات، ثم قال بجذر:

__ وعليك السلام، ملابسك وكمامتك تقول إنك من قبيلة الماء، ما الذي تريده؟

(صفيدر)

__ أريد خدمة.

ضحك البائع بسخرية ومسح يديه برداءه المهترئ، ثم قال:

__ وأنا لا أقدم خدماتي لأحد، خصوصًا إن كان من قبيلة الماء.

لم يتغير وجه صفيدر، بل أخرج من جيبه كيسًا صغيرًا، داخله كسرة من الطعام الجفف، رماه في الهواء ثم التقطه مجددًا، كأنه يلعب بطعم في صيد .

__ الخدمات لا تُرفض عندما يكون البطن جائعًا، في النهاية الطعام هو من يُملئ الأوامر والجائع ينفذ.

تتبع البائع الكيس بعينه، وبدت رغبته واضحة رغم تظاهره باللامبالاة، استمر صفيدر في لعبته، يقذف الكيس ويلتقطه، قبل أن يتوقف فجأة وينظر إلى الرجل ويقول:

— لم تقل لي بعد هل ستأخذ الطعام، أم ستمسك بمبدل أنا وأنت أنه لا وجود له في كتابك؟

البائع ضحك بصوت خافت وهو يمد يده بسرعة، يلتقط الكيس قبل أن يسقط مرة أخرى في يد صفيدر، فتحه بنهم ورفع القماشة عن وجهه ليأكل كالمجنون، يزدرد الطعام كأنه لم يذوق شيئاً منذ أيام.

وبينما كان يعض بصوت مسموع، رفع رأسه وقال بين لقمة وأخرى:

— قل ماذا تريد؟

اقترب صفيدر قليلاً، خافضاً صوته حتى لا يسمعه أحد:

— أبحث عن طريق إلى داخل القبيلة سمعت أنك تعرف أكثر من مجرد البيع.

توقف البائع عن الأكل لوهلة ثم نظر إلى صفيدر بطرف عينه، وابتلع ما في فمه وقال بصوت خافت:

— الطرق إلى القبيلة ليست مجانية والكلام فيها قد يكلفني أكثر مما دفعت.

مسح شفثيه بكم قميصه، ثم أضاف بنبرة أكثر حدة:

— ولماذا تريد الدخول؟ فلا أحد يغامر بالاقتراب من سور قبيلة النار إلا إن كان يبحث عن المتاعب، أو كان لديه سبب أقوى من الخوف.

رمقه صفيدر بنظرة جامدة وقال:

__ أريد السجن.

قهقه الرجل بسخرية، وهو يعض طعامه دون أكثراث:

__ كان يجب أن أعرف ، شخص من قبيلة الماء لا يمكن أن يبحث إلا عن السجن،
حيث ابن سيده مسجون.

ضاق بعينه وسأله:

__ كيف عرفت؟

مسح الرجل فمه بطرف كفه الممزق وقال:

__ قد نكون منبذون من قبيلة النار التي تخلت، لكن لا يزال لي عيون هناك
تخبرني بكل شيء ولهذا أتيت إليّ أليس كذلك؟

(صفيدر)

- لن أنكر لو لم أجد فيك رجاء لما أتيت إليك، ولكن ماذا تعلم عن صمصام؟

ابتسم الرجل ثم قال:

__ أخباره ملأت القبيلة رغم أنه ابن عدوهم ولكنه قد أصبح عندهم رمزاً للشجاعة
أو التهور.

صفيدر وعيناه تلمعان بشوق:

__ ماذا فعل؟

تابع الرجل:

__ هزم نقييل ابن أخي الحوت الأحمر في المصارعة وليس هذا فقط، فبرغم جروحه وتعبه، هرب من السجن الذي لم يخرج منه أحد من قبل لقد فعل المستحيل.

اتسعت عينا صفيدر وقال بذهول:

__ تقول إنه هرب؟

(الرجل)

__ نعم هرب ولا تسألني عن هروبه فلا أعلم كيف فعلها، لقد صنع ما عجز عنه
المئات قبله فجميعهم انتهى بهم الأمر جثثاً في ذلك السجن.

ابتسم صفيدر مما سمعه ولكن قبل ان يُعبر عن فرحته، قاطعه الرجل بستهزاء قائلاً:

لا تفرح كثيراً فسيذك اشعل غضب جلمود و اطلق جنوده للبحث عنه في كل
مكان.

صمت صفيدر ثم استدار ليغادر.

ضحك الرجل بسخرية وتمتم وهو يعض ما بفمه:

رجال قبيلة الماء بل قبيلة الحمقى.

توقف صفيدر عن السير ثم التفت إليه ببطء وخطا نحوه بهدوء وفي لحظة، انطلق نصل سيفه بقوة مخترقاً صدر الرجل حتى خرج من الجهة الأخرى.

شهق الرجل بينما ارتعش جسده للحظات.

صفيدر سحب السيف ببطء ثم انحنى وأخذ كيس الطعام الذي لم يتبق فيه سوى فتات.

تأمله قليلاً ثم نظر إلى الجثة الملقاة أمامه وقال:

__عندما تذكر فرداً من قبيلة الماء بسوء تأكد أنه لم يسمعك.

حين استدار مرة أخرى للمغادرة، لمح طفلاً صغيراً يراقبه بعينين متسعيتين من الذعر. توقف للحظة، ثم انحنى وربت على رأسه، ومد له كيس الطعام تردد الطفل في البداية لكنه سرعان ما رفع القماشة الممزقة عن فمه وأخذ يأكل ما تبقى من الفتات، بينما ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه.

ألقي صفيدر عليه نظرة أخيرة ثم أكمل طريقه حتى خرج من الحي البائس، هناك كان عشر من الجنود ينتظرونه، يركبون على ظهور خيولهم بينما يشبهونه في المظهر عيونهم مكحلة ويرتدون جلود ذئاب سوداء.

تقدم أحدهم وسأله مباشرة:

__هل علمت كيف ندخل؟

ارتسمت على وجه صفيدر ابتسامة مكرة وقال بهدوء:

__ لا بل علمت ما هو أفضل.

تقوس حاجب الجندي بفضول:

__ وما هو؟

اجاب:

سيدنا صمصام هرب من السجن .

حلت السكينة قليلاً وفجأة انفجر الجميع في ضحكات عالية، وكأنهم يحتفلون بحدث عظيم، هنأ بعضهم بعضاً، يتبادلون النظرات بفخر، إلى أن قاطعهم صفيدر بصوت صارم:

__ فارس!

أجابه أحدهم فوراً:

__ نعم سيدي؟

(صفيدر)

__ أحضر الطائر سأسرسل رسالة للحوت الأزرق أخبره ما حدث.

تحرك فارس سريعاً، وعاد بعد لحظات حاملاً طائراً غريب الشكل، نصفه غراب ونصفه بُغْباء، يُعرف باسم البغار.

تناول صفيدر ورقة صغيرة، كتب عليها الرسالة ، ثم طواها بعناية وربطها في قدم الطائر. انحنى قليلاً وهمس في أذنه:

__ إلى قبيلة الماء.

أطلق الطائر في الهواء، فرفرف بجناحيه ودوى صوته في السماء وهو يحلق بعيداً:
__ غااا..

راقب الجنود الطائر وهو يختفي في الأفق، كسر صفيدر الصمت بصوت صارم:

- لمهمة لم تنتهى، يجب أن نجد صمصام قبل أن يعثر عليه جنود الحوت الأحمر ...

في حين كانت الرسالة في طريقها الى الحوت الازرق كان هو جالس على عرشه، يضغط بقبضته على مسند الكرسي بقوة، وعيناه تضيقان بتفكير عميق. في الخارج كان صدى الهتافات لا يزال يتردد في أرجاء القبيلة، آثار التمرد لم تنطفئ بعد، ولم يكن يثق أن النار التي أشعلها فيضون وسمعون قد انطفأت تماماً.

وقف جرميد بجواره، يراقب وجهه المتجهم قبل أن يقول:

__ مولاي لقد كانا يخططان لهذا الانقلاب منذ زمن، وأنت كنت تشك في ولائهما
فلماذا تبدو مصدومًا الآن؟

(مقرعون)

__ لست مصدومًا بهذين الخائنين بل صدمت لأن الناس اطاعوها واقتلبوا على
سيدهم، لقد خذلني شعبي يا جرميد.

(جرميد)

__ لكنك واجهتهم بشجاعة، وأجبرتهم على التراجع كلماتك كانت قاتلة .
ضحك مقرعون بمرارة ثم قال:

__ وهل تظن أن الانقلاب لن يعود؟ لا يا جرميد، الفساد حين يصيب العقول لا
يزول بسهولة. هم الآن كالتفاحة التي بدأ العفن ينخرها وإن لم نوقفه، فسينتشر حتى
يلتهمها بالكامل.

(جرميد)

__ وماذا سنفعل؟

(مقرعون)

__ ماذا يفعل المرء بالتفاحة الفاسدة قبل أن تنتشر العدوى فيها؟

أجاب جرميد دون تردد:

— يقطع الجزء الفاسد.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه مقرعون وهو يقول:

— بالضبط يبدو أنك بدأت تفهمني أخيرًا.

همس جرميد:

— تقصد

قاطعه بحزم:

— نعم لقد اختارا مصيرهما بنفسهما ولن أرفض طلبهما.

خرج مقرعون وخلفة جرميد حتى وقف في منتصف المنصة الخشبية التي تربط بين منازل القبيلة العائمة، بينما اجتمع الناس على أطراف الممرات الضيقة التي تفصل الأكواخ عن بعضها البعض، يتهامسون بخوف لكن عند رؤيته اخفوا صياحهم.

رفع مقرعون يده عاليًا، فعمّ الصمت ثم صاح بصوتٍ غاضب:

— لا أريد أن أسمع المزيد!

اهتزت المنصات الخشبية قليلًا تحت أقدام الواقفين، وتراجع البعض للخلف بحذر، لكن لم يجرؤ أحد على الكلام. استدار نحو جنوده وأمر بحزم:

__ابحثوا عن فيضون وزهرون أريدهما أُمامي الآن.

تحرك الجنود بسرعة فوق الجسور الخشبية المتأرجحة، قافزين بين المنصات التي تصل بين المنازل، بينما بقي مقرعون في مكانه، عاقداً ذراعيه، يراقب نظرات قومه الخائفة. لم يكن قلقه فقط من فيضون وزهرون، بل من الذين صدقوهما.

كان فيضون وزهرون داخل أحد الأكواخ الكبيرة، بينما يجلس فيضون على أرضية خشبية مبللة، يراقب الماء يتسرب من بين الفجوات الضيقة في الألواح، ثم قال بقلق:

__أخشى أن يكون الحوت الأزرق قد علم بما فعلنا.

ابتسم زهرون بثقة، وهو يضع يديه خلف رأسه متكئاً على الحائط الخشبي:

__ لا تخف لقد أخبرتني العرافة ندره أنه لن يعلم اننا وراء ذلك، وحتى لو علم، فقد أكدت لي أنني لن أموت الآن.

(فيضون)

__ لكن الأمور خرجت عن السيطرة، أنا لست مرتاحاً.

قطب زهرون حاجبيه وقال بنفاد صبر:

__ما الذي يقلقك؟ العرافة تنبأت لنا بالمجد والناس ينفذون خطتنا، ولدينا كل ما نحتاج فلماذا القلق؟

لكن قبل أن يكمل كلماته، اهتز الكوخ بعنف وتحطم الباب فجأة.

اندفع الجنود للداخل وأمسكوا بهما بقوة، وسحبوهما إلى الخارج حيث ألقى بهما وسط المنصة الكبيرة أمام الجميع.

وقف مقرعون أمامهما، بينما مئات العيون تحديق في المشهد من فوق الأكوخ والممرات.

(مقرعون)

__أنتما من أشعل الفتن ثم تختبئان وكأن شيئاً لم يكن؟!

رفع فيضون رأسه متظاهراً بالثقة:

__نحن لسنا من العامة حتى تعاملنا بهذه الطريقة ثم ماذا تقصد بكلامك؟

(مقرعون):

__لا تتلون مثل الحرباء أخبرني ماذا فعلت، أو سأجبرك على الحديث.

تدخل زهرون:

__ لم نفعل شيئاً نحن مستشاروك وهبنا أعمارنا لخدمة القبيلة، والآن تلقى علينا الاتهامات.

لم يرد مقرعون لكنه أشار برأسه فاقترب جرميد، وهو يسحب رجلاً من بين الحشد، ودفعه للأمام:

__ هذا الرجل لديه ما يقوله.

نظر مقرعون للرجل وقال ببرود:

__ تحدث.

ارتجف الرجل قليلاً لكنه قال بصوت واضح:

__ كنت من الذين شاركوا في الفتنة البارحة، وكان ذلك بأمر من زهرون وفيضون، ليس هذا فقط لقد قتل زهرون رجلاً دون ذنب. لقد كان خادمك سميح، قتله لأنه رفض الخيانة وقال أنا لا أخون قبيلتي ولا حوتي.

عادت العيون المذعورة إلى مقرعون، الذي لم يتحرك للحظة، قبل أن ينطق أخيراً:
__ إذن لقد حكمتكم على أنفسكم بالموت.

ارتعب فيضون ثم التفت إلى زهرون، صوته بالكاد يخرج من حلقه الجاف:

__ هل ما زلت تصدق العرافة؟

زهرون عيناه كانتا متسعيتين و وجهه الشاحب يلمع بعرق الخوف. تتم لي اخيه من بين أسنانه وهو يحدق في مقرعون:

__ اصمت أيها الأحق لن نموت انا واثق مما قالته ندره.

لكن صوته خانه فلم يكن يقنع فيضون، بل يحاول أن يقنع نفسه.

(مقرعون)

__ ختم الحاكم وبهذا ختم القبيلة، ومن خان الماء فالماء أولى به.

قال فيضون وقلبه يخفق بجنون:

- م..... ماذا تقصد؟

لم يجبه مقرعون بل أشار بيده فتقدم بعض الجنود فوراً، وكبوا أقدام فيضون وزهرون وربطوا أحجاراً ثقيلة حول بطونهما، وجذبوا الكمادات القماشية عن وجوههما، ليواجهوا الهواء الملوث.

نظر مقرعون إلى وجه فيضون الذي صار أشبه بوجه ميت قبل أن يموت، ثم قال بصوت خالٍ من أي شفقة:

__ من خان الماء، فالماء هو أول أن تحاسبه.

ثم دون أن يمنحه لحظة أخرى ليستوعب، رفع مقرعون قدمه ودفعه بقوة.

سقط فيضون في الماء وهو يصرخ لكنه سرعان ما اختفى تحت السطح بينما
صعدت فقاعات وهو يحاول الصراخ تحت الماء، جسده يقاوم الغرق لكنه لم يكن
يملك أي فرصة.

أما زهرون فقد انهار فجأة، كل ثقته اختفت، كأن العرافة التي وثق بها لم تكن سوى
وهم هش تحطم أمام الواقع.

جثا على ركبتيه عيونه مليئة بالدموع، وهو يتوسل بصوت مرتعش:

- أرجوك... لا... ليس أخي.

لم يكن يتوسل من أجل نفسه بل من أجل فيضون، لكن الأوان قد فات فالماء لا
يعيد من خانه.

تأمل فيه مقرعون ثم ركله هو الآخر.

سقط زهرون في الماء بنفس المصير، صرخ، حاول المقاومة، لكن الحجر الثقيل
حول خصره جذبه بسرعة حتى تلاشى صوته.

انتظر دقائق حتى تأكد أن الماء أدى مهمته، ثم أشار للجنود:

_اسحبوا الحبال.

جَرَّ الجنود الجبال ومعها خرجت الجثتان وجوهها متيبسة، أفواهها مفتوحة
أجسادها ملطخة بلزوجة الماء الفاسد، وعيونهما الزجاجية تحرق في الاشياء.

التفت مقرعون إلى الجموع التي تتابع المشهد ثم قال بصوت سمعه الجميع:
__علقوها في وسط القبيلة.

ثم أضاف بنبرة أشد قسوة:

__ ليكونا عبرة لكل خائن تُسَوَّل له نفسه أن يتحداني وليكن نتن جثتيها علامة لا
تُمحى.

انتشر الهمس بين الناس، والخوف تسلل إلى قلوب أكثر من ذي قبل فالجميع قد
فهموا الرسالة جيدًا.

تلاشت أصوات التمرد، وركدت روح الثورة تحت ظلال الخوف عاد الجميع إلى
منازلهم يدركون أن الفدية ستُدفع لجلمود لا محالة، وهي لن تكون إلا من طعامهم
ومخزونهم.

كانوا لا يعلمون انها خدعة وضعها مقرعون لوهم الحوت الاحمر انه سينفذ مطالبة
ولكن ما اجمل الخدع حين تظهر من معك ومن ضدك.

توجه مقرعون بخطوات مُلكعه إلى منزله، وجهه لا يزال يحمل أثر الغضب.

بمجرد أن عبر العتبة، أزال الكمامة التي كانت تغطي نصف وجهه، ثم مال فوق وعاء فخاري يتصاعد منه البخار وأخذ نفسًا عميقًا، كأنه يحاول استنشاق أي شيء آخر غير رائحة الموت.

شعر بيدين ناعمتين تلامسان كتفيه، كانت زوجته نوهارا أزاحت عنه فرو الحيوان الذي كان يغطي كتفيه، ثم همست له بلطف:
_لقد تغيرت كثيرًا.

لم يجبها على الفور، توجه إلى كرسي خشبي قريب وجلس عليه بثقل ثم مد يده وسحبها ناحيته، جعلها تقف بين ساقيه:

_لم اتغير ولن أكون هكذا لكن هناك استثناء لكل شيء.
تراجعت نوهارا قليلًا:

_لم أكن أريد لهذا أن يحدث.

امسكها ثم مرر أصابعه على راحة يدها بحنان:

_وأنا كذلك لكن هل تترك ابننا يموت؟

نظرت إليه ثم بحركة خفيفة، أمسكت يده وقبلتها:

_أنا أشكرك.

ووقف ببطء ثم رفعها من كتفها كأنها قطعة ثمينة يخشى أن تنخدش، احتضنها بقوة، مر زمن وهو لم يكن يقول شيئاً وبينما هي بين ذراعيه، اقترب من أذنها:

__ أنتِ وصمصام كل حياتي ولا أتصور أن أفقدكما.

دق الباب فجأة لكنه لم يتحرك على الفور فقط ابتعد عنها ببطء ثم نظر نحو الباب:
__ ادخل.

فتح الحارس الباب ويده طائر البغار.

__ سيدي أتتك رسالة.

تقدم مقرعون وأخذ الرسالة، فك العقدة سريعاً وبدأ يقرأ عيونه اتسعت يبط ثم دون سابق إنذار انهمرت دموعه.

كان الأمر غير متوقع على الإطلاق، فلم يره أحد يبكي من قبل، أدار وجهه نحو زوجته، ثم تدانى منها وكأنه طفل ضائع عاد أخيراً إلى منزله، احتضنها بقوة ولف بها أمام الحارس الذي وقف مذهولاً.

خفض الحارس عينيه بخجل، لكنه لم يستطع كبت ابتسامة صغيرة ظهرت على شفثيه ثم خطى خطوة للخلف ليستعد للمغادرة.

لكن قبل أن يخرج، سمع نوحاراً وهي تسأل بصوت ممتزج بين القلق والفضول:

__ماذا بك.

(مقرعون)

__صمصام قد هرب.

سكنت نوهارا كأن عقلها رفض استيعاب الجملة ثم لم تمكث أكثر حتى خرجت دموعها واختلطت بضحكاتها تعبيراً عن سعادتها.

التفت مقرعون ونادى على الحارس.

__تعال إلى هنا.

مشي الحارس بخطوات سريعة انحنى قليلاً احتراماً له، لكن قبل أن ينطق بكلمة كان مقرعون قد خط بالقلم عدة كلمات على ورقة صغيرة، ثم طواها بحركة سريعة وأعطاهما للحارس.

__خذ هذه إلى المخبراني، وقل له أن يعلنها على الشعب فوراً.

انحنى ثانية ثم أخذ الورقة و خرج راكضاً لينفذ الأوامر.

بعد نصف ساعة في أرجاء تلك القبيلة ، ارتفع صوت طبله المخبراني الرجل المسؤول عن نقل أخبار الحاكم، كان يطوف بين الممرات يضرب على طبله بإيقاع ثابت، ثم يرفع صوته القوي الذي اعتاد الجميع سماعه عند كل إعلان مهم:

__ اسمعوا يا أهل القبيلة اسمعوا وعوا.

توقف الجميع الرجال النساء، حتى الأطفال كلهم تجمهروا على أطراف المنازل يطلون من النوافذ يخرجون إلى الممرات، بينما استمر الخبراني في السير و يكرر كلماته بصوت جهوري:

__ سيدنا الحوت مقرعون لن يدفع الدية!

ارتفعت الهمسات المتوجسة بين الناس بعضهم حلق في بعض بدهشة، والبعض الآخر بدأ يشعر بالقلق.

لكن قبل أن تبدأ الأسئلة تابع الخبراني بحماس:

__ لقد كان حُنا وقع العدو في الحية لا تخافوا على طعامكم ما نقضناه بل سنزيدهم.

ما إن نطق بهذه الجملة، حتى انفجرت القبيلة بالفرح.

النساء أطلقن الزغاريد أصواتهم ملئت المكان كأنهن يعلنن يوم عيد، الرجال رفعوا أيديهم نحو السماء وهللوا، حتى الأطفال قفزوا في أماكنهم بحماس لا يوصف.

كان المشهد أشبه باحتفال لم يكن متوقعا، وكأن الناس قد تحرروا من كابوس جثم على صدورهم.

أما المخبراني فلم يتوقف واصل الطواف في جميع أرجاء القبيلة، يعيد النداء مرة بعد مرة يريد أن يتأكد أن كل شخص في القبيلة قد سمع الخبر.

((الفصل التاسع: قرية الشجرة))

صمصام كان يتابع السير، يشتعل في داخله لهيب الحب عازمًا على الوصول إلى سمراء مهما كلفه الأمر، اما هي فقد سبقته بالفعل ووصلت إلى نيمورا....

لكن ما هي غابة نيمورا ومن يسكنها؟

لم تُولد نيمورا كغيرها من الأراضي بل ظهرت بعد سقوط النيازك من السماء. فلم يكن تأثير النيازك قاصرًا على إحياء الأموات أو تغيير جينات الكائنات فقط ، بل امتد إلى تربة وجذور ارض غابة قد احترقت قديمًا، حيث تسلفت تلك المادة الغريبة وأنبتت أشجارًا لم تكن معروفة من قبل. وفي ليلة واحدة استعادت الغابة المحترقة حياتها لكن بشكل جديد. الأشجار التي ماتت استقامت وكأنها استيقظت من سبات طويل، أوراقها أصبحت خضراء و تداخلت مع بعضها كأذرع تعانق نفسها.

حينها وجدها بعض الناجين ملاذًا خاصًا بهم. فلم يبنوا بيوتهم على سطح الأرض، بل احتوتهم الغابة بأحضانها، فصنعوا من أغصانها المتشابكة بيوتًا، ومدّوا بينها

جسورًا وممرات مضفرة. لم يكونوا هم من استقروا في الغابة، بل كانت هي التي ضمتهم إليها كما يسحب البحر الغريق، ومن هنا سميت نيمورا قرية الشجرة. توقفت العربة التي كانت تقل سمراء ببطء، ودخلت في ظل الأشجار العملاقة، نزلت من العربة، ففاصت قدماها في الطين الرخو ثم رفعت يدها ببطء ونزعت قناع الاستنشاق بعدها ألقت نظرة جانبية على الجنود الذين يحيطون بها: _عودوا من حيث أتيتم.

تردد أحد الجنود ممطيا صهوة فرسه قبل أن يقول بتوجس:

_مولاتي أمرنا الحوت ألا تترك لحظة واحدة.

(سمراء)

_ضع قناعك ولا تتحدث معي مجدداً... مهمتك انتهت عند هذا الحد.

_ لا يا مولاتي لم تنتهي نحن لن نتركك.

(سمراء)

_ابق هنا إن شئت أو عد إلى قبيلة النار ثم عد بعد سبعة أيام.

لم يبد مقتنعا تماما لكنه لم يجادل شدّ لجام فرسه ببطء ثم قال:

__سننتظر هنا.

لم تجبه فقط استدارت وتابعت بخطوات مهكمه حتى وجدت أمامها شجرة نيمورا جذعها العريض يضيء بخطوط سوداء تحمل وهجًا خافضًا .

لم يكن هناك سلم منفصل يوصلها الى الأعلى بل كانت هناك درجات منحوتة في جذع الشجرة نفسها تلتف حولها كحلزون صاعد نحو الأعلى، كأن الشجرة نمت بهذا الشكل ولم ينحته احد من البشر.

مدّت سمراء يدها ولمست الخشب الأملس، شعرت بحرارة خفيفة تحت أناملها كأنها تلامس كائناً حياً. أخذت شهيقاً طويلاً تبعه زفير ثم بدأت الصعود فوق الدرجات كلما ارتفعت ازدادت العتمة من حولها، الأغصان الكثيفة كانت متشابكة و حجبت السماء إلا من شعاع ضوء متسلل هنا وهناك.

عند نهاية السلم، وجدت نفسها أمام باب خشبي يندمج مع الجذع، يكاد يكون غير مرئي او هو بالفعل غير مرئي إلا لمن يعرف بوجوده. وضعت راحة يدها عليه فاهتز قليلاً قبل أن ينفث ببطء كاشفاً عن القرية المخفية.

عند المدخل، وقف رجلان يلفان أجسادهما بأوراق الأشجار وفي أيديهما رماح خشبية. كان أحدهما يُدعى بكر، والآخر بكير.

(بكير بحزم)

__ من أنت ؟

(سمراء بثقة)

__ أنا.. انا سمراء ابنة جلمود الحوت الأحمر وقد أخذت موعدًا لمقابلة جدتي.

نظر بكير إلى بكر وقال:

__تحقق من الأسماء في دفتر القادمين.

جلس بكر على جذع قريب وسحب دفترًا جلدي الغلاف، وأخذ يتصفح صفحاته
ببطء يقلبها ويتمتم بصوت خافت:

- سمراء...سمراء...سمراء... ها هو! الاسم الثالث والعشرون، سمراء جلمود عشنار.

ضحك بكر ساخرًا وقال:

__ اسم لا يليق حتى بالدجاج.

قطبت سمراء حاجبيها، ونظرت إليه باستياء قاتلة:

__ ماذا تقصد ؟

أسرع بكير ليصلح الموقف، وغمز لأخيه قائلاً:

__اعذريه يا مولاتي إنه أحمق لا يعلم مايقوله.

ثم تحرك وضرب بكر برفقه وهو يتم بصوت منخفض:

— اصمت أيها الأحقق إنها ابنة الحوت والدعوة قُبلت من العمدة نفسه.

رفع صوته:

— تفضلي يا مولاتي مرحباً بك في قرية الشجرة.

تأملت سمراء وهي تسير المنازل المعلقة بين الأشجار المتصلة بجسور خشبية تمتد في الهواء. والأسقف المغطاة بأوراق ضخمة، والجدران المصنوعة من الخشب الداكن بينما تضيء بعض النوافذ بنور أزرق خافت.

في كل مكان، انتشرت ورود صفراء فاقع لونها، تسلفت تلك الورود الجذوع والممرات كانت تقفل وتفتح بهدوء تمتص الهواء الملوث وتنقيه. لم يكن أحد هنا يرتدي أقنعة استنشاق، فالمكان نقي كما لم تره سمراء من قبل.

تابعت تقدمها تراقب السكان وهم يتحركون برشاقة، يحملون سلال من الثمار البنفسجية التي لا تعلم ماهيتها، بينما البعض منهم يعملون على شدّ الحبال التي تربط البيوت ببعضها.

توقفت أمام منزل مرتفع قليلاً عن البقية نوافذه تطل على الغابة وأمامه منصة صغيرة مزينة بتلك الازهار.

طرقت الباب وانتظرت لكن لم يأت رد فدفعته ببطء ودلفت الى الداخل.

نادت بصوت خافت:

جدتي أين أنتِ.... ايها السيدة العجوز صاحبة العين الحولاء؟

لم تكمل جملتها حتى شعرت بذراعين دافئتين تطوّقانهما من الخلف، التفتت بصدمة، فتفاجأت بها، كانت الجدة زهيرة واقفة، تحمل سلة من الفاكهة الطازجة، زهيرة امرأة في الثمانين، أناملها متشققة من الزمن، ووجهها مغطى بخيوط التجاعيد تتوكل على عصا من الحديد، طويلة ونخيلة كأنها امتداد لهيبتها، ترتدي عباءة من الكتان الثقيل، بلون الرماد الداكن، تتدلى منها حبال صغيرة معقودة عند الكتفين، عيناها بلون الشمس قبيل الغروب، يلمع فيهما الحنان.

نظرت إلى حفيدتها وابتسمت تلك الابتسامة المائلة التي لا تُعرف إن كانت سخرية أم شوق، وقالت بصوت دافئ:

— من هي تلك العجوز الحولاء يا مشاكسة؟

ضحكت سمراء بخجل وفركت يدها بشعرها محاولة تدارك الموقف:

— لا تخطئي فهمي يا جدتي.

(زهيرة)

— بل أفهمك جيداً يا شقية... ضحكت بخفة حينها لم تستطع سمراء أن تقاوم، فاندفعت نحو جدتها وقبلتها على خدها قائلة:

_اشتقت لكِ جدتي، واشتقت الى حديثك حتى راحتك اشتقت الى شمها.

(زهيرة)

_وأنا اشتقت لكِ أكثر يا صغيرتي... اخبريني ماذا تفعلين هذا الايام؟؟

(سمراء)

_ابحث عنكِ.

(زهيرة)

_هل انا ضائعة!!

(سمراء)

_لا ولكن انا الضائعة.

ثم تابعت لماذا لا ترضين وتأتين لتسكن معنا؟ أبي لم يعد يتحمل غيابك كل يوم
يذكر اسمك ويتمنى لو تعودين.

زفرت زهيرة زفرة طويلة لتثبت نفسها وقالت:

_اترك هذا البيت!! هذا المكان؟

جلست على كرسي خشبي قريب وهي تحملق في الفراغ تستعيد شريط الذكريات:

__أذكرين جدك عشنار حين كان في الستين من عمره قال لي زهيرة ألا تشبعين من هذا المكان؟ أجبتة وكيف أشبع منه وهو بيتنا فقال لي لم أعد أحتمل قبيلة النار والحكم وكل ما فيها...أريد أن أعيش حياة هادئة. تلاًلأت عيناها بالدموع ثم أردفت بابتسامة حزينة:

__ حينها أخبرني أنه طلب من صديقه عمدة نيمورا بناء منزل لنا بعيداً عن كل شيء قلت له وتترك هذا المكان؟ فأجابني لم لا؟ لقد انتهى عمرنا وأريد أن أعيش بقية أيامي وأنا أستمع بعينين الريم هذه، وبالمناسبة يا سمرا عيني التي تسخرين منها الآن، جدك كان يقول لي انها سبباً في تركه كل شيء والفراغ لها؟

عشنا أجمل أيامنا في هذا المكان، لقد ترك كل شيء من أجلي ولمدة عشرين عاماً عشنا هنا، كأن العالم كله اختفى من حولنا، حتى بعد أن مات لم يتركني اشعر انه بجانبني، ومنذ ذلك الحين وبعد مضي عشر سنوات على موته وأنا لا أستطيع أن أترك هذا البيت، أشعر وكأنه لا يزال معي يملأ المكان بروحه.

نظرت زهيرة إلى سمراء ثم اكملت:

__ هل تفهمين الآن؟ هذا البيت ليس مجرد جدران، إنه حياتي، ذكرياتي، وحيي الوحيد.

(سمراء)

— كم أتمنى أن أعيش مع من يطمئن قلبي إليه، من أختاره أنا لا من يفرض علي.

ابتسمت زهيرة برقة، وضمت يدي حفيدتها بين يديها المجدتين :

— لا تقلقي صغيرتي ستزوجين ممن تحبين أرى في عينيك شرارة الحب حتى لو حاولت إنكارها، فالحب لا يستطيع أن يختبئ يا سمراء، فهو يظهر في الأعين قبل الكلمات.

لكن سمراء أزاحت يديها بحركة يائسة:

— كيف يمكنني أن أحب وهناك دائماً من يقف في طريقي؟ كأن العالم كله قرر أن يمنعني من السعادة، وكأن الحب لعنةٌ كُتبت علي.

تأملت زهيرة حفيدتها، قبل أن تستطرد سمراء بصوت مكسور:

— الحب لا يمنحنا إلا خيبات إما أن يلتقي بنا في حضن من لا يحبنا فنشعر أننا غريبون في قلوبهم. أو أن يسلب قلوبنا ليغرقها في بحر من الانتظار، دون أن يجيب ندائنا وإن شاءت الأقدار أن تجمعنا بمن نحب، أبت الحياة إلا أن تُفَرِّقَ بيننا بدروبٍ لا تنتهي، كأن الحب درسٌ دائمٌ في الخسارة لا ملاذاً نحتمي به.

نهضت زهيرة دون أن تقل شيئاً ثم مشت الى المطبخ الصغير وعادت بعد قليل وهي تحمل صينية عليها كوبان من الشاي الساخن وطبق صغير من تلك الفواكه .

وضعت الصينية على الطاولة وجلست بجانب سمراء:

— اشربي الشاي يا صغيرتي لابد ان السفر قد أتعبك.

حدقت في جدتها وابتسامة صغيرة مرتسمة على شفتيها ثم أخذت كوب الشاي بين يديها ودفنت شفتيها في البخار المتصاعد.

بعد قليل استسلمت للنوم وغرقت في سبات عميق، كأنها أخيراً وجدت لحظة راحة وسط كل ما مرت به، وقفت زهيرة للحظة تتأملها، يدها مترددة عند كتفها، لكنها لم تجرؤ على إيقاظها فقد كان التعب واضحاً على ملامحها، لذلك تهتدت بصمت ثم استدارت بخفة، ودخلت الغرفة ثم عادت بغطاء ناعم غطتها به بلطف قبل أن تبتعد.

التقطت جرة فخارية ثم خرجت باتجاه مصدر الماء في القرية.. كانت الشجرة نفسها هي التي تمنحهم المياه، جذورها الضخمة امتدت عميقاً في باطن الأرض، تسحب الماء النقي من الطبقات الجوفية، ثم تدفعه عبر قنوات طبيعية داخل الجذع، حتى يصل إلى بركة في أعلى القرية، يسمونها دموع الكون، حيث يتجمع الماء الصافي بارداً ونقياً.

غمست يديها في الماء، وشعرت ببرودته تلامس جلدھا قبل أن تملأ الجرة حتى حافتها. رفعتها برشاقة، وضعتها على رأسها بثبات، ثم سارت بخطوات خفيفة وهي تستند على عصاها. تلك الحركات الخفيفة لا تشبه عجزاً تجاوزت الثمانين، بل صبية في الثلاثين .

عادت إلى المنزل وفتحت الباب فوجدت سمراء مستيقظة عيناها تبحثان عنها بقلق.

__ أين كنتِ ؟ لقد قلقت عندما لم أجدك ، قالتها سمراء بصوتٍ ما زال مثقلًا بالنعاس.

ابتسمت زهيرة قليلاً ثم وضعت الجرة جانباً:

__ كنت أملأ الماء فقط ولم أشأ أن أوقفك.

(سمراء بتردد)

__ أريد أن أخبرك شيئاً.

(زهيرة باهتمام)

__ وما هو ؟

(سمراء)

__ والدي يريدني أن أتزوج نقيلاً.

الجددة لم تُظهر الدهشة:

__ وما رأيك في حفيدي ؟

(سمراء)

__ لا أحبه و قلبي لا يريدّه.

رفعت زهيرة حاجبها قليلاً.

__ لا تحبينه أم تحبين غيره؟

ترددت الكلمات على شفتي سمراء قبل أن تهمس:

__ نعم أحب.

زاد الفضول في عيني زهيرة، لكنها سألت بهدوء:

__ ومن يكون؟

(سمراء)

__ صمصام.

تغير وجه زهيرة للحظة وظهر أثر الصدمة في ملامحها كررت الاسم كأنها لا تصدق:

__ صمصام!!!! أهو من قبيلة النار؟

هزّت رأسها نقيًا:

__ لا إنه من قبيلة الماء.

(زهيرة بشك)

— ابن من هو؟؟

(سمراء)

ابن الحوت الأزرق.

نهضت فجأة وكأن كلمات حفيدتها كانت صاعقة ضربتها في الصميم.

— كيف؟؟؟ بين ابني والحوت الأزرق عداوة ممتدة منذ أجيال... أنتِ تطلين المستحيل يا سمراء.

(سمراء)

— أي مستحيل؟ أنا أحبه وهو يحبني فلماذا يجب أن يكون مستحيلاً؟

(زهيرة)

— هذا الحب لا يمكن أن يكتمل ثم إن نفيك يحبك وهو أولى بك.

اقتربت ثم وضعت يدها على رأس حفيدتها:

— تزوجي من يحبك وليس من تحبين حينها ستعيشين في سعادة.

(سمراء)

—وأي سعادة يا جدتي ؟ لماذا لا أتزوج كما تزوجتِ أنتِ ؟

صمتت زهيرة للحظة كأنها تعيد النظر في كل شيء:

—جلمود أرسل لي رسالة مع الحراس الذين أحضروك، يطلب مني إقناعك بالزواج من نفيل. لكنه لا يعلم أنكِ أعلى عندي من أي شيء، وطالما أنكِ لا تريدينه لن أجبركِ عليه.

لم تستطع سمراء تمالك نفسها، انفجرت بالبكاء ثم ارتمت في حضنها:

—أشكرك... أشكرك كثيراً !

رَبَّتْ زهيرة على ظهرها:

— احكي لي كيف تعرفتِ على صمصام ؟

مسحت سمراء دموعها، وابتسمت رغم بقايا الحزن في عينيها:

— تعرفتُ علي في اليوم الوحيد، الذي اجتمعت فيه القبائل للصلح الذي لم ينجح، كان ذلك منذ ست سنوات ومنذ ذلك الوقت ونحن نلتقي سرًا، كان يأتي إلى قبيلة النار مرة كل سبعة أشهر في يوم زيادة الشفق.

(زهيرة)

—وهل هو وسيم؟؟

تأملت كأنها تستعيد أول لحظة رآته فيها قبل أن تجيب بصوت يحمل شغف
العشق:

__كثيراً لدرجة أنني عندما رأيته لأول مرة، أردت أن أغض عيني حتى لا أرى
غيره.

(زهيرة)

__أنت تشبهيني في شبابي.

(سمراء)

__كيف؟

أجابت زهيرة :

__نحمل نفس القلب...لكن سرعان ما عاد الجدّ إلى صوته:

__لكن ماذا ستفعلين عندما يأتي والدك ليأخذك؟ هو مصمم على زواجك من
نقيل، ولن يتراجع أعرفه جيداً.

(سمراء)

__سيأتي صمصام قريباً قبل أن يصل والدي، وستكون معه الأجابة.

((الفصل العاشر: قبيلة الظلال))

فلندخل الى القبيلة الثالثة، التي استوطنت الصحراء السوداء قبيلة الظلال...يحوطها سور عريض شاهق الارتفاع، يمتد بلا نهاية كأنه حاجز بين عالمين. أسس ذلك الجدار من حجارة سوداء نُحِتَتْ بدقة شديدة متراصة كأنها قطعة واحدة لا يظهر بين ثناياها فاصل، يعتلى هذا السور كثير من الأعلام التي ترفرف حاملةً شعار قبيلة الظلال، وهي رسمة لنجمه لامعه وسط فرش متسع من السواد، تُذكر من يراها بالنبته الخضراء التي خرجت من صحراء جرداء فسرت الناظرين بلونها المخالف لعتمة الاصفرار، فهم يرون انفسهم أنهم بمثابة تلك النبتة في تلك الصحراء السوداء التي يعيشون فيها.

امام البوابة من الداخل يقف حراس ملثمون، أجسادهم مغطاة بفراء داكنة تحميهم من برد الصحراء القاسي. وعلى أفواههم وضعوا كمادات جلدية رقيقة مخيطة بدقة، مبطنة بطبقات من الصوف تحجب الغبار وتحفظ الدفء كما انها تساعدهم على التنفس دون اختناق.

في داخل الجدران الحياة لا تهدأ.

الأسواق مزدحمة التجار يسامون بصوت عالٍ، الرجال يدفعون عربات محملة بالبضائع، لكن الطعام هنا لم يكن وفيرًا. كانت الأخشاب، الجلود، وأسنان الحيوانات هي ما يسمى عندهم بالبضائع التي تُعرض على الطاولات .

والثمن الذي يتبادلون به هو الطعام والماء، فهذين الشيئين هما العملة السائدة في تلك القبيلة كما هو حال باقي القبائل.

اما البيوت فقد بنيت من الحجارة والرمال ، والابواب بعضها صنع من الاخشاب والبعض الاخر من العصي كل باب من هذه الأبواب نقش عليه حرف من اسم المالك، نعم لم تكن القبيلة تغوص في الثراء، فالفقر كان حاضراً في كل زاوية لكن النظام الذي سادها جعل كل شيء يعمل بانضباط.

وفي هذا اليوم عندما كانت الاجواء تسير كعادتها كالنمل الذي لا يمل من ادخار طعامه لشتاء، فهو يفعل ما يفعله كل يوم دون ملل هكذا كانت تسير القبيلة من التكرار والمواظبة، حتى ظهر الحوت الأسود عدنان، حاكم قبيلة الظلال، كان يركب فرسه على رأس موكب من الجنود الأشداء. ثم هتف بصوت جهوري زلزل الاذان:

- افتحوا البوابة.

فُتحت البوابة الضخمة ببطء من الداخل، ودلف الحراس وهم يجرون عربات عظيمة الحجم يسحبها الخيول، بعضها خيولاً عادية والبعض الاخر خيول متغيرة الجينات، حوافرها سوداء وعيونها بيضاء خالية من ن العين، ققْصُها الصدرى بارز الى الاعلى، يصل الى مقربه من ذقنها، ولكل فرس مجموعة من الزيول النحيفه بلون الجلد تصل الى ثمان ذيول. تحمل العربات وحوشاً مأسورة. كان

أحدها وحش «ثرنين» الأسطوري الذي يجمع بين قوة الثور وجسارة التنين، بينما حملت العربية الأخرى وحش «الكجراط» الضخم. اصطف سكان القبيلة مرحبين بوصول الحوت وهتفوا بصوت واحد:

- يعيش الحوت عدنان..... يعيش الحوت عدنان!

اخترق صوته الجهوري الهواء من خلف كمامته:

— اخوتي اليوم لن نخشى الجوع فلقد اصطدنا وحش ثرنين، والكجراط ولدينا الآن طعام يكفيننا لثلاثة أشهر .

تعالّت الهتافات فيما كان الحراس ينقلون الغنائم إلى المخازن. داخل هذا المشهد الاحتفالي، كانت أعين عدنان تراقب كل شيء، لكنه لم يكن حاضرًا بالكامل فهناك شعورٌ غامض يثقل صدره إحساس لم يتمكن من تفسيره بعد.

عند وصوله إلى منزله وجد ابنه عنبل واقفًا أمام الباب، ذراعه متشابكتان فوق صدره الصغير، وعيناه تضيقتان بجدّة طفولية:

— لماذا لم تأخذني معك؟

لم يتمالك عدنان ضحكته، ثم انحنى والتقط الصغير بين ذراعيه رافعًا إياه إلى كتفه:

— لأنك ما زلت صغيرًا !

اعترض عنبل بشراسة طفولية:

__ أنا كبير بالفعل سأتم تسع سنوات بعد أسبوع واحد انا رجلاً الآن، ثم أين هديتي؟

قهقهه عدنان بصوت عالٍ، وراح عنبل من على كتفه و من جيبه اخرج ظفراً حاداً لوحش الكجراط، وناولوه للصغير:

__ إذن أيها الرجل هذه هديتي لك ظفر الكجراط.

اتسعت عينا عنبل باندھاش، ولم ينتظر أكثر من لحظة قبل أن يركض داخل المنزل يصرخ بحماس:

__ أمي حصلت على ظفر الكجراط.....حصلت على ظفر الكجراط.

خرجت فيروز من الداخل، بشرتها البنية تتوهج بلون القهوة في ضوء الغرفة، وعيناها السوداء وان واسعتان كأنهما بركتان من نهرٍ لـج صفائه

وقفت قليلاً، تزيح خصلة من شعرها خلف أذنها، ثم نظرت إلى عدنان بنصف ابتسامة وقالت مازحة:

__ إذن... تذكرت ابنك وتغافلت عني؟

أمسك عدنان يدها برفق، ثم حملق في عينيها يتأملها بضع من اللحظات ثم قال بصوتٍ خفيض:

__هل أنسى أن أتنفس؟ لكي أنساكِ؟

اشار لها بأصبعه الذي لامس جنفها ان تغمض عينيها.

لم تردد ووضعت كفيها حول وجهها وهي تبتسم بفضول.

مد يده إلى جيبه وأخرج بأطراف أنامله ياقوتة صغيرة تبرق كدمعة حمراء متجمدة ثم همس لها:

__انضري الآن..

وضعها في راحة يدها نظرت إليها فيروز ثم رفعت عيناها إليه بابتسامة ناعمة:

__جميلة جداً ..

لكنها سرعان ما تحولت ملامحها إلى ملامح قلقة وهي تقول:

__ سامر خرج مجدداً مع أصدقائه، انا لم أعد أستطيع السيطرة على هذا الولد.

هل تعلم انه خلال هذا الشهر خرج خارج السور أربع مرات، عليك أن تجد حلاً قبل أن يتعرض للأذى.

قبل أن يتمكن عدنان من الرد، سمع طرقًا على الباب. فتحة ليجد بهفور أحد رجاله الموثوقين يحمل في يده لفافة مختومة.

—سيدي وصلت رسالة من الحوت الأزرق عبر أحد طيور البغار.

مد عدنان يده وأخذ الرسالة ثم فكّ الحتم وبدأ يقرأ الكلمات القليلة التي خطها الحوت الأزرق بنفسه:

—أخي أحتاج إليك.

ضاقت عيناه وهو يعيد قراءة الكلمات مرة بعد مرة وكأنه لا يصدق المكتوب، كانت ثلاث كلمات، لكنها تحمل ثقل ثلاث صفحات، فلم يسبق للحوت الأزرق أن خاطبه بأخي في رسالة من قبل، كان دائمًا رسميًا مباشرًا يحاول أن يحجب العلاقة بينهما لكن الآن؟ الآن هو يطلب المساعدة بطريقة لم يعتد عليها عدنان.

أشار إلى بهفور بالمغادرة ثم ظل واقفًا في مكانه شاردًا في تلك الرسالة وعينيه لا تتحركان من فوق تلك الورقة، حتى قاطعته فيروز:

—أرى وجهك شاحبًا ماذا قال بهفور؟ وما الذي تحمله تلك الرسالة؟

نظر إليها عدنان، وكأنه لم يسمعها للوهلة الأولى، ثم قال بصوتٍ لم تعلم فيروز أهو صوت خوف أم قلق:

—أخي بحاجة إلي.

(فيروز)

— وماذا ستفعل ؟

(عدنان)

— ما يجب فعله.

فيروز لم تبدُ مقتنعة وقبل ان تعترض، فُتِح الباب بعنف، واقتحم سامر المنزل بوجهه متسخ وملابس تحمل آثار الرمال، التقى نظره بنظر عدنان فابتسم وقال:

— متى رجعت يا أبي.

لم يتحرك عدنان من مكانه، وقال:

— أين كنت ؟

تردد سامر للحظة، كأن عقله يبحث عن إجابة تخفف من وقع غضب والده لكنه قال في النهاية:

— كنت مع أصدقائي.

(عدنان)

— وأين كنتم ؟

(سامر)

— خارج السور كنا نصطاد الطيور.

لم تمض سوى لحظة قبل أن يرفع عدنان يده، ويلطم سامر صفعه قوية ارتدّ على إثرها للخلف. تجمدت فيروز من الصدمة أما سامر فقد شعر بلهب الصفعة يشعل خده، حرق في والده بذهول قبل أن ينزع كمامته بعنف ثم رفع رأسه لتظهر الدموع وهي تترقق في عينيه الغاضبتين:

— لم تضربني من قبل يا ابي.

(عدنان)

— هذا الكف لا تنساه ما حييت، فهو كتذكّار لك لأنك لم تتحمل المسؤولية التي منحتك إياها، لقد خيبت ظني.

قبض سامر يديه يقاتل إحساسًا متناقضًا بين الغضب والحنين:

— أردت فقط أن أكون مثلك! لا أريد أن يُقدّم لي الطعام على طبق من ذهب أريد أن أتحمّل المسؤولية.

نظر إليه عدنان طويلًا، ثم أزال كمامته هو الآخر وببطء قال :

— وهل تظن أن المسؤولية تعني المجازفة بحياتك ؟ هل تظن أن إثبات ذاتك يكون بتعرض نفسك للهلاك انت لم تتجاوز الرابعة عشر والقانون يمنع الاعمار التي اقل من السبعة عشر بالاصطياد ؟

سامر بغضب ودموعه تتسرب من عينيه:

— هذا القانون انت من وضعته ويمكنك تغييره.

(عدنان)

— نحن من نضع القوانين، ولكن الشعب هو من يغيرها، وحتى إن اراد الشعب انا لن ارضي.

(سامر)

— الرجال يُقتلون في رحلات الصيد، والجوع لن نصمد امامه إن لم يخرج الصغير قبل الكبير للبحث عن قوته، وإن استمر الوضع هكذا سيأكل بعضنا البعض كما يفعل المتحولون.

(عدنان)

— ما تقوله قد يكون صحيحًا ولكن لا تخرج مرة اخرى دون اذني...تقول انك لا تتحمل المسؤولية.

اقترب خطوة حتى صار وجهًا لوجه مع سامر وحقق في عينيه مباشرة:

__ لقد حملتك مسؤولية أكبر من أي شيء أليس الحفاظ على قبيلتك مسؤولية؟
أليس رعاية أمك وأخيك مسؤولية؟

ارتجف جفن سامر لكن عناده لم ينكسر تمامًا. حاول أن يرفع رأسه لكنه شعر أن كلمات والده تضغط عليه أكثر من الصفعة.

تابع عدنان بصوتٍ أكثر حدة:

__ بغض النظر عن رغبتك في أن تكون مثلي إن استمرت في هذا الطريق ستقتل نفسك قبل أن تصبح أي شيء، نصيحة لك العقل يحتاج ان يكبر قبل الذراع .

لم يكن سامر يتوقع تلك الكلمات فحدق في والده بارتباك.

زفر عدنان زفره طويلة، وتغيرت ملامحه من الحزن الى الخوف، بينما يمسك كتفي سامر :

__ هل تعلم لماذا آقمنا السور؟ ليحمينا من الأموات الأحياء، من الوحوش التي تترص بنا بالخارج، فهنا ليس مكانًا لمغامرات طائشة، بل مكان للبقاء على قيد الحياة.

نظر سامر إلى الأرض وهو يقول:

__ أنا آسف يا أبي لن أفعلها مجددًا.

(عدنان)

__ أنا لا أغضب لأنك تريد أن تكون قويًا بل لأنني أخاف أن أفقدك، الناس يقولون إن الأب هو ظهر أبنائه، لكنني أرى أولادي هم ظهري.

تأثر سامر بكلمات والده ثم اندفع واحتضنه بقوة لتتحول دموعه من الغضب الى دموع الندم :

__ أحبك يا أبي، انا لن اعصي أوامرک مرة ثانية.

رَبَّت عدنان على رأسه وقال:

__ وأنا سأنتظر أن تغني بهذا .

في المساء اجتمعت عائلة الحوت الأسود حول الطاولة في ضوء المصابيح الزيتية المتدلية من السقف بينما كانت تلقي بوجهها الذهبي على الأطباق الخشبية. في زوايا الغرفة تصاعد دخان خفيف من المبخرات المليئة بالأعشاب العطرية مقلدين قبيلة النار مما جعل الهواء أثقًى، وأتاح لهم نزع الكمادات التي اعتادوا ارتداؤها خارجاً، كان الهدوء يملئ المكان، لا يقطعه سوى صوت الملاعق وهي تضرب الصحون بين الحين والآخر.

فيروز بابتسامتها الدافئة، مرّرت الطعام لأفراد العائلة، بينما كان عدنان يقول:

__ سأغادر الليلة .

رفع سامر نظره عن الطبق:

__ إلى أين ؟ بالكاد عدت اليوم من رحلة الصيد.

لمعت عينًا عدنان تحت وهج المصباح، وظهرت على شفثيه ابتسامة يائسة:

__ الأمر يتعلق بالقبائل، وأنا لا أريد ما حدث أثناء غيابي يتكرر مسؤولية العائلة بين يديك .

لات...قبل أن يتمكن سامر من الرد، قفز عنبل الصغير مقاطعًا في حماس:

__ لا تقلق يا أبي سأحمي أمي وأخي.

انفجر عدنان ضاحكًا.

__ أعلم يا بطلي أعلم أنك ستفعل.

لكن فيروز، التي كانت تتابع زوجها لم تستطع إخفاء القلق هي الأخرى:

__ رحيلك الآن هل هو ضروري؟

(عدنان)

— نعم فلقد انقبض قلبي ولن ينفج حتى اعلم ماذا يحدث... سأرحل مع ظهور ضباب الفجر.

(فيروز)

— ربما كان مقرعون يهول الامر وربما انت من تهوله.

(عدنان)

— انت تعلمين أن مقرعون لم يكن ليضحي ويكتب لي اخي وهو يعلم جيداً انّ اخفاء علاقتنا امراً ضروري، اشعر به هو يحتاجني بحق.

في فجر ذلك اليوم.. تحرّك عدنان مع البزوغ يقود سرباً ضخماً من الجنود، متّجهاً نحو قبيلة الماء. امتدت رحلته ليوم كامل، لم يتوقف خلاله إلا للضرورة، حتى لاحت أخيراً امامة مشارف القبيلة العائمة.

توقّف الجنود، بينما واصل هو السير بمفرده حتى وصل الى الجدار الخشبي وهناك استقبله حارس صامت، ألقي عليه نظرة حذرة، ثم أشار له بالدخول.

وبينما كان يعبر الممر، وقعت عيناه على العرافة ندره كانت جالسة على الأرض ساقاها متربعتان، ويديها فوق رأس طفل صغير تتحسّس جمجمته بحركات بطيئة، قبل أن تنفخ في أذنه ثلاث مرات.

الطفل كان يصرخ ويلتوي من الألم...اقترب عدنان قليلاً، ثم همس للحارس المرافق له:

__ماذا تفعل؟

أجابه الحارس دون أن يرفع نظره عنها:

__نُخرج من داخله الأرواح الشريرة.

زفر عدنان ساخراً:

__لم يكن مقرعون يسمح لها بنشر شرّها هكذا ما الذي تغيّر؟

فجأة دوت الطبول في أنحاء القبيلة، الهمسات تصاعدت بين الناس، الوجوه تطلّ من خلف النوافذ.

__الحوت الأسود هنا ما الذي جاء به، اسئلة همهم بها الجميع..

خرج مقرعون من منزله، جسده الضخم يتحرّك ببطء و حين اقترب أمسك بيدي عدنان وقال:

__لقد شرّفتنا بحضورك.

لكن عدنان لم يرد التحية، وأكفى بالقول:

__اعلم فحضوري شرف للي اي احد.

أشار له مقرعون بالدخول، فتحرّكا معًا نحو المنزل وما إن أغلقت الأبواب خلفهما، حتى ألقى كل منهما كمامته جانبًا واحتضنا بعضهما البعض في اشتياق.

قال عدنان بصوت منخفض:

__كيف حالك يا أخي؟

أجابه مقرعون دون أن ينظر إليه:

__لست بخير.

رفع عينيه إليه مباشرة، وسأله:

__لماذا؟ ماذا حدث؟

ردّ بعد لحظة صمت:

__جلمود.

قطّب عدنان حاجبيه.

__ماذا به؟

اقترب مقرعون، وقال بصوت لم يكن خاليًا من الغضب:

__اختطف ابني ولكن صمصام كان قويا فاستطاع الهرب من قضبان سجنه، ليس هذا فقط، بل دمر المزرعة، وأخذ المحصول وأعلن الحرب علينا صراحةً.

نظر إليه عدنان للحظات، ثم قال بهدوء:

__طلب الحرب؟ إذن فليحصل عليها.

(مقرعون)

__لم أشك أبدًا أنك ستدعمني.

(عدنان)

__كيف لا أدمعك يا ابن الظلال؟ عندما وصلتني رسالتك لم أتردد فقد قالت الورقة كل شيء، حتى وان لم تقل سوى ثلاث كلمات لهذا جُمِعت جمع من الجنود وهم الآن معسكرون خارج القبيلة.

قبل أن يكمل دخلت نوهارا بخطوات واثقة:

__مرحبًا بالحوت الأسود، قد تكون حوت الظلال لكنك أضأة منزلنا.

ردّ عدنان بضحكه خافته.

__مرحبًا يا سيدة نوهارا، لم أكن اعلم انك تجدين المزاح.

(نوهارا)

__ليس المزاح فقط بل التفكير أيضًا.

ابتلع مقرعون ريقه ثم قال بحذر:

__أين الطعام يا عزيزتي.

(نوهارا)

__الطعام جاهز.

(عدنان)

__ فلنأكل ثم نفكر لاحقًا.

دلفت نوهارا برفقة خادمتها إلى قاعة الطعام، حيث جلس عدنان الحوت الأسود ومقرعون الحوت الأزرق يتحدثان بصوت خافت. وضعت الخادمة الطعام أمامهما وانسحبت بصمت، بينما بقيت نوهارا واقفة، تنظر إلى عدنان بعينين تملؤهما التساؤلات كانت تضع الاعشاب البحريه في قدر الماء المغلى لتنقية الهواء ثم قالت:

__لقد استقبلك زوجي بحفاوة غريبة، بينما اظهرتهم للعامة عدم القبول بينكم. وسمعتة يناديك أخي عند وصولك، لكنه لم يخبرني شيئًا عن قصتكم، وكيف اتحدثم، بل رفض أن يشرح لي اي شيء، فهلا تكلمت و أخبرتني أنت؟

نظر عدنان إلى مقرعون، فتبادلا نظرة صامتة قبل أن يتنسم مقرعون قليلاً ويقول:
_ أخبرها يا عدنان أريدها ان تسمع منك.

تهدهد عدنان ثم اعتدل في جلسته وأسند مرفقيه إلى الطاولة:

_ حين تشتعل النيران، لا تنقذها إلا الظلال التي تخفيها، وحين يجف الماء، لا يجد
ملجأً إلا في الظلام..

لطالما كانت قبيلة النار أشد القبائل بطشًا، تؤمن بأن القوة وحدها تحكم الأرض،
وكانت ترى في قبيلة الماء هدفاً ضعيفاً وسهلاً. حاولت قبيلة الماء الدفاع عن نفسها،
لكنها لم تكن تملك القوة الكافية لصد هجمات النار المتكررة لكن ما لم يكن أحد يعلمه
هو أن قبيلة الظلال كانت الدرع الخفي لقبيلة الماء لأكثر من سبعين عامًا، كان
رجال الظلال يحمون الماء من بعيد، دون أن يدري أحد. ففي كل مرة كانت قبيلة
النار تخطط لهجوم، كانوا افراد قبيلة الظلال يتسللون، يسرقون أسلحتهم يقتالون
قاداتهم في العتمة، ويثوثون الرعب في قلوبهم. كانوا سلاحًا غير مرئي، يدًا خفية تردع
العدو قبل أن يصل إلى الماء.

لكن هذا التحالف لم يكن أحادي الجانب...

في المقابل، كانت قبيلة الماء تمدّ قبيلة الظلال بالمؤن والإمدادات، تمنحهم الطعام
والدواء، وتضمن بقاءهم في الخفاء، حيث لم يكن وقتها للظلال أرض ثابتة أو موارد

وفيرة كالיום كان الاتفاق بين القبيلتين واضحاً تحمي الظلال الماء، والماء يُقيي
الظلال على قيد الحياة.

غير أن الأمر لم يكن مجرد تحالف قائم على المنفعة المتبادلة، بل كان هناك شيء
أعمق... صداقة حقيقية ربطت بين زعمي القبيلتين.

فقد كان هناك سرٌّ أعظم من مجرد تحالف خفي، سرٌّ لم يكن يعلمه سوى
الصديقين وحدهما.

قبل نصف قرن، وُلِدَ للأمير الحاكم لبي قبيلة الماء ابنٌ وحيد، لكن والده أدرك أنه
مهما درّبه، فلن يستطيع الصمود أمام قبيلة النار. كان الأمير ضعيفاً آنذاك، ينشأ في
بيئة من السلم، بينما أعداؤه في النار لا يعرفون إلا القتال منذ الطفولة.

في المقابل، وُلِدَ لزعيم قبيلة الظلال ابنٌ وحيد، لكن الحياة في الظلام لم تكن ترحم،
ولم تكن تُناسب من كُتِبَ له أن يكون ملكاً.

وعندها، اتخذ الزعيان قراراً لم يسبق له مثيل...

أُرْسِلَ أمير الماء إلى قبيلة الظلال، ليعيش في العتمة، ويتعلم كيف يكون قاتلاً قبل
أن يكون ملكاً.

وأُرْسِلَ ابن زعيم الظلال إلى الماء، لينشأ في النور، ويتعلم الحكمة والعدل بدلاً من
القتل والخداع.

وهكذا، كُبر كل واحد منهما في عالم الآخر، دون أن يعرف الحقيقة. حتى جاء ذلك اليوم.

بعد عشرين عامًا، أصبح كلٌ منهما زعيمًا لقوم ليس قومة.

عدنان ابن قبيلة الماء، الذي تربى في قبيلة الظلال، صار محاربًا لا يُقهر، يتحرك كالشبح، لكنه لم يفهم يومًا لماذا كان قلبه يميل إلى قبيلة الماء أكثر مما يميل إلى قبيلة الظلال.

مقرعون ابن قبيلة الظلال، الذي نشأ في قبيلة الماء، أصبح ملكًا حكيمًا، لكنه لم يكن يشبه أهل الماء، فقد كان يشعر أنه أقرب إلى الظلال مما هو إلى النور.

لكن الحقيقة ظلت مدفونة حتى وجد عدنان رسالة مخفية في غرفة والده، تركها زعيم الظلال قبل موته.

عندما قرأها، وقف للحظات لا يتنفس...

لقد كان هو ابن الماء الأمير والوريث الشرعي لقبيلة الماء الذي لم يعرف عن أصله شيئًا.

وكان مقرعون هو ابن الظلال، الذي عاش في النور دون أن يدرك إلى أين ينتهي حقًا.

حين التقيا بعد ذلك، لم يكن اللقاء كأى لقاء آخر...

نظر عدنان الحوت الأسود إلى مقرعون بابتسامة خفيفة وقال:

__أنتذكر انت ايضاً كيف علمت الحقيقة؟ لقد كشف لك والدك الأمر، أليس كذلك؟

ضحك مقرعون قليلاً وهز رأسه قائلاً:

__تقصد والدك أنت وليس والدى ..

بدت الدهشة على وجه نوهارا وهي تستمع إليهما، ثم قالت بحيرة:

__أنا لا أفهم شيئاً! تقصدان أن والد مقرعون تبني عدنان ورباه في قبيلة الضلال، وجعله الحوت الأسود، وفي المقابل، والد عدنان هو من ربى مقرعون في قبيلة الماء، ليصبح الحوت الأزرق؟

نظر الأخوان إلى بعضهما لثوانٍ وقالوا بصوت واحد:

نعم.

وضعت نوهارا يدها على رأسها:

__هذه صدمات لا أتحملها ولكن محلاً محلاً ما هذا الهراء؟ كيف يقبل والديكما بهذا الوضع الغريب؟ ما افهمه من هذا الكلام ان الاتفاق بينهما أن يأخذ

كلا منها ابنه عند وصولكما سن البلوغ، بعد أن تشتد عزيمتكما وتكتسب الخبرة؟ لا
أن تظلا إلى الأبد تحكما قبائل لا تنتميان إليها!
(عدنان)

__ حوت الظلال تعلّق بي كما تعلّقت به فلم يملك قلبه أن يكسّرني، ولا امتلك
الشجاعة ليقولها.

ثم أشار برأسه نحو مقرعون الذي أكمل:

اما انا فأني قالها لي بنفسه وهو يحتضر، أمسكني بيده المرتجفة وهمس:

__ أكنت أريد أن أقولها منذ زمن لكن قلبي لم يطاوعني، أنت ابن الظلال، يا
مقرعون. كنت لي كل شيء، لكنك لست من دمي.

(نوهارا)

__ كلا كما نشأ في غير أرضه وعاش عمره كله في وهم؟

(عدنان)

__ لكن هل كان وهما حقًا؟ لقد أحبونا ولكن كلّ بطريقته كلّ بطريقته....
أكمل مقرعون:

وكل مات وهو يتمنى لو امتلك الشجاعة أن يقولها ... لا برسالة... ولا وهو
يحتضر.

(عدنان)

أتذكر أول لقاء لنا بعد أن علمنا الحقيقة؟ يومها لم أستطع الانتظار فبعثت إليك
برسالة عبر البغار.

(مقرعون)

وبالمناسبة وجدت الرسالة منك وبعثت لك رساله اخرى في نفس الطائر ..

(عدنان)

أتذكر ما قلته لك حين التقينا؟ لقد نظرت إليك وقلت، كل شيء كان
كذبة أنت ابن الظلام، وأنا ابن الماء ومع ذلك نحن نعيش حياتنا كأعداء!
ضحك مقرعون وأكمل:

أنا رددت عليك حينها ... وهل يعني ذلك أننا لا نملك الحق في اختيار مصيرنا؟

(عدنان)

قلت لك وقتها إنها لعنة أن تكون من مكان ولا تنتهي إليه.

اردف مقرعون:

أو ربما هي هدية أن تمتلك ما لا يمتلكه أحد غيرك، أن تكون ظلًا في النور، ونورًا في الظل.

(نوهارا)

__ قصة لا يستوعبها عقل ولكن ماذا ستفعلان الآن؟ ابني لم يأتي لي لقد هرب ولكن من المؤكد ان الحوت الأحمر يلاحقه أنا أريده يا مقرعون أسمعني؟ قلبي يحترق فلماذا لا ترى النار التي في داخلي؟

(مقرعون)

__ أعلم ما تتمين به يا عزيزتي لكن بعد هروب صمصام لم أعد أخاف عليه إنه ابن الماء والظلال معًا، وسيجد طريقه أما أنا فسأنتقم من الحوت الأحمر أشد انتقام.

وقف عدنان من على كرسيه، تاركًا طاولة الطعام:

__ وأنا معك، جنودي جاهزون ينتظرون فقط لإشارتي.

(مقرعون بغضب)

__ وأنا مستعد للخروج بجيش الماء، لن اترك هذه الفرصة تمر ولن أغفر للحوت الأحمر ما فعله.....

((الفصل الحادي عشر: قبيلة الهواء))

—تنصب المكائد وتندلع الحروب وتُخرج الأرض ما فيها من شرور فمن القاتل ومن المقتول؟ الأرض التي صارت تتنفس غضباً؟ أم البشر الذين فقدوا عقولهم فتأهوا في الجنون، الأموات الأحياء لم يعودوا هم الخطر، بل البشر هم أصل كل حرب و بداية كل نهاية.

في نيمورا كانت سمراء تقطف ثمار البترقان، تلك الفاكهة البنفسجية ذات اللب الأصفر، التي تنمو فقط على أشجار نيمورا لم تكن تفكر في شيء سوى جمع الثمار، حتى تجمدت يدها في الهواء، وسرت قشعيرة باردة في جسدها رفعت رأسها ببطء، فوجدت نفيل يقف أمامها يراقبها كبومه صماء.

اتسعت عينها وارتجفت أصابعها فسقطت السلة من يدها، وتبعثرت الثمار على الأرض تراجعت خطوة إلى الوراء وكأن المسافة بينهما قد تقلصت رغم ثباته.

شهقت ثم صرخت في فزع:

١٠

استدارت وركضت بجنون ولم تتوقف حتى وصلت إلى بيت جدتها زهيرة،
اقتحمت الباب وهي تلهث ثم صاحت بذعر بعد ان اقفلت الباب:

انه هـنا

سألت زهيرة في تعجب:

__من؟؟

(سمراء)

__نقيل جاء ليأخذني.

لكن زهيرة لم تتفاجأ حتى انها لم تتحرك كما كانت تتمنى سمراء، ولم تهرع لتطمئننها كما ظنت، بل تحركت ببطء نحو الباب، بخطواتٍ تشبه خطوات الوقت وهو يخون الملهوفين.

تراجعت سمراء خطوة للخلف أمسكت ذراعها بيديها المرتعشتين.

__لا تفعلي أرجوكِ لا تفتحي الباب.

لكن الجدة لم ترد رفعت يدها وأدارت المقبض فوجدت نقيل امام الباب ابتسمت ثم احتضنته لتضع تلك القبلة على خده الايسر كما تقبل الأم ابنها، كأنها لم تسمع توسلات حفيدتها، كأنها لم ترى الدموع العالقة في عينيها.

__كيف حالك يا بني؟

(نقيل)

__بخير يا جدتي وأنت؟

(زهيرة)

__بخير..... بخير.

ثم أضاف نفيل:

__ أتيثُ لأخذ سمراء فقد تحدد موعد زفافنا.

احترقت الكلمات في أذن سمراء كالنار، فوقفت صارخة بصوت عالٍ:

__ لن أقبل بزواجك هل تسمعي لماذا لا تفهم؟ قلبي لا يشعر بك، ودموعي تسيل من رائحتك، قد يظهر من حديثي الخوف لكنه ليس سوى كره بحت.

رغم كلماتها، لم يتراجع لم يبدُ عليه أي انفعال بل رفع ذقنه ببرود آثار اشمزازها.
وأضاف:

__ أنتِ لا تملكين رفاهية الرفض.

ثم بصوتٍ يعبر عن حزنٍ غير مألوف أضاف:

__ لماذا تفعلين بي هذا أنا أحبك.

(سمراء)

__ لقد قلتها سابقًا وسأكررها بدون ملل.....اقرأ شفتي جيداً أنا... أكرهك... يا نفيل... وماذا كنت تقول؟ أنت تحبني؟ نعم تحبني حب الجلاد للسياط، لا بل هو حب السيف للجروح وسكب الدماء.

(نفيل)

_لماذا يا ابنة عمي ؟

(سمراء)

_ألا تعلم السبب ؟ لقد رأيته... شاهدتك تعتدي على صديقتي المقرية ورأيت النساء اللواتي اختفين من القبيلة ثم عدن محطّات وصامتات، ولم أكن غافلة عن السبب.

شحب وجهه لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وضحك بصوت عالٍ.

_لكن هذا ليس السبب صحيح ؟

تقدّم منها أكثر، وانخفض صوته حتى صار همساً:

_السبب هو صمصام أليس كذلك ؟

التفتت نحو جدتها في صدمة، لكنه أمسك وجهها بسرعة، مجبراً إياها على النظر إليه فقط:

_لا... لا تنظري إلى أحد أنا من أكلمك.

امتدت أصابعه إلى عنقها، وضغط بقوة عليها شهقت محاولة التقاط أنفاسها، لكن قبضته اشتدت أكثر.

__أنتِ لي أفهمتِ ؟ حتى لو اضطررتُ لقتلك.

اندفعت زهيرة نحوه، فدفعته بعيدًا عنها بعنف.

__هل جُنتِ أيها الأحق؟

تراجع خطوة بينما تجمّدت سمراء في مكانها، تسعل بعنف تحاول استنشاق الهواء.

صرخ ثقيل حتى الرذاذ تطاير من فمه لكثرة غضبه:

__هي من جُنتِ وليس انا.

وضعت زهيرة يدها برفق على شعر سمراء لتهدئها:

__اهدائي يا حبيبتي تذكّرين حين قلت لك إنكِ تشبهيني؟ كنتُ أجبرت على

الزواج ممن يحبني وترك من أحببت ورغم ذلك، عشت أيامًا سعيدة واحببت

زوجي بعد الزواج وصار...

قاطعتها سمراء صارخة، وهي تضرب يد جدتها بعيدًا:

__كيف علم نفيل بأمر صمصام؟

صمتت زهيرة خافضةً نظرها إلى الأرض.

اقتربت منها سمراء وانحنى لتهمس في أذنها بصوت مرتجف:

__أنا أكرهك يا جدتي.

أمسك نفيل معصمها بقوة.

__لن أسمع مزيدًا من هذا الهراء.

جرّها خارج المنزل بعنف بينما كانت تصرخ بحرقة:

__أكرهك يا زهيرة... أكرهك يا زهيرة.

بقيت زهيرة جالسة على الأرض، تثنّ بنحيب خافت:

__ماذا فعلت...؟

استمر نفيل في سحب سمراء وهي تصرخ، محاولةً تحرير يدها وضربه بعنف حتى وقف عند المصعد الخشبي الذي يربط بيوت الأشجار بالأرض، ثم أشار إلى أحد رجاله قائلاً:

__حرّك الترس.

توالت أصوات الجبال وهي تنسحب ببطء، وبدأ المصعد يهبط تدريجيًا نحو الأرض.

كانت سمراء لا تزال تصرخ:

__لا يا نفيل اتركني.

عندما لامس المصعد الأرض، استدار نفيل بنظرات متقدة، ثم خاطب رجاله بحزم
ومن بينهم قنديش:

— جهّزوا الفخ كما أمرتك وعندما يظهر صمصام لا تأخذوه أسيرًا اقتلوه فورًا.

صرخت سمراء بكل ما أوتيت من قوة:

— لا يا نفيل لا تفعل ذلك.

اقترب منها أكثر:

— بل سأفعل.

— زجرت محاولة الفكاك من قبضته:

— سأقتلك بنفسي إن مسّه سوء أنسمعني.

لكن نفيل تجاهلها تمامًا ثم أمر بصرامة:

— لقد سمعتموني افعلوا ما قلته.

رد قنديش بخضوع وهو يتسم:

— أمرك يا سيدي.

شدّ سمراء بقسوة، ودفعها داخل العربة فيما لم يتوقف صراخها لحظة واحدة.

صعد بجوارها وسرعان ما وضع قناع الاستنشاق على وجهها. حاولت دفعه والخلاص منه، لكن قبضته كانت أقوى. أمسك يديها بحزم:

__ لا أريدك أن تموتي الآن فأنا أحتاجك.

ثم ابتسم ببرود، قبل أن يثبت القناع على وجهها، وقبل أن يضع قناعه هو الآخر، التفت إلى السائق وأمره بجفاء:

__ انطلق.

هوى السوط على ظهور الخيول، فانطلقت العربية تهرء عبر الطرق الوعرة والغبار يتصاعد خلفها.

في ذلك الوقت كانت نساء قبيلة الهواء يتدرين بلا توقف تتحرك أجسادهن بخفة، كأن الريح تسري في عروقهن بدل الدم.

فوق القمم الشاهقة لجبل توبقال في المغرب، حيث الهواء لم يعد نقي كما كان ولكنه أقوى مما كان، وحيث لا يصل إلا من استطاع مجازاة قسوة الطبيعة، تترع مدينة الهواء. ليست مدينة بالمعنى التقليدي، بل مستوطنة معلقة على سفوح الصخور الوعرة حيث بنيت البيوت بنخشب الصنوبر والحجارة متكيفة مع الطبيعة القاسية. أسطحها مناسبة بانحناءات تقلل مقاومة الريح، ونوافذها ضيقة، تحمي سكانها من الزوابع العاتية التي تهب بلا إنذار.

الممرات هنا ضيقة محفورة في الجبل نفسه، تمتد كعروق تتشبث بالحياة وسط هذا العلو الشاهق بات السير فيها ليس مجرد تنقل بل اختبارٌ للتوازن إذ يكفي زلة قدم واحدة ليجد المرء نفسه في هاوية لا قاع لها. المنحدرات من حولهم شاهقة، تطل على وديان بعيدة يملؤها الضباب في الصباح، وكأنها محيط من الغيوم يمتد تحتهم. في هذه الأرض الهواء ليس مجرد نسمة عابرة، بل قوة حية، أحياناً يكون حليفاً يدفع الطيور نحو أعشاشها، وأحياناً يكون عدواً هائجاً يزجر في الليل كوحش يبحث عن فريسة. ولهذا، يعلق سكان المدينة أجراساً صغيرة على أبوابهم، فإذا هبّت الرياح ملأت المكان بأصوات متناغمة كأنها تحاول ترويض العاصفة بالموسيقى.

قبيلة الهواء هي قبيلة من النساء ليست قبيلة عادية، بل نسلٌ عاشقٌ للسماء، أقدامهم نادراً ما تنقل على الأرض وأرواحهم مربوطة بهذا العلو، حيث لا قيود ولا حدود، سوى تلك التي تفرضها الجبال نفسها.

وقفت كارمن الحوت الأبيض في ساحة التدريب شائخة وكأنها أسطورة خرجت من رحم العدم لتعيد تشكيل العالم من جديد.

لم تتحرك من مكانها لكن حضورها وحده جعل الساحة تتجمد في لحظة انتظار خاشعة. خلفها كان معطفها المصنوع من جلد الثمريوس يرفرف مع الريح، كأنه راية انتصار معلقة في الأفق قبل اندلاع الحرب.

أماهما، اصطفت نساء قبيلة الهواء، تلك المحاربات اللواتي وُلدن من رماد العصور القديمة. ارتدين ملابس الأجداد التي استُخرجت من المدن المنسية، وأقنعة استنشاق صنعتها أيادٍ خبيرة من بقايا معامل مدمرة. الأقنعة كانت زجاجية مريجة تظهر ملامح الوجه ويتحدثون من تحتها بكل سهولة كانت ملامحهن تشي بأنهن لسن مجرد ناجيات، بل فاتحات لعصرٍ لا يخضع فيه أحدٌ لغير قوته. رفعت كارمن رأسها، وصوتها اخترق الفضاء كالبرق:

__ نساء قبيلة الهواء اليوم سنعلن أنفسنا كما لم تفعل من قبل اليوم سنُري العالم أن العاصفة التي ظنوها مجرد ريح ستقتلع جذورهم من الأرض رفعت النساء قبضاتهن إلى السماء، واشتعلت صيحاتهن كجمرات تذكى الحماسة في الأجواء.

تابعت كارمن:

__ نحن بنات هذه الأرض نحن من حملتنا أمهاتنا في أحشائهن وهرين بنا من الجحيم! نحن من رفضن الخضوع من حطّمن الأغلال غير المرئية، من ولدن من الألم لنصنع من رماده مجداً جديداً نحن من هربنا من الوحوش التي دمرت هذا العالم، من العدوى التي التهمت البشر، لكن العدو الحقيقي لم يكن المرض كان الرجال! كانوا أسياداً في عالمهم القديم، عالم انتهى ومع ذلك حاولوا جرنا إلى عبوديتهم من جديد.

لكننا قلنا لا .. قلناها بالدم.. قلناها بالنار...و اليوم سنجعلهم يتذكرون لماذا لا يمكن لأحد أن يُخضعنا سنهم من نحن.

تعالى الهتافات وارتفعت السيوف والرماح، وخلف تلك الحشود، كانت جقراء تراقب بصمت عيناها تتفحصان كارمن وكأنها تراها لأول مرة.

بخطوات ثابتة، اقتربت العجوز التي حفرت السنوات التضاريس على وجهها وقالت بصوت هادئ محل بجبروت:

__أراك تجدين إدارة أمورك بعد أن أصبحتِ الحوت.

ابتسمت كارمن وقالت:

__وان كنتُ كذلك فأنتِ السبب يا أمي.

(جقراء)

__النساء جميعهن يحبونك، والحب لا يُمنح بفضل أحد.

(كارمن)

__جميعهن وانتِ يا أمي؟

(جقراء)

__وهل تشكين في حبي؟

(كارمن)

__لا أشك لكن كنت أتمنى أن أسمعها منك.

(جقراء بصرامة)

__لن تسمعها ولن أقولها لأن العاطفة لا مكان لها هنا ...لأن الحب ضعف والزعمية لا يجب أن تضعف.

ثم نظرت جقراء إلى الحشد المتحمس وقالت:

__هل تذكرين جدتكِ صهباء؟

ساد الصمت فأردفت:

سأخبركِ الآن عن ليلة لا تُنسى ليلةٌ وُلدت فيها قبيلتنا من دمٍ و نارٍ ليلةٌ كانت فيها صهباء المرأة التي كسرت القيد... بحدّ السيف.

قبل أن نصبح كما نحن كُنّا نعيش تحت ظل الرجال أو بالأحرى تحت أقدامهم، كُنّا نحن من نخرج للصيد، نحن من نمضي الأيام نطارد الغزلان والوحوش في البراري نحمل اللحم على ظهورنا المتعبة، نعود منهكات لنجدهم ينتظروننا جالسين في خيامهم أفواههم مفتوحة، بطونهم خاوية وعيونهم لا ترى إلا اللحم.

لم يكن لنا مكانٌ على المائدة، كنا ننتظر حتى يفرغوا، وبعدهم يأكل الصغار ثم الفتات لنا، وإن لم يبقَ شيء، فليأكل الجوعُ من أجسادنا حتى يهلكها. أيُّ امرأة تعترض تُضرب حتى الموت أيُّ صوتٍ يعلو يُسكت بجِدِّ السوط.

كانوا يظنون أنفسهم أسودًا، وكانوا يعاملوننا كاللبّوات. حتى أتت تلك الليلة لم يعد في بطون النساء ما يسكت الجوع ولا في قلوبهن ما يسكت الغضب.

رأيتها بأم عيني رأيتُ جدتكِ صهباء وهي تقف وسط المعسكر، لم تتكلم ولم تبكي من الجوع كالآخرات فقط كانت تنظر الى النساء وهن يتساقطن من الإنهاك لم تكن صهباء الأقوى بيننا ولا الأشد بأسًا لكنها كانت الأخطر لأنها فهمت.

دخلت كوخها ثم خرجت بعدها تحمل سكينها، رفعتها تحت القمر الباهت، وعندما انعكس ضوء النصل في عيون النساء فهمن.

لم تقل كلمة فلم تحتاج إلى ذلك.

في تلك الليلة بدلًا من أن تذهب النساء للصيد، دخلن إلى خيام أزواجهن وبدون صراخ اوجلبة سمعت بعدها أصوات السكاكين وهي تشق اللحم، والأنفاس الأخيرة وهي تخرج مع الدماء.

رأيتُ أمي، التي لم تجرؤ يوماً على رفع نظرها أمام أبي، تُدخل النصل في عنقه دون أن ترمش رأيتُ النساء اللواتي عشنَّ سنينَ في الظل، يُجلنَ الليل إلى جحيم من الدم.

وعندما بزغ الفجر لم يبقَ في المعسكر رجلٌ واحدٌ على قيد الحياة، حينها فقط تكلمت صهباء كانت واقفة وسط الجثث، عيناها لم تزعج ودم الرجال يقطر من أصابعها قالت:

— إلى الجبال.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد لنا سيد، لم يعد لنا قيد، ولم يعد لنا مكانٌ للحب لأنه هو من جعلنا ضعيفات، هو من جعلنا ننتظر من جعلنا نرضع، من جعلنا نجوع حتى الثأر. ومنذ ذلك اليوم كانت تحبنا بندر اسم المقتول الأول من الرجال الذي هو والدى حتى لا ننسى من أين جئنا وحتى لا نعود لما كنا عليه أبداً.

قالت كارمن:

اعلم تاريخنا فلماذا تذكريني.

اجابت جتراء:

— حتى لاتطليبي مني المستحيل.

قبل أن تتبادل الأم وابنتها كلمات أخرى انحنى امرأة ترتدي زي المحاربات وقالت:

— بن بن بندر

أجابت كارمن بحزم:

— بن بن بندر.

أكملت المرأة:

— سيدتي لم نثر على أسلحة جديدة في مدينة مراكش لم نجد سوى المصابين، وقد قتلوا سبعين محاربة من جنودنا، وانتقلت العدوى إلى عشر أخريات تركناهن هناك يجوين دون أمل.

تلبّد وجه كارمن بغضب ممزوج بحزن قائم:

— لا يُعقل هذا لا يمكن أن نخسر المزيد.

تدخلت جقراء :

— لماذا لا نكتفي بالسيوف والسهام؟ أسلحتنا اليدوية مصنوعة من أنقى المعادن وتكفي لحمايتنا.

هزّت كارمن رأسها برفض:

— هذا لا يكفي الحوت الأحمر يملك أسلحة نارية، ويدرك جيدًا أنه الأقوى ولن يتردد في بسط سيطرته على القبائل كلها، ونحن لن نسمح للرجال بأن يستعبدوا

النساء مجدداً حتى لو كان الثمن أرواح الجميع... كما أنّ الوحوش يمكن قتلها بالنار
أسرع من السيوف.

تساؤلت جقراء بنبرة مربية:

__وكأنك متأكدة من وجود مخازن لتلك الأسلحة؟

نظرت كارمن نحو الأفق وكأنها ترى شيء لم يراه الجميع.

__ لقد قرأت في الكتب أكثر مما تتوقعي يا أمي نعم ... المخازن كثيرة، ممتلئة بأسلحة
الأسلاف الذين حوّلوا العالم إلى خراب...لقد كانوا يقتلون بعضهم بعضاً بلا رحمة
فلّت اللعنة على هذه الأرض.

(جقراء)

__ إن كان هذا قرار الحوت الأبيض فلن أعارض.

ثم التفتت إلى المحاربة الواقعة:

__ شلعونه خذي فرقة أخرى واذهبي هذه المرة إلى مدينة طنجة.

انحنى شلعونه بوقار:

__أمرك يا سيدتي...بين بن بندر.

اتت امرأة شابة وانحنى قليلاً أمام كارمن:

— بن بندر.

سألت كارمن:

ماذا

قالت المرأة بصوتٍ يملؤه الرجاء:

— سيدتي أريد أن يكون لي بنت أريد أن أصبح أماً.

حدقت بها كارمن طولاً، وكأنها تقيس رغبته بميزان خفي ثم سألتها:

— هل تزوجت من قبل؟

هزت المرأة رأسها نقيًا وقالت دون تردد:

— لا لم أفعل.

ساد صمت قصير قبل أن تجيب كارمن بجفاء مدروس:

— إذن اذهبي إلى قبيلة الماء ابحي عن رجل هناك وتزوجي منه.

بدت المرأة وكأنها لم تتوقع تلك الإجابة و لكنها لم تتفوه بكلمة، أكملت كارمن بنبرة صارمة كأنها تردد قاعدة قديمة:

__ بعد عام عودي إلينا، وإن كان المولود صبيًا فاتركه وإن كانت بنتًا فأحضرها
معلك...خذي المؤن والهدايا التي ستُعوي الرجل لكي يتزوجك اجعليه يصدق أنك
له اجعليه يثق بك ثم خذي ما جئت لأجله وعدي إلينا.

لم يكن هذا مجرد قرار عابر بل كان التقليد المقدس لقبيلة الهواء، الطريقة الوحيدة
لاستمرار نسلهم دون كسر القانون الأساسي ((لا مكان للرجال بيننا))

((الفصل الثاني عشر: وصية النعجة))

نساء خالفن الفطرة، ورجال لم يعملوا بها كل قال:

(نفسي..... نفسي)

نبته شيطانية نمت في صدورهم، ثم تشجرت، وتفرعت جذورها في كل قلب فأين
الطيب؟ وأين الخبيث؟

كأن الجميع قد تساوا في أرض تهاوت من تحتهم، فلم يعد هناك فرق.

الشر أصبح قاعدة، والخير استثناء، والاستثناء يموت إذا لم يجد أرضًا ينبت
فيها.....

صمصام بعد أن قضى وقتًا طويلًا في السير، يقرب من أربعة أيام ذاق فيهم ما لم يتذوق في حياته وصل أخيرًا إلى غابة نيمورا، حينها لم يكن هذا وصولًا حقيقيًا بل كان أشبه بانهييار رجل خارت قواه عند العتبة الأخيرة.

جسده تأثر من كل ما مر به فقد أصبحت عظامه بارزة تحت جلده ووجهه فقد لونه، وشفاهه تشققت من شدة العطش . أما قدماه فقد تورمتا من السير بالكاد تحملانه.

المميز في الأمر عينيّه التي لم تتغيرا ، فإنها ما زالتا تحملان ذلك الشيء الذي يجعل الإنسان يقفز من أعلى التل دون أن يفكر، نعم تحملان الحب. الحب الذي نظن اننا نظارده حتى نكتشف في نهاية المطاف انه من يطاردنا.

رفع قناع الاستنشاق عن وجهه وجرب أن يملأ رئتيه لكن الرائحة كانت مقرزة، مألوفة إلى حد الاشمئزاز أعاد القناع فورًا على وجهه، ثم تردد في هذا القرار وازاله مرة اخرى، حك رأسه وهو يهمس لنفسه:

__ لقد قالت سمراء إن هواء نيمورا نقي لكني لا أشعر بذلك.

ضحك ضحكة قصيرة خاوية، كأنها انزلقت منه رغمًا عنه:

__هواء نيمورا نقي ؟ لا لقد قالت إن الهواء النقي في القرية وليس هنا.

توقف مرة واحدة واتسعت عيناه فقد كان هناك شيء غير منطقي، استنشق الهواء مرة أخرى و انحنى ليمس التربة بأصابعه فتلطخت يدها بطين أصفر رفعها إلى أنفه بجذر ثم شتمها:

__ هل هذا براز نمل البربر؟!

تراجع خطوتين و مسح يده بسرعة في جذع الشجرة حينها بدأ يرتجف لا إرادياً. وقبل أن يدرك ما يحدث، انسابت عليه شباك من بين الأشجار ، التفت حول جسده فأسقطته أرضاً.

ومن فوق الاغصان ظهوروا واحداً تلو الآخر كشتات الأمطار، ثلاثة عشر من الرجال، ملثمون بأقنعة التنفس، كانوا يعلقون البنادق على الأكتاف وعيونهم قاسية تتأمله كما يتأمل صياد طريدة وقعت في المصيدة .

أزال قنديش قناعه فكان وجهه مألوفاً على صمصام قال له وهو يدنى منه:

__ لم أتوقع أن نلتقي هكذا ولكن يبدو انك تعشق شباكنا حتى تسقط بين ايدينا مرتين..

لم يرد صمصام و لم يرمش حتى، بل نظر إليه كمن يحدق في ماضيه، كمن يرى كل شيء مرة أخرى ، الأرض المحروقة و الدخان الأسود، والجثث المبعثرة بين حقول المزرعة كل شيء.

(صمصام)

__ أنت تجسيدٌ لكل خيبةٍ حملتها، فإن وجهك لا يفارق أحلامي يأتييني مع صرخات العمال، مع وجوه الأطفال الذي ينادونني في سباتي، اين طعامنا؟ اين ما وعدتنا؟ مع الأمهات اللواتي بكين حتى جفت دموعهن... أنت من حرق الأرض، وسرق القوت، وأحرق القلوب قبل الحقول.

(قنديش)

__ ذاكرك قوينة هل أنا فعلت كل هذا... أجل ولكنه قليل جدا، سرقة المحصول وقتل العمال بداية جيدة فلنضف، عليهم حرق قلب أمك وجعل دموع الحوت الأزرق تجف للأبد.

لم يتغير وجه صمصام و بدلاً من الذعر، انحنى زاوية فمه بابتسامة جانبية وقال:
__ سأحكي لك قصة قد لا تعجبك.

(قنديش)

__ لا تقل شيئاً فأنا لا أريد أن أسمع سوى صراخك حين انزع الروح من جسدك. أشار برأسه، فاندفع أحد الجنود بثبات، يده على مقبض بندقيته عازماً على اطلاق النار في جسد صمصام.

لكن قبل أن يتحرك خطوة أخرى، دوى صوت قنديش فجأة، قاطعًا المشهد:
_توقف.

تجمد الجندي مكانه.

أمال قنديش رأسه نحو صمصام ثم نظر إليه بنصف ابتسامة جامدة وقال:

_سأكون رحيمًا لمرة أخيرة، قل ما تريد فهذا آخر ما ستقول.

(صمصام)

_كان هناك رجلٌ امتلك ما يكفيه، ومع ذلك مدّ يده إلى نعاج أخيه، لم يكن
بحاجة إلى صوفٍ أو لبن، بل إلى ذلك الإحساس الطاعني بالهمنة أن يكون "أغنى"
لا لأنه افتقر، بل لأن أخاه امتلك.

وحين وقف الأخ المظلوم أمامه طالبًا ما سُرِق منه لم ينكر السارق السرقة
فحسب بل أنكر الحق نفسه وقال له بعين ثابتة وصوتٍ ميت:

_هذه النعاج لي، أنا لم أسرقك يا ابن أُمّي.

هنا بدأت المأساة الحقيقية ليست في السرقة، بل في زرع الشك في الذاكرة. حين
يُقال للمظلوم إنه ليس مظلومًا، وحين يُعاد سرد الحكاية أمامه كل يوم حتى ينسى
نسخته الأصلية.

في البداية فعل المسروق كل ما بوسعه صياح و صاح، احتجاج واحتج حتى انه قاوم لرمق الأخير.

لكن الكلمات كانت تتهار كالرمال في كفّ مبتلة، شيئاً فشيئاً بدأ يصدّق أن اخاه لم يسرقه لا لأنه اقتنع بل لأن الزيف حين يكرر يُصبح واقعاً.

حتى النعاج نفسها خضعت. آمنت للذي يضرها ويطعمها، لأنه ببساطة الواقع المستمر.

كلها إلا واحدة نعجة وحيدة، بقي في عينيها بريق سؤال: لمن أنتي؟

كل يوم تهرب، تركض، تقف عند تخوم الذاكرة، لكنهم يعيدونها، يضرّبونها، ويقولون لها: مكانك هنا.

ومع ذلك لم تتوقف كان بداخلها شيء لا يُصفع شيء يُسقى الكرامة التي لم تُربّي على الطاعة.

حتى جاء اليوم الذي وصلت فيه إلى صاحبها الحقيقي لكن الكارثة كانت هناك. لقد أنكرها.

ربما لم يتعرّف عليها.

ربما خاف من الاعتراف.

ربما كان قد نسيها مثلما نسي نفسه.

وهناك في تلك اللحظة فهمت النعجة أن الحقيقة لا تكفي إن لم يؤمن بها أحد.
فلم تعد تركض بل ذهبت برجليها إلى وكر الذئب لم تكن تبحث عن الإنصاف بل
عن خاتمة بلا إذلال. أن تفترسها الوحوش، أهون عندها من أن تُرَبَّت على ظهرها
يد الكذب وقتها لحق بها الراعي السارق، لم تفهم الذئب الفرق فالوحوش لا تقرأ
النوايا، ولا تحفظ للجلاد اسمه.

قفزت عليه كما قفزت عليها التهمت لحمه، كما التهمت لحمها. سقط هو يصرخ،
وسقطت وهي تبتمس.

هو مات طاغيةً أنكر الحقيقة.

أما هي... فماتت حرة.

ضاعت عينا قنديش:

__ ما هذا الهراء

اجاب صمصام :

__ لن تأسرني مرة أخرى ولن ارضي ان اقتل بيديك.

ثم اردف بصفير حاد متقطع.

فجأة دوى صوتٌ قوى واختفت رأس أحد الجنود، لم يفهم قنديش ماذا حدث، ففي لحظة الجسد سقط مفرغًا نافورةً من الدماء، فتراجع الجنود في ذعر واحاطوا بقنديش مكونين دائرة ضيقة، بنادقهم ترتجف في الأيدي، والعرق يتصبب على وجوه فقدت لونها، لم يكن أحدهم يعرف من أين تأتي الضربة التالية، وكانوا يسحبون بعضهم بعضًا للخلف، يطلقون النار في غير موضعه، الرصاص كان ينهال من خوفهم على لا شيء، الى ان خرج من لم تره اعينهم من بين الجذوع ومن تحت الأرض ومن فوق الأغصان، كأن الغابة قد لفظتهم دفعةً واحدة كانوا نمل البربر، أجسادهم صلبة وأنيابهم ضخمة، وأجسامهم تساوي عشرة أضعاف الإنسان العادي. هم لم يركضوا نحوهم بل قفزوا مباشرةً وانقضوا على الفرائس كالجراد المنتشر.

كان كل من يسقط يُلْتَمِهم فورًا، بعضهم نُهَش حَيًّا و بعضهم قُطِع إلى أشلاء، والبعض الآخر ابتُلِع كاملاً في لُقْمَةٍ واحدة.

كان صمصام يحاول مدّ يده المرتجفة إلى خنجره المعلق في قصبة رجلة حتى امسكه اخيرا واخذ يقطع الشباك التفت قنديش بجنون يبحث عن مخرج رأى الفوضى رأى كيف تُسحب الأجساد وتُطحن تحت أنياب النمل، وعرف أنه إن بقي هنا لن يكون مصيره مختلفًا. فاستدار وركض بكل ما تبقى فيه من حياة لكنه لم يذهب بعيدًا.

وقف أمامه صمصام عينيه باردتان و قال بهدوء يتناقض مع العاصفة التي تحيط بهما:
_قلْتُ لك موتك سيكون بيدي.

لهث قنديش ثم نظر خلفه فرأى النمل يقترب، ارتجف صوته وهو يقول:
_إن لم نذهب الآن ستموت معي.

(صمصام)

_هل نسيت قصة النعجة؟

(صرخ قنديش)

_هذه قصة لا تجعل الخيال يأخذنا إلى الهلاك!

(صمصام)

_أوافقك الرأي.

مد يده الى الارض وحمل بندقية كانت بيد احد الجنود الاموت أدارها بسرعة،
وأطلق رصاصتين لم تكن على النمل.

كانت في قديمي قنديش.

صرخ الأخير وهو ينهار أرضاً ينظر إلى صمصام بذهولٍ ممتزجٍ بخوفٍ خوفٍ لم يشعر به في حياته قط.

قال صمصام بصوتٍ خافتٍ حمل طنين الانتقام:

__ لماذا نموت نحن الاثنين فلتمت وحدك.

ثم استدار و ركض إلى الظلال حتى اختفى في منخفضٍ بين الأشجار تاركاً قنديش يصرخ ويقول:

__ لا تتركي لهم، اقتلني ارجوك أطلق النار علي قبل ان تذهب.

لكن صمصام لم يلتفت.

ظل قنديش يزحف على الأرض ويصرخ في استجداءٍ لم يعد ينفع، حتى قفزت عليه نملةٌ ضخمةٌ أمسكته من رأسه ثم رفعتة عاليًا حتى رمتة في الهواء. ارتفع جسده للحظةٍ كأنه طائرٌ مكسور الجناح، ثم هوى إلى الأسفل مباشرةً داخل فاكٍ مفتوح كان ينتظره.

انغلق الفم وفي ثوانٍ بدأ القضم، وقنديش لم يملك حتى فرصةً ليصرخ مرة أخرى.

بعد أن هدا الوضع وانتهى كل شيء ، خرج صمصام من مخبأه ببطء، كان يخاف من أن يظهر شيء له من جديد، حتى وقف في مكانه ودارت عينيه بين الدماء المنتشرة وأشلاء الجثث المتبقية من اسنان النمل، تراجعت عيناه في محجريهما،

وغرق في الدموع، ثم سقط على ركبتيه غامساً يديه في الدماء الدافئة وبعدها رفعها
إلى السماء، بينما كان الغبار الرمادي يلف الأفق ككفنٍ معلق صرخ:

__دماؤكم لم تخفف ما بداخلي!!!

لم يسمح للحزن أن يشلّ خطاه مسح دموعه واستجمع أنفاسه ثم نهض بثقل على
قدميه متجهاً نحو الشجرة التي وصفتها له سمراء.

وقف أمام جذعها العتيق حيث انساب تحت أنامله الخشنة ملمس لحاءها
العجوز. تحسس الأخاديد حتى لامس السلم المنحوت بخفاء داخل الجذع زفر ثم
بدأ بالصعود ببطء متسللاً كما يفعل البحر حين يحتل اليابسة، زحف بجذر على
أصابعه وأطرافه الأربعة فوق الدرجات الخشبية، إلى أن بلغ الباب المدمج بجسد
الشجرة.

رفع يده ووضع راحته فوق الخشب، ثم دفعه بهدوء ففتحت الباب بلا صوت.
في الداخل كان الحارسان بكر وبكير يقفان بوجوه صارمة رفع بكير رأسه وسأل
بصوت أجش:

__من أنت؟

(صمصام)

__أنا صمصام ابن الحوت الأزرق.

ضحك بكير بصوت مرتفع ثم التفت إلى أخيه وربت على كتفه مستمتعًا بالموقف:
- انظر يا بكر! متشرد يدّعي أنه الوريث الشرعي لقبيلة الماء، لم نرى يومًا طموحًا
كهذا.

لكن بكر لم يضحك راح يتأمله و يزن كلماته حتى تحركت شفاته:
_ من يدخل هذه الأرض يجب أن يحمل دعوة، أو يكون مدعوًا من أحد سكانها.
(صمصام)

_ أعرف شخصًا هنا، خذوني إليه.
(بكر)

_ ومن يكون؟
(صمصام)

_ زهيرة جرجيل زوجة عشنار و أم الحوت الأحمر.
تجمدت ابتسامة بكير وتقابلت عيناه مع بكر ثم قال بخفّة لم تخف توتره:
_ لم تذكر لنا الجدة قدومك، ثم إنك ان كنت ابن الحوت الازرق، فأباك عدوًا
لابنها، فكيف نصدقك؟

(صمصام)

— خذوني إليها!

(بكر)

— هل تعلم كم شخصًا يأتي لاجئًا إلينا كل يوم؟ لو سمحنا للجميع بالدخول، لمتنا جوعًا عد من حيث أتيت.

لم يتحرك وزمجر بصوت يملؤه العناد:

— لن أعود سأدخل.

تحرك الأخوان لمنعه، لكنه دفعهما بقوة، جسده كان أقوى مما يبدو، ويداه ضربتا صدر بكير بوحشية غير متوقعة.

تأرجح بكير للخلف، لكنه سرعان ما استعاد توازنه، صمصام قبضته انزلت نحو سيفه، لكن بكر كان أسرع رفع عصاه الحديدية وهوى بضربة مباشرة فوق رأس صمصام.

ارتطم جسده بالأرض، وبدأت دماؤه تسيل.

تراجع بكير خطوة، ونظر إلى شقيقه بعينين متسعيتين ثم قال:

— ماذا فعلت أيها الأحمق؟

(بكر ببرد)

__ ماذا لقد منعته من الدخول.

لكن بكير لم يكن مقتنعا اقترب وركع بجانب الجسد الغارق في الدم ثم مد يده
ليتأكد و همس بخوف:

__ بل قتلته.

التفت إلى شقيقه ثم تابع :

__ إن كان ابن الحوت الأزرق حقًا فإن مقرعون لن يهدأ حتى يقتلع هذه الشجرة من
جذورها.

(بكر)

__ مهمتنا منع المتطفلين مهما كان الثمن.

زفر بكير وهو يضغط على جبينه، كأن صداً حاداً ضرب رأسه:

__ نمنعهم لا نقتلهم خاصة إن ادعى أحدهم أنه ابن الحوت الأزرق...احمله معي.

تردد بكر للحظة ثم أطاع اخيه.

حملوه بعيداً، متجهين إلى أبعد بيت في القبيلة كان ذلك بيت الطبيب شدي .
وصلا عند باب بيته الذي يحمل رمز جمجمة اعلاه.

طرق بكير الباب فجاءهم صوت هادئ من الداخل:

_ ادخلوا.

دفعت يد بكير الباب، فانفتح ليكشف عن غرفة مشبعة برائحة الأعشاب، وعلى مقعد خشبي يجلس شدلي الرجل الخمسيني، ذو شعر أبيض بالكامل بلا شعرة واحدة سوداء رغم أن ملامحه لم تكن بهذا الكبير الى ان شعره قال عكس ذلك. رفع الطبيب عينيه إليهما ثم نظر إلى صمصام الواقع منهما على الأرض، وقال بهدوء زائف:

_ أرى أنكما تريدان مني إتقاذ هذا الشخص .

اجاب بكير:

_مازال عقلك يعمل...

(شدلي)

_هل يحمل دعوة بالزيارة؟

اجاب الاثنان في نفس واحد:

_لا....

(شدلي)

__ هل أتما أحقان ؟ لو علم العمدة، سأقتل على الفور.

ابتسم بكر ابتسامة جانبية وقال:

__ بل ستعالجه.

رد شدلي بلا مبالاة:

__ وهل ستجبرني ؟

اقترب بكر منه وخفض صوته ا:

__ لا...لكني أريد فقط أن أذكرك بشيء صغير، العمليات السرية التي تقوم بها، والطعام الذي تأخذه من المرضى، وعمليات الإجهاض، والسموم التي تبيعها دون أن تنظر لمن يشتريها.

جحظت عينا شدلي بسرعة ثم تحرك ووضع يده على فم بكر وهمس بارتباك:

__ اصمت يا احمق الجدران لها آذان..

ابتسم بكر بسخرية وقال:

__ إذن ستعالجه، ام تريد الجدران ان تسمع ..

زفر شدلي وهو يمسخ عرقه، ثم انحنى ليتفحص الجسد الملقى أمامه و يتمم ساخطًا:

__ سأعالجه لكن لما تهتمان بهذا الغريب إلى هذه الدرجة؟ من هو؟ وكيف دخل وهو بلا دعوة؟

شعر بكير بالضيق فقال:

__ كفاك أسئلة، لا تكن كالعجائز، تتحدث دون أن تفكر! افعل ما عليك قبل أن يفوت الأوان.

(شدلي)

__ سأحاول تجاوز هذه الإهانة والآن اخرجنا دعاني أرى ما يمكنني فعله لهذا المسكين.

امثل بكر وبكير ثم خرجا وأغلقا الباب خلفهما، تاركين الطبيب وحده مع صمصام الذي كان يخطر بأسماء غير مفهومة لكن بين الكلمات المتقطعة التقط شدلي اسمًا واحدًا بوضوح:

__ سمراء.....

رفع حاجبه وهو يمتنم لنفسه:

__ اسم جميل.

اقترب من الطاولة، و جرد صمصام من ثيابه ثم مد يده إلى الأرضية حيث نمت شجرة صغيرة وسط الحجرة، جذعها مائل أمسك بأحد فروعها، وسحب خنجره، ثم نغز الفرع بطرف الشفرة.

على الفور سال منها سائل أسود كثيف، سقطت قطرات من ذلك السائل في إناء معدني كان يحملها الطبيب.

حمل الإناء نحو موقد حجري في زاوية الغرفة، أشعل النار، ووضع الإناء فوق اللهب المتراقص وظل يراقب السائل وهو يبدأ بالغليان، متواجًا كالبحر.

تحرك بيده إلى رفوفه المتربة، وأخذ حفنة من الأوراق المجففة، أسقطها واحدة تلو الأخرى في الإناء، ثم أضاف قشر فاكهة البترقان رائحته الحامضة تصاعدت مع البخار. لم يتوقف عند هذا الحد بل التقط حفنة صغيرة من الحشرات المجففة وأسقطها ببطء داخل المزيج، صوت الطقطقة الخافت يؤكد أنها تلاشت داخله. أخيرًا أخرج دودة صغيرة رمادية اللون، أسقطها في السائل فبدأت تتلوى للحظات قبل أن تستسلم للنار.

أمسك ملعقة خشبية، وبدأ بتحريك المزيج، كان يظهر على وجهه عدم التأثر بالروائح التي قد تثير غثيان أي شخص آخر. استمر بالمزج حتى تأكد أن كل شيء قد تماشى، ثم أطفأ النار وانتظر حتى برد الخليط.

عندما أصبح متماسكًا كالعجين، أخذ حفنة منه، مدّها بأصابعه حتى أصبحت على شكل طبقات رقيقة، ثم بدأ في لفّها حول جروح صمصام.

ضمادة فوق رأسه، حيث الجرح الذي سال منه الدم.

ضمادات أخرى على قدميه المتورمتين، حيث أثر الرحلة الشاقة.

طبقات على بطنه وظهره حيث الكدمات الغائرة.

ألقي نظرة أخيرة على عمله، ثم تمّ ساخرًا وهو يجفف يديه:

— إن عاش فقد كان قويًا بما يكفي ليستحق الحياة، وإن مات فلا ذنب لي كلنا سنموت على أي حال.

بعد مرور يومين لم يشعر بهما صمصام، فتح عينيه المغمضة أخيرًا، جفونه ثقيلة كأنها تحمل أطنانًا من الغبار. تنفس بعمق فتسللت رائحة الأعشاب والدخان إلى أنفه لكنه أدرك شيئًا.

كان يتنفس بحرية دون قناع الاستنشاق.

تحسّس صدره العاري، ثم نظر إلى الضمادات السوداء التي تغطي جسده. بدأت يده ترتجف وهو يزيل أول ضمادة عن كتفه متوقعًا رؤية جرح متعفن لكنه وجد جلده سليمًا كأن لم يكن هناك جرح قط.

أزال أخرى عن صدره ومن ثم عن ذراعه وكلما أزال ضهاده، اكتشف أن جسده قد تعافى.

وقبل أن يستوعب الأمر، انفتح الباب، ودخل شدلي، عيناه فاحصتان كعادته. عندما رآه يتحرك رفع حاجبه وقال بنبرة جافة:

__ لا ترهق نفسك استرح.

لكنه لم يكن لديه وقت للراحة جلس على الفور وألقى نظرة سريعة حول الغرفة، ثم ثبت عينيه على الرجل الغريب أمامه وسأله بحذر:

__ أين أنا؟ ومن أنت؟

أجاب شدلي دون أن يبدو عليه أي تأثير:

__ أنا شدلي، طبيب قرية نيمورا، وأنت الآن في منزلي.

__ هل أنا في نيمورا... قالها بينما اتسعت عيناه من الدهشة.

أوماً .

__ نعم، الأخوان بكر وبكير أحضراك إلى هنا.

تجهم وجهه وتذكر آخر ما حدث قبل أن يفقد وعيه.

__ من هما؟

قال وهو ينظر إليه كأنه يتحدث إلى طفل:

—حارسا باب القرية.

صرخ بينما صوته كان ممتلئًا بالغضب والارتباك:

—كيف هذا؟ لقد حاولا قتلي!

رفع شدلي كتفيه بلا مبالاة، كأن الأمر لا يخصه.

—لا أعلم ما حدث لكن ما أعلمه هو أنك قوي بما يكفي لتبقى على قيد الحياة.

حدق في الأرضية وكأنها ستمنحه إجابة، ثم رفع رأسه فجأة وسأل بصوت مضطرب:

—منذ متى وأنا هنا؟

أجابه شدلي دون أن يطرف له جفن:

—يومان.

اتسعت عيناه، وشحب وجهه، كأن صاعقة ضربته.

—يومان! مستحيل قد تكون رحلت!

(شدلي بفضول)

—من؟

صمصام لم يجب بل تتم بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:
__ لا وقت... لا وقت.

حاول أن يقف لكنه ترنخ وسقط على ركبتيه، كان صدره يعلو ويهبط مع سعالٍ حاد.

أسرع شدلي للإمساك به، لكنه أبعد يده بعناد، ونهض مرة أخرى، ورغم ألم جسده زحف إلى زاوية الغرفة حيث غلق قيصه، سحبته بعنف وارتداه على عجل. ثم التقط سلاحه:

__ سأذهب إلى الجده زهيره..

تهدد شدلي وكأنه يتوقع هذا العناد ثم أشار إلى طاولة صغيرة حيث وُضع طبق من فاكهة البترقان وكوب ماء.

__ تناول بعض الطعام أولاً.

أخذ صمصام الفاكهة والتمهما بنهم، دون أن يكلف نفسه عناء تقشيرها، ثم تناول كوب الماء وشربه جرعةً بعد أخرى، حتى هدا نفسه قليلاً.

وضع الكوب جانباً ومسح فمه بكم قيصه، ثم نظر إلى شدلي وقال بامتنان :

__أشكرك على حسن ضيافتك، لم أكن أعلم أن هناك من يساعد الآخرين في هذا العالم الموحش.

(شدلي)

__ لا تنظر إلى ما أصبح عليه الناس، بل فكر فيما قد يصبحون عليه إن صرت مثلهم.

ثبت صمصام عينيه عليه للحظة ثم أوماً بصمت.

التفت شدلي نحو الباب ونادى:

__ماهر.

بعد لحظات، دخل رجل طويل منحنى القامة اعرج القدم.

قال شدلي وهو يشير إلى صمصام:

__خذه إلى بيت الجدة زهيرة، ولا تتركه إلا عند بابها.

أوماً ماهر دون نقاش، ثم نظر إلى صمصام وقال:

__اتبعني.

شدّ صمصام قبضته على سلاحه، ثم تبعه دون تردد.

سار بخطوات غير ثابتة خلف ماهر الاعرج، ينظر حوله بحذر، محاولاً أن يفهم هذا المكان الجديد الذي وجد نفسه فيه و بعد لحظات قال:

__هل تعرف ذلك الطبيب جيداً؟

أجابه ماهر دون أن يلتفت:

__نعم أنا مساعده.

(صمصام)

__يبدو أنه يحب فعل الخير.

ابتسم ماهر ابتسامة خفيفة، لكنها كانت غامضة ثم قال بصوت يحمل مزيحاً من السخرية والحيرة:

__ لا أعلم عنه شيئاً ثابتاً يجرح ويدمل يبصق ويجفف لا يستقر على حال.

تجهم وجه صمصام وقال باستغراب:

__لا أفهم كيف يكون هذا؟

ضحك ماهر ضحكة قصيرة وقال:

__ولن تفهم أنا مساعده منذ سنوات ولم أفهمه بعد و لم أعلم إن كان ملاك رحمة أم جزاء.

شعر صمصام بقشعريرة خفيفة تسري في جسده، فالتفت لا إرادياً نحو منزل
الطبيب، حيث تأمل الجمجمة المرسومة
و همس لنفسه:

__ غريب هذا الرجل

لكن قبل أن يغرق في أفكاره توقف ماهر وأشار إلى منزل زهيرة:

__ لقد وصلنا هذا هو منزل الجدة زهيرة.

استدار ورحل دون كلمة أخرى وقف صمصام أمام الباب حينها كانت يده
متردّتان، عينه على الخشب وقلبه يضرب صدره كالطبول لم يكن الخوف من
مواجهة سمراء هو ما جمّد يديه، بل الخوف من غيابها أن يكون تأخره اضاعها من
يده.

تخيّل المشهد الأسوأ الباب يُفتح ولا يجدها.

طرق الباب فخرجت زهيرة، عيناها كانتا تشعان بالحذر والتردد، كما لو أنها تزن
الواقف أمامها:

__ من أنت؟

أجاب:

—صمصام.

لم يظهر عليها شيء من الدهشة او الترحيب، ولا حتى ضيق، نظرتها كانت صلبة
كسياج من الأشواك.

— وما الذي تريده؟

(صمصام)

— أبحث عن سمراء هي تعرف أنتي قادم.

صمتت زهيرة لحظة، كأنها تفكر في كلماتها قبل أن تلقي بها كسهام في صدره:

— لقد ذهبت لتتزوج ابن عمها.

ارتجف صوته رغم محاولته الثبات:

— لا.... لا... لا يمكن.

(زهيرة)

— ولماذا لا يمكن لقد وعدتها أن تأتي في سبعة أيام ولم تأتي ماذا كنت تنتظر
منها .

(صمصام)

__ لقد مررت بما لا تتخيلينه!

(زهيرة)

__ لم تعد تريد سماعك، ولقد تركت لك رسالة على لساني .

ثم بصوت لم يكن فيه ذرة تعاطف اردفت:

__ ابتعد عني، لقد انتهى وقت اللعب، فنحن أعداء ولن نصبح غير ذلك.

تراجع صمصام خطوة، كأن الكلمات دفعته للخلف:

__ أنتِ تكذبين.

(زهيرة)

__ هذه هي الحقيقة سواء تقبلتها ام لم تتقبلها، سنظل الحقيقة.

ثم أغلقت الباب بقوة في وجهه.

تماشى في أزقة نيمورا بينما خطاه تقطر خيبة كان قلبه يحمل أعباء ثقيلة، لكنها لم تكن شيئاً أمام ما كُشف الآن، وهو منغمس في حزنه رمق فجأة في ظلال المصاييح الضعيفة المعلقة في الأرجاء شخصاً أو ما تبقى من شخص فقد كان بوجه أخضر ملامحه كأنها قالب من اللحم أُعيد تشكيله بطريقة خاطئة، أسنانه طويلة، ملتوية، وابتسامته مرعبة بينما يدها تحركان ذراع ترس المصعد.

اندفع صمصام على عجل ثم اخرج السيف من غمده وقام بطعن المتحول فأسقطه أرضًا بلا حراك.

لكن الكابوس لم يكن ذلك الرجل بل ما كان يرفعه المصعد.

حين بلغ المصعد سطح القرية انفتح كأفواه جائعة، وخرج منها الجحيم ذاته.

أجساد كانت بشرًا يومًا ما، لكنها الآن مشوهة و ممزقة، عيونها جوفاء، أنيابها متسخة، وأصواتها ليست سوى صدى جوع لا يشبع، ثم كما لو أن الجحيم لا يأتي وحيدًا، بدأوا يركضون وحيثما سقط واحد، نهض اثنان، وحين يتم عض اي شخص ينضم ضحية جديدة إلى الطوفان الأسود كان كل شيء ينهار.

صرخات وأصوات خطوات رাকضة و رائحة الدم وصياح اجتاح المكان .

صمصام بين كل هذا، كان يركض لم يكن يفكر سوى بشيء واحد النجاة بالوصول إلى زهيرة.

وصل إلى بابها حينها بدأت يدها تضربان الخشب بعنف قائلًا.

— افتحي الباب يا جدة المصابون اجتاحوا القرية!

صوته خرج كهصوت ناجٍ يصرخ في بحر هائج، كان يعرف أن كل ثانية تمضي تقربه من الموت، لكن الباب ظل مغلقًا.

__ زهير||||||| افتحى الموتى اجتاحوا القرية.

لكن الرد جاء قاسياً كحكم محكمة لا استئناف فيه:

__ اذهب من هنا يا صمصام و لا تحاول خداعي.

((الفصل الثالث عشر: نيمورا تحترق))

قبض على قبضة الباب واستمر يضرب بكفه.

__زهيرة بحق السماء صديقي ...اجتاحوا القرية لقد قتلوا الجميع.

قلبا كان يصرخ خلف الباب لكن عقلها كان يكتبته، غير أنها حين أصغت الى الخارج سمعت الصرخات التي بدأت تعلوا وتقرب أكثر فأكثر حينها علمت انه لم يعد هناك مجال للإنكار.

فتحت الباب ثم مدت يدها و سحبته إلى الداخل منتشلا من بحر الجثث ثم أغلقت بقوة اسندت ظهرها علي الباب وهي تهج بعنف.

تراجعت للخلف، أصابعها تهتز، عيناها تائهتان، سارت بضع خطوات وهي تضرب بقبضتها راحة يدها الاخرى ثم توقفت و همست:

__ القرية....ضاعت.

وضعت أذنهما على الباب، فأصغت إلي ما يحدث كانت الأصوات تمزق الهواء، كأن
آلاف الأرواح تصرخ في آن واحد، أصوات العظام تتكسر، الأبواب تُحطم، الأرض
ترتجف تحت وطأة خطوات ثقيلة لا تنتمي للبشر، كأن الموت قد ترك شكله المألوف
وصار يمشي على قدمين.

قالت بصوت خافت بالكاد يخرج من بين شفطيهما المرتجفتين:

__ماذا سنفعل؟

(صمصام)

__لا أعلم...

(زهيرة)

__كيف بدأ هذا؟ كيف حدث؟

(صمصام)

__لا أعلم لكنه بدأ من المصعد..

ابتلعت ريقها وهي تنظر إلى الباب ثم همهمت:

__إنهم هنا ولا شيء سيوقفهم الآن.

وضع يده على فمه يجلس سعاله قبل أن ينفلت منه.

التفتت إليه زهيرة:

— يبدو أنك مريض، لكن لا تُصدر أي صوت.

أوماً برأسه، ثم قال بصوت خافت:

— هل يمكنني الصعود إلى العلية؟

أشارت إلى زاوية الغرفة، حيث كان سلم خشبي مطويًا في الأعلى، أمسكت بعصاها الحديدية، وضربت بها طرف السلم حتى تحرر ونزل ببطء، تحرك صمصام نحو السلم، لكن قبل أن يمد يده لمساعدتها، زجرته بنظرة حادة:

- قد أبدو عجزًا، لكنني لست عاجزة.

بعدها صعدت بخطوات واثقة، وسحبت السلم خلفها.

تطلع صمصام من النافذة الصغيرة التي كانت في العلية فتأمل الجثث التي تملأ الشوارع، بعضهم يُلثم حيًا، وبعضهم يتحول أمام عينيه.

التفت إلى زهيرة فوجدها متسمة في مكانها، فمها مفتوح، عيناها متسعتان:

- لا... لا... لا!

فجأة رفعت رأسها لتصرخ، لكن يده كانت أسرع أغلق فمها قبل أن ينطلق صراخها أخذت تضربه بقبضتيها المرتعشتين، تقاوم يده التي تمنعها من التفوه لقد شعر

باضطرابها، لكنه لم يكن هناك وقت للشفقة فقام بضربها ضربة خفيفة على مؤخرة رأسها فأسقطها مغشياً عليها.

بعد قليل فتحت عينيها بثقل امسكت رأسها تحاول ان تستعيد توازنها حتى وقعت عينيها على صمصام:

__أيها الأحمق هكذا تعامل كبار السن؟

قال بهدوء وهو يمسخ عرقه:

__ لو صرختِ لكنا جميعاً أمواتاً الآن.

صمتت ثم عادت للنظر من النافذة لكن هذه المرة لم يكن هناك صراخ بل دموع صامتة تسيل على خديها المجعدين.

همس لها:

__يا جدة ماذا رأيتِ جعلكِ تبكين ؟

رفعت يدها وأشارت نحو رجل بعيد وسط الفوضى.

__ذاك الرجل الذي يرتدي تاجاً مضافوراً من أغصان الأشجار.

نظر صمصام فرآه رجل طويل يتهادى بين الموقى، عينيهِ مطفأتان، جلده رمادي باهت والتاج فوق رأسه يرمز لسلطة زالت مع سقوط نيمورا:

—من يكون؟.

(زهيرة)

—ذاك الجحلاف....عمدة نيمورا كان صديق زوجي وكان كالأخ لي بعد موته، هو من رعاني طوال حياتي والآن انظر إليه.

وضعت يدها على فمها، تحبس شهقة الألم، فوضع صمصام يده على كتفها برفق:

— لا تدعي الحزن يسرق منك قوتك، حتى استطيع اخراجك من هنا.

نظرت إليه ثم مسحت دموعها، وابتسمت بسخرية:

— تُخرجني... اهتم بشؤونك يا صبي، انت لا تعلم زهيرة بعد.

غرست أصابعها في طرف ثوبها الطويل ثم مزقته بحركة واحدة من الركبة حتى الكاحل، كاشفة عن بنطال عريض يتيح لها الركض والانتفاض ثم جمعت شعرها الأبيض للخلف ولقته بإحكام حتى صار كعكة مشدودة عند مؤخرة الرأس.

تقدّمت ناحية السقف ثم رفعت لوحًا خشبيًا بالكاد يرى بين العوارض، ويدها الأخرى سُحبت منها غبرة سنوات لم تلمس. مدّت يدها داخل الجحر، وأخرجت قوسًا أسود، سطحه مصقول وبارد بعده أخرجت كنانة جلدية، علّقتها على كتفها وأحكمت رباطها على الخصر.

اختبرت شدة وتر القوس بجزه حتى حافة وجهها لم يصدر صوت فقط انقباض
خفيف في عضلات ساعدها.

التفتت نحو صمصام:

__ قد اكون جدة، لكنني لن أموت دون قتال...

(صمصام)

__ لا أعلم أهي غطرسة أم شجاعة، لكنك تروقين لي.

تسلل بعدها بينما قبضته تشدد على مقبض سيفه:

__ يجب أن نخرج من هنا.

تحرك نحو السلم، لكنه تجمد في مكانه عندما رأى الظلال تتحرك في الأسفل التفت
إلى زهيرة وهمس:

__ لقد دخلوا المنزل.

(زهيرة)

__ إذا لمنحهم نهاية يستحقونها.

أشار لها صمصام بالنزول فوضعت قوسها خلف ظهرها، وتمسكت بعصاها وهي تهبط بحذر، لكنه شعر بالتوجس من خطواتها، ثم حدث ما كان يخشاه...
طقطقة خفيفة صدرت من العصا عندما لمست الأرضية.

في الخارج، توقف أحد الوحوش عن التجوّل، استدار ببطء وكأن الصوت أعاده إلى الحياة، ثم أصدر صرخة مريعة، لم تكن مجرد صرخة، بل كانت نداء.

و في لحظة واحدة، اهتزت القرية بصوت الأقدام المتراكضة وتعالّت صرخات الجثث الحية وهي تتدافع باتجاه المنزل، تدق الجدران، تخمش الأبواب، تزار بجوع بدائي.

قفز صمصام إلى العلية، وسحب زهيرة خلفه بسرعة، في حين كانت يداها لا تزالان تعملان بثبات مُذهل، تُطلق السهام الواحدة تلو الأخرى كل سهم كان يجد هدفه، لكن الأعداد لم تكن تنتهي.

تراجع صمصام وهو يقاتل، حتى وطأت قدماه أرضية العلية لم ينتظر أكثر أمسك بالسلم الخشبي وسحبه بقوة لمنع الوحوش من الصعود.

تحركت زهيرة بجانبه ثم نظرت للأسفل فرأت الجحيم يتصاعد، أدركت أن المنزل لم يعد ملجأً بل مصيدة نظرت إلى صمصام ثم قالت بصوت هادئ رغم الفوضى:

__علينا إيجاد طريق آخر أو سنموت هنا.

جلس متكئاً على السلم ثم نظر إليها باستهزاء:

_اجلسي يا عجوز، أو نامي قليلاً فالموت لن يذهب إلى أي مكان.

ضحك وهو يستلقي على ظهره، لكن صرخت فيه بغضب:

_هل فقدت عقلك؟ نحن سنموت وأنت تفكر في النوم؟!

رفع كتفيه بلا مبالاة:

_أريد قليلاً من الراحة قبل أن أقتل.

(زهيرة)

-أنت بارد كالثلج.

(صمصام)

_ماذا يغضبك على الأقل أنت أفضل مني؟ تجاوزت الثمانين ، ورغم ذلك
تتمسكين بالحياة بكل قوة، أما أنا مازالت في وسط العشرينات ، ولا أريد ان
أبقى فيها، ولا أهتم إن مت الآن.

(زهيرة)

_لا يهمك؟ حقاً؟

نظر إليها بفضول ثم جلس مستنداً إلى مرفقه وسألها:

ماذا تقصدین؟

تہدت و قالٲ:

هناك حقيقة إن عرفتها، ستفعل المستحيل للخروج من هنا.

وما هي؟... قالها والفضول ينهشه.

لكن قبل أن تتحرك شفاه زهيرة للإجابة، شق صوت نداء عالي ضجيج المكان.

صمصا اام!

تأمل الصوت فأتسعت ابتسامته على الفور وقفز واقفاً:

_____ هذا صوت صفيدر!

(زهيرة)

— من صفیدر؟؟؟

(صمصام)

— صدیقی

أسرع إلى السلم ثم قام بفتحه وقفز إلى الأسفل، لتستقبله ساحة معركة محترمة.

كان بالأسفل جماعة الوريد يقاتلون بشراسة لا توصف صفيدر في المقدمة كالعاصفة فأساه يقطعان الهواء والموتى على حد سواء وهناك من يحمل رمحًا ثقيلًا يطيح بالوحوش بضرباته المتعددة، وآخر يتلاعب بسيفه كأنها امتداد لجسده، يغرسه بلا تردد وقناص يثبت قدميه، يطلق الرصاص من بندقيته وعلى ظهره قوس يشهد على مهارته، المشهد أشبه برقصة مجنونة بين الحياة والموت.

لم يتردد صمصام عندما سحب سيفه وانضم إلى الدوامة وتحرك كأنه جزء منها. أما زهيرة فثبتت عصاها للحظة ثم نزلت بتوازن حذر، ثم وضعت العصا جانبًا أمسكت قوسها وسحبت سهمًا بثقة.

__لن أترككم تأخذون هذه القرية بسهولة!

أطلقت سهمها الأول، فأصاب ، ثم أتبعته بسهم آخر... وآخر... وكل سهم كان يعني سقوط ميت آخر، أو ما تبقى منه.

مع الوقت أصبح صمصام يقاتل ظهرًا لظهر مع صفيدر، يتحركان بانسجام قاتل، سيفه يشق الأجساد، بينما فأس صفيدر يحطم العظام بلا رحمة.

قال صمصام وهو يرفع سيفه عن رقبة أحد الموتى:

__أتيت في الوقت المناسب!

صفيدر، وهو يسدد ضربة سريعة حطمت صدر أحد الوحوش:

__دائمًا أكون في الوقت المناسب.

اندفع بدر وسط القتال، هو لم يكن يحتاج إلى سلاح، قبضته وحدها كانت كافية لتحطيم الجمجمة التالية، لقد رفع أحد الموتى من رقبته، ضغط عليها حتى سمع صوت العظام تتكسر، ثم ألقي به كدمية مكسورة.

__انتهى وقت اللعب.

ضحك صمصام وهو يلتف ليقطع ذراع أحد الموتى، قبل أن يفرس سيفه في عنقه:

__لا تقس عليهم هكذا يا بدر! دعني أقتل واحدًا على الأقل!

بدر، ساخرًا وهو يسحق جمجمة أخرى:

__ألم يكفك ما قتل؟ الجثث ملأت الأرض قبل ان نأتي.

في وسط كل هذا كانت زهيرة تمسك عصاها بإحدى يديها تتوكأ عليها قليلًا، بينما حملت في يدها الأخرى وعاء معدنيًا كبيرًا اخذته من جانب الحائط، سكبت سائلًا على الأرض في كل مكان تسير عليه.

سألها صمصام وهو يضرب بسيفه:

__ما هذا؟

أجابت زهيرة، وهي تحكم قبضتها على العصا وتدفع أحد الموتى بعيدًا بضربة خاطفة:

__خليط من الزيوت القابلة للاشتعال، سأجعلهم يدفعون الثمن.

كان القتال يشتد، الجميع يقاتلون بشراسة لفتح طريق نحو الخارج ومنه الى المصعد .
صمصام تولى المقدمة وصفيذر بجانبه، بدر يحطم كل من يعترض طريقه، وخلفه
فارس ونجم وباقي رجال جماعة الوريد ، بينما زهيرة كانت تسكب الزيت في كل
مكان كما لو كانت تكتب نهاية نيمورا بيدها.

عندما وصلوا المصعد وقفت زهيرة للحظة، نظرت إلى القرية التي كانت يوماً منزلها،
والآن أصبحت أطلالاً، أمسكت عصاها بيدٍ مرتجفة قليلاً، ثم أخرجت سيجاراً
من جيبتها أشعلته واستنشقت الدخان مقلدة بذلك زوجها وما كان يفعله.

__أنا آسفة يا حبيبي...

قالتها بحب يحمل عطراً من الحزن القديم ، ثم رمت السيجار في الممر وما إن
لامست الزيت حتى انفجرت النيران والتهمت كل شيء على عجل.

وقتها.. خرجت صرخة امرأة التفتت من علوها الاعين.

لقد كانت تلك امرأة محاصرة بين ألسنة اللهب تصرخ، وتستنجد بهم فقال صمصام
في لهفة:

__سأنقذها.

لكن صفيذر أمسكه من كتفه:

__اترك هذا لي.

اندفع وضرب بسيفه كل من يعترض طريقه النيران كانت تجرى تحت قدميه لكنه لم يتوقف حتى وصل لها ولكنها كانت قد فقدة الوعي.

وفي اللحظة التي حمل فيها المرأة بين ذراعيه، خرج أحد الموتى من بين رماد الحريق وقبل أن يهجم عليه ضربت زهرة عصاها بالأرض ، ثم اطلقت سهم بسرعة البرق، اخترق الوحش فأسقطه أرضًا.

التفت صفيدر، فرأى زهرة تقف بثبات، قوسها لا يزال مرفوعًا، بينما عصاها مغروسة بجانبها .

قهقه وهو يقترب منها :

__أحسنيت يا عجوز!

ابتسمت زهرة، ثم نفخت على قوسها كأنها تطفئ نارًا وهمية وقالت:

__نادني جدتي أيها المغرور.

قفز الجميع إلى المصعد ثم ازاح صمصام زراع المقبض، فبدأ بالنزول.

لامست أقدامهم الأرض، كأنهم عادوا إلى واقع مختلف حيث لا شيء مألوف سوى الخطر.

أحكم صمصام قبضته على قماشة قطعها من ثوبه، وسحبها فوق فمه بحذر بينما جالت عيناه في الأرجاء، تمسح الظلام بحثًا عن أي إشارة للخطر، لم يكد يلتقط أنفاسه حتى شعر بشيء ارتطم ب صدره التقطه وبنظرة خاطفه أدرك أن صفيدر هو من ألقاه إليه كان جرابًا من القماش، بداخله كُحلٌ أسود وكمامة مشابهة لتلك التي يرتديها رجال القبيلة.

ابتسم صمصام بسخرية وهو يتمتم:

__أخيرًا....

بهدوء شد الكمامة حول وجهه، ولطخ الكحل في عينيه، فتبدلت ملامحه، ليبدو وكأنه واحد من جماعة الوريث، على الجانب الآخر أخرجت زهيرة قطعة قماش سوداء من جورها ورفعتها إلى وجهها تربطها بإحكام.

أما صفيدر فلم يُضع لحظة واحدة، فقد كان منشغلًا بالمرأة التي حملها طوال الطريق، وضعها على الأرض بلطف ثم خلع كمامته ووضعها على فمها، غير مكترث بالهواء الخانق الذي يحيط بهم.

صمصام لاحظته فتقدم خطوة وهمس بقلق:

__أنت مجنون ستختنق هكذا.

لكن صفيدر لم يبدُ عليه القلق، بل رفع عينيه إلى صمصام وقال:

-لا تخف لقد درّيت رثتي لشهور لكى أستطيع تحمل هذا الهواء لأكثر من ساعة.
لم يكن هناك وقت للجدال أشار صمصام بيده، فانطلقت المجموعة قافزين على ظهور
الخيول، كأشباح تتلاشى في ليلٍ بلا قمر.

سارت القافلة تحمل معها رائحة الرماد القادمة من قرية نيمورا المحترقة.

زهيرة رغم ثباتها الظاهر كانت عيناها تملان ظلًا من الحزن وهي تشيح بنظرها
عن الخلف، على فرسها كانوا قد وضعوا المرأة المغمى عليها امامها، وبينما كانت
تستند على صدرها، أصبحت أنفاسها ثقيلة وجسدها متهاوياً كمن خارت قواه
تمامًا، وفجأة وسط هذا السكون الثقيل صاحت زهيرة:

__توقفوا

شد الجميع لجام خيولهم، فتوقفوا على الفور وتوجّحت الأنظار نحوها.

كان صفيدر أول من تحدث:

__ما الأمر يا عجوز؟ هل أرهقتك الرحلة؟

رفعت حاجبها وردت بصوت اخشن:

__نادني جدتي يا وجه الكلب، وإلا وجدت سهامي تزرع نفسها بين حاجبيك.

قهقهه صمصام محاولاً تهدئة الموقف:

__اهدئي يا جدتي، إنه يمزح فقط.

لكن زهيرة لم تكن في مزاج يسمح لها بالمزاح، أرسلت نظرة باردة نحو صفيدر ثم قالت بحزم:

__هذه الفتاة لم تعد تتحمل الوضع ، فقد ابتلعت الكثير من الدخان.

لم يتردد أحد وقفز الجميع عن خيولهم ومن ثم انشغلوا بنصب خيمة صغيرة في السريع العاجل.

جلست زهيرة تتأمل المرأة المستلقية أمامها وذلك بعد ان ادخلوها الخيمة ، كانت شاحبة، تتنفس بصعوبة كأن الدخان ما زال يطارد رئتيها حتى في غفوتها المضطربة، مررت زهيرة أناملها على جبينها، تتحسس حرارتها ثم زفرت.

ومن جيب صغير في ثوبها أخرجت حفنة من الأعشاب البرية، بدأت تسحقها بأطراف أصابعها.

__ هذا سيساعدها على التنفس.

همست وهي تسكب الأعشاب في وعاء صغير مملوء بماء الوحل، ثم أشعلت ناراً هادئة تحته تصاعد البخار، محملاً برائحة نفاذة قوية امتزجت بالدخان العالق في الهواء.

اقتربت وأزال القناع برفق عن وجه المرأة، ثم قربت الوعاء إلى شفيتها وقالت:

__ استنشقي يا صغيرتي .

ترددت المرأة للحظة لكن جسدها المنهك لم يكن لديه خيار، شهقت نفساً مرتجفاً، ثم آخر، فجأة اهتز صدرها بسعال قوى متقطع، كأنها تحارب الدخان المتغلغل في أعماقها، كان صوتها خشناً، كالسكاكين لكن زهيرة لم تبتعد اعادت الكمامة على وجه المرأة وهى تراقبها .

وقف صفير عند مدخل الخيمة ذراعيه معقودتان، عيناه تراقبان المشهد بقلق:

__ هل ستنجو؟

لم ترفع زهيرة رأسها، لكن صوتها جاء ثابتاً:

__ طالما هناك نفس واحد هناك أمل.

مرت ساعات ثقيلة تلاشت فيها نوبات السعال تدريجياً ،وبدأت المرأة تهدأ، عيناها المتعبة انفتحتا ببطء، تحدقان في الظلال التي ترقص على جدران الخيمة بسبب النار التي اشعلوها في الخارج .

رأت وجوهاً متحفزة لا تعرفها، لكن نظراتها توقفت على زهيرة.

.بصوت واهن، همست:

__ من أتم؟ وأين أنا؟

(زهيرة)

— في أيدي آمنة لا تخافي.

كانت تحاول أن تستوعب عيناها تأهتان وكأنها تحاول فك شفرة ما حدث قبل أن تفقد وعيها، شهقت فجأة ونظرت إلى زهيرة بعينين مليئتين بالدموع:

أين أنا؟ وأين أمي وأبي؟

حاولت النهوض لكن جسدها المتعب خانها، فاقتربت منها زهيرة بلطف وربتت على كتفها بحنان:

— لا ترهقي نفسك يا بنيتي فلقد مررت بالكثير.

لكن صدمة المرأة لم تترك لها مجالاً للهدوء، فصرخت:

— لقد رأيتهم يقتلون أمي ثم.... ثم تحولت... لم تعد هي أصبحت خاوية حاولت قتلي بيديها كيف حدث هذا؟ أين أنت يا أمي...واين... وابي اين هو هل قُتل ام اصبح مثلها؟

شدت زهيرة يدها برفق، صوتها كان دافئ كلمس الأم على جبين طفلها المحموم:

— عليك بالصبر الصراخ لن يعيدها.

كان صوتها كافياً ليخفف من ارتجاف الفتاة، لكنه لم يطفئ النيران في روحها.

التقط صمصام طرف الحديث:

__ لا تثلقي نحن معك ولن تتركك.

ثم التفت إلى الرجال خلفه ونادى بصوت قوي:

__ أليس كذلك يا أبطال؟

صرخوا بصوت واحد:

__ نعم يا سيدي.

ابتسم صمصام بخفة وقال بمزاح:

__ كفانا من الألقاب الرسمية أريد أن أستمتع بلحظة مع أصدقائي.

__ رد صفيدر:

كما تريد يا صمصام.

رفعت زهيرة حاجبًا مستنكرة، وعقدت ذراعيها:

__ أراك تنطق اسمه من أول مرة، ولكن عندما تناديني، لا تفعل سوى مناداتي بـ

العجوز... إن رأسك الذي يشبه رأس الحمار لا يعمل معي..

ضحك صفيدر وقال بمكر:

__ آسف يا جدة

انفجر الجميع ضاحكين، حتى الفتاة نفسها لم تستطع إلا أن تبتسم رغم وجع قلبها.
لكن ابتسامتها سرعان ما خمدت عندما توقفت عيناها عند وجه صفيدر.

حدقت فيه وكأنها تحاول فهم ما يدور في عقلها ثم قالت بتأمل:

__ أشعر أنني رأيتك من قبل... كنت هناك أليس كذلك؟

أجابت زهيرة وهي تشير إلى صفيدر:

__ نعم هو من قفز في النار لينقذك.

__ شكراً لك.

__ هذا واجبي.

تدخل بدر بابتسامة مشاكسة واضعاً يده على كتف صفيدر:

__ أخي هذا بطلٌ خارق لا يترك أحداً في مأزق!

لكن زهيرة لم تشاركهم المزاح:

__ حسناً أخرجوا الآن ودعوها ترتاح.

(صمصام)

__ نحن بالخارج للحراسة إن احتجتِ لأي شيء، نادي علينا.

ثم التفت إليها وسأل بلطف:

__ لكم ما اسمك؟

نظرت إلى زهيرة للحظة، وكأنها تبحث عن الطمأنينة في وجهها، ثم قالت بخجل:

__ اسمي نائلة.

أوما صمصام برضا:

__ حسناً يا نائلة الآن نامي.

جلس الجميع خارج الخيمة كانوا حول النار يحتمون بحرارتها من برد الليل القارس

سأل صمصام زهيرة، بينما كان يقلب قطعة خشب في النار:

__ كيف حالها؟

أجابت وهي تراقب الخيمة كما لو كانت تحرس نائلة بعينها:

__ ستكون بخير.

قال فارس بإعجاب، ناظرًا إلى زهيرة كما لو كان يراها لأول مرة:

__ تتمتعين بروح مقاتلة يا جدة.

ضحكت ، وملاحمها الصارمة ذابت في لحظة دفاء وقالت:

—لم أشعر بهذا الحماس منذ أن رحل زوجي تعلمون يا اولاد كنتُ أنا و عشنار
نجوب المدن، نقاتل الموتى وتسبق في إسقاطهم آه، أيام لا تُنسى!
نظر إليها الجميع بدهشة ، لكن بدر كان أول من قطع الحديث قائلاً بفضول:
—جدة هل تقولين إنك كنتِ مقاتلة تقتل الموتى مثلنا؟!

(زهيرة)

—كنتُ بل لا زلت أفضل منكم جميعاً أيها الصبية!
ابتسموا وهم يتخيلون زهرة الشابة تخوض معاركها القديمة، يقفزون في عقولهم إلى
صورة فتاة صلبة تقاتل الموتى جنباً إلى جنب مع عشنار .
لكن لم يدم تخيلهم سألت زهرة بقلق:
—كيف حدث هذا؟ كان كل شيء بخير
تهد صمصام وقال:

—كان أحد المصابين هو من أنزل يد المصعد كما أخبرتك.
رمش نجم بدهشة، وكأن الفكرة نفسها مستحيلة:

__ لكن المصابون لا يعقلون!

هزّ صمصام رأسه نافيًا:

__ الأمور تغيرت لقد تطورا رأيت ذلك بنفسي، لقد كنتُ في السجن مع أحدهم وكذتُ أخدع بذكائه إنهم أذكاء بطريقة لا توصف... امسوا يعقلون وقد لا تتغير اشكالهم الا عندما يجعون... إذا لم تتحد القبائل قريبًا، ستكون النهاية أسوأ مما حدث في نيمورا.

كُتِّمَت الافواه كأن كل واحد منهم كان يعيد ترتيب أفكاره أمام هذه الحقيقة الجديدة ثم التفت صمصام إلى صفيذر وسأله:

__ كيف عرفتم مكاني؟

ابتسم نصف ابتسامة تحمل القليل من السخرية والكثير من الفخر ثم قال:

__ قصة يطول شرحها، لكن لنقل أنك لم تكن حريصًا على إخفاء أثرك، الجثة التي في الكهف، الوحوش الجريحة والمقتولة التي صادفناها، كنت تترك لنا خريطة من الدم.

وقف صمصام فجأة وكأن حرارة النار لم تعد تكفي لتدفئته أو تُسكت هواجسه، تحرك بعيدًا عن الدائرة المضئية.

ثم رفع عينيه الى السماء الغابرة وتمام:

سمراء...

همس اسمها في داخله كما لو كان سحرًا ممنوعًا ملامحها طافت أمام عينيه ابتسامتها الدافئة، وعيونها التي حملت ألف وعد وأمل لكنها رحلت...رحلت وتركت وراءها كلمات على لسان الجدة كالسهم.

فجأة بدأ صفيدر يسعل بعنف، صوت اختناقه يقطع المسامع، جثا على ركبتيه، يضع يده على حلقه وهو يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة.

دون تفكير أسرع صمصام نحوه، نزع الكمامة عن وجهه، ثم وضعها على فم صفيدر بثبات حاول الأخير دفع يده، متذمرًا:

__ لا..... لا..... لا أحتاجها.

لكن صمصام لم يسمح له بالمقاومة قال بحزم وهو يمسك الكمامة في مكانها:

__ كفك عبثًا سنتناوب على ارتدائها فلا وقت للعناد.

أخذ صفيدر عدة أنفاس عميقة، وبدأ صدره يهدأ تدريجيًا، وبعد لحظات استعاد بعضًا من قوته

في وسط هذا الموقف قال نجم أحد رجال جماعة الوريد

__ هناك شيء لاحظته الآن.

التفت الجميع إليه حتى سأل صمصام :

__ وما هو؟

تنحنح نجم، كأنه غير متأكد مما سيقوله:

__ الجدة..... اسمها زهيرة..... وزوجها كان يدعى عشنار، أليس كذلك؟

هزّ صمصام رأسه دون تعبير واضح، فأكمل نجم بصوت أكثر جدية:

__ لا أعرف امرأة تُدعى زهيرة سوى زوجة الحوت الأحمر السابق..... عشنار!

تبادل الجميع نظرات متفاجئة، عدا صمصام الذي ظل هادئًا .

(زهيرة)

__ الا تعلم أنني والدة جلمود.

كان وقع الكلمات كالصاعقة، انصدم صفيدر مما سمعه ثم نظر إليها بذهول وقال:

__ هل تمزحين معي؟

تحولت نظرته بسرعة إلى صمصام، وكأن كل القطع بدأت تترايط في ذهنه، عيناه

اتسعتا بغضب:

__ لحظة الآن فهمت أنت لم تكن تهرب من جلود، ولم تتخذ نيمورا مخبأً لك كنت تقصدها كنت تريد مقابلة سمراء.

أشار إليه بإصبعه كأنه يواجهه بجرمة:

__ ألم أحذرك من هذا؟ تحب ابنة الشخص الذي أراد قتلك! ألم أخبرك أن هذه العلاقة ستقودك للهلاك؟ هل جنت يا صمصام؟

(صمصام)

__ لا تقلق فلم يعد بيننا شيء، هذا لو كان هناك شيء من البداية.

(صفيدر)

__ ماذا تعني؟

(صمصام)

__ لقد تركت سمراء، أو ربما هي من تركتني، لا يهم فلقد انتهى كل شيء.

زهيرة لم تمهله ليستوعب كلماته فاجأته بقولها:

__ حفيدتي لم تترك لك أي رساله.

اهتزت أنفاسه، قبل أن يقول:

__كذبت عليّ...ولماذا؟

(زهيرة)

__لأنّني أردت أن أحمي حفيدتي.

(صمصام في غضب هادر)

__تحمين من؟ أنت لم تريدي سوى حماية غرورك... فرقت بين قلبين فقط من أجل مصطلح أوجدته بنفسك.

(زهيرة بصرامة)

__فعلت ما يجب فعله.

ضحك باستهزاء ثم قال:

__فعلت ماذا؟ هل هناك شيء آخر غير كذبك عليّ؟

(زهيرة بثقل)

__ نعم لقد بعثت برسالة إلى والدها وهو من جاء وأخذها بالقوة ولهذا سمراء ستزوج نفيل.

ازداد صياحه أكثر من ذي قبل، ثم أمسك يدها بعنف، وبدأ يضرب نفسه بها وهو يصرخ بجنون:

__اضربيني أكثر... أكثر... هل هذه حمايتك؟ هل هذه حكمتك؟

حاولت سحب يدها لكنه لم يتركها، نظر إليها بعينين جاحظتين:

__ أنتِ فقط تريدین تزويجها لابن ابنك الآخر ولا يهمك أي شيء.

جذبت يدها من قبضته بقوة:

__ كفاك لعب أطفال فلا يمكن للحوت الأحمر أن يتحد مع الحوت الأزرق ولو كنت سمحت لعلاقتكما بالاستمرار، لسالت الدماء في الطرقات كما تسيل دماء الأنعام.

(صمصام)

__ ومن قال إن الدماء ستتوقف الآن؟ بل ستصبح كالأنهار لكن الفرق الوحيد أن المعافين هم من سيقتلون بعضهم وليس المصابين.

ثم اقترب منها صوته عاد هادئاً لكنه مشبع بالغضب الغير ظاهر:

__لقد دمّرت حياتنا جميعاً يا زهيرة... لو كنت تزوجت من سمراء على الأقل سيكون هناك أمل في الصلح بين القبيلتين، لكن الأمل انتهى والدماء وحدها ستكتب الفصل التالي..

(زهيرة)

__ لا تشعرني بالسوء على ما فعلته أتم يا أطفال هذه الأيام لا تعلمون مصالحكم!

(صمصام)

__ ومن يعلمها إذا؟ أتم؟ الكبار الذين منذ أن كنا أنصاف أجساد في أرحام أمهاتنا،
قررتم مصيرنا قبل أن نولد؟ جعلتم هذا العالم قاسيًا ثم أتيتم تتهموننا بأننا لا نعقل
ولا نعلم.

لم ترد زهيرة على كلماته فأردف:

__ لا تشعريني بتلك الغصة التي تخرج من فمك.

(زهيرة)

__توقف

(صمصام)

__ولماذا أتوقف؟ أنتِ تعلمين أنكِ أخطأتِ ومع ذلك تكابرين.

صرّحت زهيرة أخيرًا:

__ نعم أخطأت أخطأت تريد المزيد؟ أخطأت أخطأت

(صمصام)

__ اعترافك لن يفيد.

(زهيرة)

__ لم أكن أريد قولها لكن اعترافي سيفيدك ...لأن سمراء ستتزوج يوم الأحد القادم.

(صمصام)

__ اليوم هو الأربعاء.

أومات زهيرة مؤكدة.

لم يتكلم صمصام بل استدار وتحرك بعيدًا عنهم كان يريد بعض الوقت بمفرده يخلوا مع نفسه يحدثها وتحديثه. بعد ان أحس انه بعيد البعد الكافي جثى على ركبتيه يتحسس التراب، كأنما يبحث عن شيء ضائع همس باسمها بصوت بالكاد يُسمع:

__ سمراء كانت الأفكار تعصف به قلبه يمزقه الغضب والحب في آن واحد، كيف حدث هذا؟ ماذا يفعل الآن؟ لكن لم يكن هناك وقت للضياع فبعد وقت قصير رجع مرة اخرى إليهم ثم قال:

__أنا سأذهب إلى قبيلة النار.

انفض صفيدر، وحلق فيه وكأنه يسمع جنونًا:

_هل أنت أحمق!!!!

(صمصام بغضب)

_تعلم أن تحترم سيدك جيداً، يبدو أن معاملتي الطيبة جعلتك تنسى حدودك.

خفض صفيدر عينيه على الفور وقال :

_آسف يا مولاي ولكن.....

قاطعه صمصام بحزم:

_ لا يوجد لكن... قررت وانهى الأمر.

تهدد لكنه لم يجادل هذه المرة ليقول بعد لحظات:

_حسناً لن أعترض ولكن ابقَ حتى الصباح وسنأتي معك بعد أن نطمئن على نائلة والجدة فلا يمكننا تركهم هكذا.

(سأذهب وحدي)

_ سأذهب وحدي.

(نجم)

__ لن يكون ذلك حلًا، إن ذهبت وحدك قد تُحبس كما حدث في المرة السابقة، وستتزوج سمراء نفيل أو يحدث الأسوأ قد تُقتل، وحينها ستتزوج سمراء نفيل أيضًا.

ووضع يده على ذقنه يفكر للحظات، فقد كانت كلمات نجم منطقية رغم أن غضبه كان يصرخ به ويأمره بالركض الآن دون تفكير
أخيرًا أوامًا موافقًا ثم جلس في أوسطهم محدقًا في النار حتى انخمدت بينما راح الجميع في النوم إلا هو.

فلقد كان قلبه مشتعلًا أكثر من الجمرات التي أطفأها الليل

((الفصل الرابع عشر: الثوراء))

في صباح اليوم التالي كان الضباب ينساب بين الأشجار يلف المكان بسكون عظيم، بينما البرد يزحف إلى عظام الرجال النائمون في العراء، هناك تسلفت الرياح الباردة بين أوراق الشجر المتشابكة استيقظت من شدتها جماعة الوريد، كان جسد كل واحد منهم منهك لكنه مستعد ليوم آخر من البقاء في وسط هذا العالم القاسي. نفخ نجم كمامته عن وجهه، ومسح قطرات الندى المتجمعة على رموشه، قبل أن يقول بصوت ما زال يحمل آثار النوم:

__ ما رأيكم أن نبحت عن طعام قبل أن يأكل أحدنا الآخر؟

رد صفيدر وهو يشد حزام فأسه حول خصره :

_ لا تقلق إذا نفذ الطعام، ستكون أنت وجبتي الأولى.

ارتفعت الضحكات، لكنها سرعان ما انطفأت عندما رفع صمصام يده مشيرًا لهم بالسكوت:

_ هدوء نحن لسنا وحدنا.

تحرك الجميع على الفور ثم توجهوا الى مصدر الصوت مبتعدين قليلًا عن الخيمة. كانوا يتبادلوا النظرات أصابعهم تشددت على قبضات أسلحتهم، وأعينهم راحت تمسح كل زاوية تبحث عن الخطر المختبئ، ثم في لحظة حدث ما لم يكن في الحسبان.

الأرض اهتزت كان الارتجاج طفيفًا في البداية لكن سرعان ما تصاعد إلى موجة من الرعشات التي زلزلت الصخور الصغيرة تحت أقدامهم.

همس بدر وعيناه تتسعان:

_ ما الذي يحدث؟ هذا ليس طبيعيًا..

لكنهم لم يحتاجوا إلى إجابة، فقد انبثق الوحش من بين الظلال.

الثورعا.

مخلوق لم يسمعوا عنه إلا في قصص الهارين من الغابة، جسده الضخم يمزج بين
هيئة الثور وجنون الوحش البدائي، جلده الأسود القاتم بدا متشقّقاً كالأرض
العطشى، فيما غطت أطرافه الأشواك الحادة اما عيناه الحمراوان اشتعلتا كجمرتين
جائعتين، وأنفاسه الثقيلة أطلقت صفيراً مربعاً، فيما كان ذيله الذي يشبه
المكنسه ينتهي بمنجل ضخّم، يضرب به الأرض كأنما سيختار من خلاله الضحية
الاولى

كان نجم اول من نطق:

— إنه الثورعا لم أكن أعتقد أن هذه الأسطورة حقيقية!

لكن لم يكن هناك وقت للدهشة، فقد انطلق صمصام إلى الأمام وهو يصيح:

— خذوا مواقعكم.

توزعوا بسرعة كل منهم كان يدرك أن هذه المواجهة قد تكون الأخيرة، بدر وفارس
تحركا من اليسار، بينما أخذ نجم وزهد وصفيدر الجانب الأيمن، أما صمصام فثبت
نفسه في الأمام رفع سيفه بينما عيناه لا تفارقان الوحش ومن خلفه وخلف الثورعا
وقف الباقيين.

زأر بصوت كالرعد الذي شق السحب ثم انطلق نحوهم بسرعة هائلة، كأن الأرض
نفسها لا تستطيع إيقافه.

نزع صمصام فأس بدر ثم صاح وهو يلوح بها.

__ تعال إلي.

قفز الثورعا عاليًا ثم ضرب بذيله المنجلي صمصام بالكاد تفادى الضربة، لكنها شقت الأرض من خلفه، مخلفة حفرة عميقة.

صرخ فارس وهو يلهث من الخوف والتوتر:

__ماذا سنفعل؟

لكن صمصام لم يتردد:

__صفيدر غطى تحركي والباقيين اجذبوا انتباهه.

اندفع صمصام نحو الوحش بسرعة قافزًا عاليًا، وييده الفأس يحملها بكفتي يديه، ثم التقي بها بكل قوته نحو رأس المخلوق لكن الفأس لم تخترق جلده فقد اصطدمت بالسواد الصخري، وارتدت بعيدًا.

صرخ نجم وهو يراقب المشهد:

__هذا الجلد أصعب من الصخر!

وضع زهد يده اليمنى على ذقنه التي تغطيها الكمامة، ثم سحبها إلى الأسفل بينما كان يفكر بعمق، وفجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة غير مكتملة، يكسوها شيء من السخرية التفت إلى صمصام ونادى بصوت مرتفع:

__ نقطة ضعفه عموده الفقري!

(صمصام بدهشة)

__ وكيف عرفت؟

(زهد)

__ لاحظت أنه عندما يقع على ظهره شيء يتألم... انظر بنفسك التقط صخرة صغيرة من الأرض، وألقاها من بعيد على ظهر الوحش، وما إن أصابت منتصف ظهره حتى صرخ بقوة واستدار هائجاً نحو زهد ثم ضربه ضربة عنيفة فتفجّر جرحٌ في رأسه وسقط زهد مغشياً عليه.

صرخ صفيدر من بعيد وهو يصقّر بصوت حادّ، فالتفت الوحش إليه وترك زهد ملقّى على الأرض.

ركض صمصام بسرعة نحو زهد ليجسّ عنقه فتمتم بعدها:

__ إنه حيّ.

أوماً لبقية الرجال فانطلقوا صارخين، يشهرون سيوفهم ويهاجمون الوحش من كل اتجاه، محاولين تشتيت حركته ليشغلوه.

وفي لحظة ارتباكٍ من الثورعا، قفز صفيدر من الخلف مستغلًا الفرصة، وغرس سيفه الطويل في سلسلة ظهره، حيث كان الجلد أقل سماكة، فارتج الوحش من الألم وارتفعت صرخته في السماء، وحينها بدأ يدور حول نفسه يحاول التخلص من الألم. وجد صمصام الفرصة التقط الفأس مرة أخرى وقفز فوق ظهر الثورعا، موجّهًا ضربة قوية إلى عموده الفقري.

تجمد الوحش للحظة، عيناه الحمراءوان تلاشتا في ظلمة مفاجئة، ثم سقط جسده الضخم على الأرض، مثيرًا غبارًا كثيفًا ساد الصمت لثواني حتى جلس بدر ووضع يديه على ركبتيه وهو يلهث:

__ هل انتهى ؟ أم أنه سيقوم مجددًا ليأخذنا معه ؟

ضحك صفيدر رغم الإرهاق الذي نال منه وقال:

__ إذا قام سأقتله مرة أخرى.

تبادل الاثنان النظرات ثم انفجرا ضاحكين، ليس لأن الأمر كان مضحكًا، ولكن لأنهم نجوا من وحش لم يعتقدوا يومًا أنه حقيقي.

اقترب الجميع من زهد ليطمئنوا عليه، فحشا بدر إلى جواره، ثم لطمه على خده مرتين وهو يصرخ:

__ استفق يا رجل.

تأوه زهد قليلاً، ثم فتح عينيه ببطء، وبابتسامة باهتة قال:

__ ظننتُ أنني مت.

ضحك بدر وردّ عليه وهو يساعده على الجلوس:

__ كيف تموت وتتركني أكل ذلك الوحش وحدي.

قهقه الجميع، وانفرجت الوجوه التي كانت متجهمة قبل لحظات

لم يضيعوا وقتهم، بدأوا بتقطيع اللحم الدافئ، ممهدين من العمود الفقري ، هذا لأن الجلد اقل سهاكه في تلك المنطقة، مما سهل سلخه نزولاً الى الأسفل.

حمل كل واحد منهم نصيبه الضخم على كتفه، ثم انطلقوا عائدين إلى خيمة الجدة زهيرة.

قال نجم وهو يحاول تثبيت قطعة اللحم الضخمة على كتفه:

__ لا أصدق أننا قتلنا هذا الشيء فلطالما ظننت أن الثورعا مجرد قصة يرويها العجائز لإخافتنا.

(بدر)

__حسنا لقد تأكدت بنفسك الآن، وأظن أن العجائز لم يبالغوا حين قالوا إنه وحش لا يُهزم لكنهم غفلوا عن جماعة الوريد .

(صمصام)

__ لا يوجد شيء لا يُهزم.

خرجت الجدة زهيرة من الخيمة، كان جسدها النحيل يشي بإرهاق النوم، فجأة طرفت صمصام وجماعته بعينها التان تحملان الدهاء ، كان يظهر الارهاق على اجسادهم بينما الدماء الساخنة لاتزال تقطر من اسلحتهم ومن اللحم على اكتافهم وقفت تتأمل اللحم المشوه أمامها:

__ الثورعا؟ أتم جادون؟ لم أذق هذا اللحم منذ عقود... كيف بحقكم نجحتم في إسقاطه؟

سأل نجم باندهاش:

__هل تعرفين ذلك الوحش..

ردت بامتعاض:

__اعرفه.... هه لقد تذوقه في حياتي اربع مرات، وهذه المرة ستكون الخامسة...
ولكن كيف استطعتم إمساكه، فعندما كنا نصطاده كانت تحسب لنا معجزة إن
قتل منا ثلاث رجال فقط ...اما اتم فلا ارى الا واحداً مصاباً..

ابتسم نجم، وهو يلقي بحزمة حطب بجانب النار، ينفخ فيها لتشتعل:

__ لا تسألني جماعة الوريد عما استطاعوا فعله، بل اسألني ما لا يستطيعون فعله.

بدر وهو يمسح آثار الدماء عن وجهه، وصوت يملؤه الزهو:

__ لولا أنا، لكننا الآن نمضغ الأعشاب كالأغنام.

نظر إليه نجم بعينين ضيقتين ثم قال بسخرية:

__ شجاعتك؟ أنت أشبه بالثعلب تختبئ ثم تنتشل الفريسة التي يسهل سرقها.

ضحكت زهيرة بصوت خافت وهي تغرز أول قطعة لحم في سيف من السيوف
لكي تسويها وقالت:

__ يبدو أنكم بالفعل ميزون، أو ربما مجرد جiac محظوظين.

حين كان صفيدر يراقب نار الشواء التفت الى زهيرة سائلاً:

__ أين نائلة؟ وهل أصبحت أفضل الآن؟

أجابت زهيرة، وعيناها تتابعان تقلب اللحم بإتقان:

__نامت جيداً الليلة الماضية، على ما يبدو أن الأعشاب بدأت تؤتي ثمارها، فحالتها تتحسن تدريجياً.

لم يمر وقت طويل حتى انشق ستار الخيمة، وخرجت نائلة إلى العراء، لم تخف الهالات السوداء التي أحاطت بعينيها جمالها الغريب، شعرها الأسود الطويل، الذي تسلت إليه خصلات ذهبية كأنها شظايا شمس، انعكس وهج النار عليه فأضفى على مظهرها هالة أقرب لأميرة خرجت من بين صفحات ديزني.

توقفت للحظة تتأمل المجموعة التي جلست حول النار، ثم أمالت رأسها قليلاً وهي تستنشق الهواء، قبل أن تسأل بنبرة باردة:

__ما هذه الرائحة؟ هل اصطدتم شيئاً؟

أجابها صمصام، وهو يرفع قطعة لحم بين أصابعه:

__جهزنا لك وليمة لن تنسيها أبداً.

لكنها لم تتحرك، رمقتهم بنظرة شاردة، وكأن عينيها الرماديتين تبحثان عن شيء ما بعيداً عن المكان، ثم قالت بهدوء شبه هامس:

__لا أرغب في تناول شيء.

استدارت مبتعدة، وتركهم خلفها متوجهة إلى زاوية خلف الخيمة.

جلست بصمت وهى ترفع يديها الباردتين نحو الهواء، كأنها تبحث عن دفء مفقود، بينما كانت عيناها تذرفان دموعًا صامتة تساقطت دون صوت.

لم يمر وقت طويل حتى لمحها صفيدر، أمسك بورقة شجر كبيرة، وضع عليها قطعة من اللحم المشوي، وسار نحوها بخطوات هادئة، لم يقترب كثيرًا، فقط وقف على مسافة قصيرة، ثم قال بصوت دافئ:

— هل تسمحين لي بالجلوس بجوارك؟

رفعت نائلة عينيها نحوه، وسرعان ما مسحت دموعها بظهر كفها لتخفي ضعفها، ثم أجابت بصوت خافت:

— نعم.

جلس بجانبها، ناظرًا إلى الأفق حيث كانت تحديق، ثم ترك الهدوء يسيطر للحظات قبل أن يكسره بصوت منخفض:

— أتعلمين؟ لم أخبركِ اسمي... أنا صفيدر

لم تلتفت إليه بل ظلت محدقة في الفراغ أمامها لكنه تابع:

— كنتُ طفلًا عندما فقدت أُمي لم أفهم وقتها معنى الفقد، فقد كنتُ أظن أن العالم سيبقى كما هو، بسيطًا وآمنًا لكن الأمور تغيرت بسرعة.

توقفت أنفاس نائلة لثوانٍ، لكنه لم يلحظ ذلك وأكمل:

__ عشيت مع والدي وكان يعاملني كصديقه الوحيد، علمني كل ما أعرفه عن القتال، الصيد، والنجاة، لكن أول قتال حقيقي خضته كان مأساة، مأساة لا تُنسى.

توقفت نائلة عن التحديق في الفراغ ونظرت إليه بطرف عينيها، بينما تابع:

__ اتذكر ذلك جيداً وكأنه الآن يومها خرجتُ مع والدي لنصطاد وكانت رحلة عادية، أو هكذا ظننت لأن المصايين كانوا أسرع منا، لم أكن مستعداً لما رأيته في ذلك الوقت لقد تدفقوا علينا كالنهر، فلم أرى رحمة في الوجوه أو الانسانية في العيون فقط رأيت أبي... وهم يمزقونه أمام عيني.

تشنجت يد نائلة على ثوبها، بينما أكمل صفيدر بنبرة متهدجة:

__ لم أستطع فعل شيء فكل ما كنت أملكه هو السيف، ويديا التان كانتا ترتعشان بلى توقف، فلم أتمكن حتى من الدفاع عن نفسي.

ابتلعت نائلة ريقها بصعوبة، ثم همست:

__ أنا..... آسفة لا أستطيع حتى تخيل هذا الألم.

هز رأسه، ونظر إليها بابتسامة حزينة:

__ أنا لا أخبرك هذا لت شعري بالشفقة علي فنحن في زمن لا يعرف الرحمة، لكننا يجب ان نحاول النجاة، نحاول أن نعيش رغم كل شيء، اعلمي انّ الحرمان لن يُعيد من فقدناهم، ولن يوقف ما هو مقدر لنا ولهذا علينا أن نتقبل الألم.... ونتقدم.

ثم وضع قطعة اللحم بينهما:

__ كل ما أطلبه الآن، أن تتناول الطعام معًا.

حدّقت في قطعة اللحم ثم رفعت نظرها إلى صفيدر:

__ شعرتُ بجسدك يحملني من النار لقد كنتُ خائفة وسط ذلك الجحيم، ولكن شعرتُ بشيء غريب عندما لمستني، شعرتُ أنني بأمان، حتى وإن كنتُ فاقدة للوعي.

تجمدت ملامح صفيدر فلم يتوقع كلماتها لكنه حافظ على هدوئه وقال مترددًا:

__ حقًا؟

أومأت برأسها ببطء:

__ نعم هناك أشخاص عندما تكون قريبًا منهم تشعر أن كل شيء سيكون على ما يرام، شعور لا يُمكن تفسيره لكنه لا يكذب.

ارتسمت على وجهه ابتسامة دافئة، كأنه يحتفظ بهذه اللحظة في ذاكرته، ثم قال:

—كلماتك هذه لن أنساها والآن، هل ستتناولين الطعام معي؟

تلاشى التردد من وجه نائلة، التقطت قطعة اللحم وقالت بابتسامة صغيرة:

—أجل.

رفعت كلماتها قليلاً، وضعت اللحم في فمها، ثم قطعت جزءاً آخر ومدته إليه وهي

تقول بنبرة أقرب للمزاح:

—دورك الآن.

أخذها منها دون تردد وأكلا معاً بصمت.

لكن اللحظة لم تدم طويلاً.

نادى صمصام بمجدة:

—علينا أن نتحرك الآن.

أدار الجميع أعينهم نحوه، لكن زهيرة هي الوحيدة التي لم تبدى أي أكثرث مما قاله:

—لن آتي معكم سابقى هنا وسأصنع بيتاً وأعيش في نيمورا من جديد.

(صمصام بغضب)

__ هل جنتِ ؟ القرية دُمّرت والغابة يكتسحها الوباء والموت، المصابون في كل مكان، وحتى إن لم يوجد مصابين لن تستطيعي بناء بيت فأنتِ عجوز..

امسكت قوسها:

__ قد أكون عجوزًا، لكن لا أحد يجروُ على الاقتراب مني، ومن يفعل ستكون رأسه هي التي تدفئ انا ملي.

أشار صمصام بيده:

__ كفالكِ كلامًا وتعالى معنا إلى جلمود.

هزت رأسها كأنها تستنكر كلماته:

__ لقد تركتُ ابني منذ زمن بعيد، ثم إنّ روعي هنا في هذه الأرض، هذا المكان هو أنا.

لم يكن هناك جدوى من الجدل معها، فقد قررت وانتهى الأمر، حينها ودعها الجميع ثم تحركوا أخيرًا، تاركين زهرة خلفهم تجلس قرب النار، وتنتظر إلى اللهب كأنه جزء من روحها التي لن تغادر هذه الأرض أبدًا..

نظر صفيدر إلى نائلة بعينين ضيقتين، وهو يمسك بلبجام حصانه في إحكام :

__ هل تعلمين، لم نخبرينا بعد من أنتِ ؟

قالت نائلة:

__ أنا ابنة الطبيب شدي.

أدار صمصام رأسه نحوها في ذهول ثم شدّ لجام حصانه واقترب منها قليلاً وهو يقول

__ ابنة الطبيب الجزار...

ابتسمت نائلة بمرارة وقالت:

__ إذن عرفت لقبه.

أوماً برأسه

__ نعم فلقد كنتُ مريضاً عنده لمدة يومين ولقد كان كريماً معي ولكن لديّ سؤال.

نائلة:

__ وما هو؟

(صمصام)

__ كيف لا تعرفكِ الجدة زهيرة، وأنتِ من سكان قريتها؟ ليس هذا فقط بل إنكِ ابنة الطبيب الذي عالج الكثيرين هناك.

(نائلة)

__ هذا لان الجدة لا تغادر منزلها الا في مناطق قد حددها العمدة لها.

(صمصام)

__ لماذا؟

تغيرت نظرة نائلة قليلاً وقالت:

__ ألا تعلم؟

(صفيدر)

__ أعلم ماذا؟

(نائلة)

__ الجدة تكون سجيئة نيمورا

كانت كلمات نائلة كفيلة بأن تجعله يشد لجام فرسه بعنف ليقفقه، بينما ضاق عينيه
بجدة وهو يكرر بدهشة:

__ سجيئة؟ كيف؟

(نائلة بجدية)

__ لا أعلم التفاصيل، لكن كل ما يعرفه أهل نيمورا هو أن الجدة زهيرة سجيننة عند العمدة ولا يُسمح لها بالخروج إلا للجمع فأكهة البترقان، وملئ المياه، أما من يريد زيارتها في منزلها فلا أحد يمنعه.

أخذ نفساً طويلاً يحاول استيعاب الأمر، ثم سألها :

__ وهل تعرفين عنها شيئاً ؟

ملاح الحزن انسدت على وجهها قبل أن تقول بصوت منخفض:

__أي كان يذهب لمداوتها و عندما يعود من عندها يصبح وجهه متجهماً، كان يقول إنها امرأة سليطة اللسان عجوز متكبرة.

قهقهه بدر فجأة، وهو يرفع حاجبه باستهزاء:

__والدك الجزار؟

لم تحتل كلماته فصرخت فجأة بغضب:

__توقف... الجميع ينادونه بذلك، لكن لا أحد يفهم السبب.

(بدر)

__إذن أخبرينا السبب؟

تهتدت وكأنها تقف عند باب ذكريات مريرة:

__ أبي كان محبًا للترحال، هو وأمي كنا يجوبان الأراضي بحثًا عن ترياقٍ لمداواة
الأموات الأحياء، لكن عندما حملت بي أمي، اضطر للبقاء في قبيلة نيمورا من أجلي
ومنذ ذلك اليوم، لم تغادرها أبدًا...لقبوه بالجزار لأنه كان يستخدم أجساد بعض
البشر كقنّان تجارب وهذا بموافقة العمدة . يشرحهم، يجرب عليهم العقاقير التي
صنعها في سبيل الوصول إلى الترياق حتى انه كان يقوم بعمليات اجهاض من اجل
الاستفادة بالأجنة .

لم يتحدث الجميع وبدلاً من ذلك تحدث نظراتهم، التفت بدر إلى نجم وتدانا
جوادهما من بعضها فأعاد ببصره إلى نائلة:

__والدك نصّب نفسه إلهاً يقرر من يعيش ومن يموت، والآن تبررين أفعاله ؟
تابعت:

__لا ابرر بل كنت أمنعه وقفت في وجهه مرارًا وتكرارًا، وأمي كانت معي لكن
هوسه بالترياق كان يلهيهم كان يؤمن بجوناثان، يؤمن بكل كلمة قرأها له.
سأل صمصام متعجباً:

__ جوناثان ومن يكون جوناثان هذا ؟ ؟

(نائلة)

__ القصة تقول إنه عندما ضربت النيازك الأرض، ومع بداية انتشار الوباء ظهر رجل يُدعى "جوناثان" كان من أذكى العقول في زمانه، متخصصًا في الفيزياء والكيمياء، لكنه لم يكن شخصًا عاديًا، ولم يكن مصيره عاديًا، أصيب بمرض غامض يُشاع أن سببه كان تلك النيازك التي مزقت السماء وأحالتها إلى رماد، وقتها لم يكن موته سريعًا، بل كان كابوسًا بطيئًا، كان جسده يخونه قطعةً قطعة، وأعضاؤه تموت تدريجيًا، وكأن روحه تُنتزع منه على مراحل... لكنه لم يستسلم حبس نفسه في معمله، حيث أمضى أيامًا وليالي لا تُحصى وسط أنابيب الاختبار والسنة اللهب، والمعادلات التي غطت الجدران كأنها طلاس سحرية، كان مهووسًا عازمًا على إنقاذ نفسه غير مكترث لأي شيء آخر وبعد شهرٍ من العزلة، خرج جوناثان من معمله لكنه لم يكن كما كان لقد عاد إلى الحياة وكأن المرض لم يمسه قط.

تقدم بدر بحصانه قليلًا إلى الأمام، وقال بلهجة تحمل مزيجًا من الفضول وعدم التصديق:

__ وما علاقة هذا بأبيك وكيف علم أبيك بقصته؟

اجابت نائلة:

__ جوناثان لم يكن أنانيًا، فقبل أن يختفي ترك وراءه كتابًا، سجل فيه كل شيء كل معادلة، كل وصفة، كل سرٍّ استخدمه ليعيد جسده إلى الحياة، كان يُعرف بـ سفر اليربوع العاشر، قيل إنه مفتاح الخلاص الوحيد.

سأل:

— وهل وجد أحد هذا الكتاب؟

هزّت رأسها نافية:

— لا فبعد فترة قصيرة اختفى جوناثان، واختفى الكتاب معه، ولم يبقَ منه سوى شذرات مبعثرة خطوطات مهمة تتحدث عن نجاحه وعن الخلاص لكن دون الكتاب لم يستطع أحد تكرار ما فعله. أبقى فتش عن الكتاب في كل مكان وحين يأس من إيجاده حاول تقليده واكتشاف الترياق بنفسه، ولكنه لم ينجح ولهذا لقبوه بالجزار، لأنه أراد أن ينقذ البشرية حتى وإن قتل بعض البشر ليعيش الباقين، أبقى لم يفكر في نفسه فقط بل فكر في الجميع.

وقبل أن يشرع أحدهم في طرح سؤال آخر على نائلة، كانت الخيول قد قادتهم، دون أن يشعروا، إلى أرض مختلفة كأنهم عبروا بوابة خفية لا يدركون كيف أو متى اجتازوها.

مكان لا تشتم فيه رائحة الحياة، ولا تنبعث منه أنفاس الموت، لا طرق مرسومة، ولا إشارات تهدي السبيل فقط أكواخ حجرية صغيرة تمتد إلى الأفق، مداخلها ضيقة بالكاد تتسع لفرد، وسكون خائق يلفّ الأرجاء، لا يُسمع سوى وقع حوافر الخيول فوق تلك الأرض اليبسة.

أبطأت الخيول خطاها كأنها تحاول فهم هذا السكون الخيف، بينما تاهت أعين الرجال في تأمل مشهد لا تفسير له.

وحده صمصام ظل غارقاً في أفكاره، يعيد في رأسه كلمات نائلة مراراً، حتى قطعه صوت بدر، مشيراً إلى تعب الخيول:

— سيدي، الخيول انهكت من السير إن أنفاسها ثقيلة، ونبضاتها متسارعة.

مدّ صفيدر يده إلى ظهر جواده، فشعر برجفه ثقيلة ثم اهتزاز عنيف.

قال بهدوء وهو يلتفت إلى صمصام:

— هل تأذن ان نستريح قليلاً من أجل الخيول.

— لا امانع ولكن فليتنفد البعض تلك الاكواخ ...

توزع الرجال ودخلوا الاكواخ واحداً تلو الآخر يبحثون عن خطر كامن أو حياة خفية... لكنها كانت فارغة.

وافق صمصام بإيماء صامتة، ونزل صفيدر من على فرسه، أمسك بلجامه، وأخرج من حقيبته أنبوتاً بلاستيكيًا شفافاً يحوي موادًا كيميائية.

أدخل يده في قم الجواد، فأخرج أنبوتاً أسود كالرماد، كان يعمل كفلتر هواء، واستبدله بالجديد.

تبع الآخرون حركته، يبدلون أنابيب التنفس لحيولهم المنهكة.

إلا نجم... اقترب من حقييته وقلّب فيها مرارًا فلم يجد إلا انبوب فارغا ، التفت الى الجميع:

— نقد الفرئيس من فلتري ليس صالح ...

(صمصام)

— سنذبح جوادك يا نجم.

(نجم)

— لم ننتهي من لحم الثورعا، حقائقنا مملوءة؟؟؟

(صمصام)

— سنفرغها وغلؤها بلحم الجواد، فالحم الطازج افضل ...

ارتجفت ملامح نجم، لكنه لم يعترض فهو يدرك كما يدرك الجميع أن موت الجواد دون نفع جريمة.

وفي لحظات، تحوّل الفرس إلى طعام، نزع جلده بعناية، وقُطّع لحمه، ووزّعوا ما استطاعوا حمله، لكن الدم جُمع في قوارير زجاجية، لعلّه يصبح طعامًا أو دواءً في الأيام القادمة.

أشعلوا نارا بين الأكواخ ثم شؤوا اللحم وأكلوا حتى الشبع، ثم تمددوا فوق الأرض القاسية حتى غاصوا في النوم .

جميعهم غطّ في نومٍ ثقيلٍ إلا صمصام ظلّ مستلقياً يحدّق في السماء، وعقله لا يزال يدور في كلمات نائلة عن الترياق حتى غلبه النعاس.

حين استيقظوا لم يكونوا تحت السماء بل وجدوا أنفسهم داخل قاعة واسعة ذات ثلاث أبواب شاهقة، أمام كل باب يقف رجال ضخام لا تعرف الرحمة الى وجوههم طريقاً، وقد وُثمت على أجسادهم علامة ثعبان أسود بأنياب ولسان مشقوق يمتد من أعناقهم حتى أذرعهم.

((الفصل الخامس عشر: قرية ال سمعان))

– أين نحن؟

– كيف جئنا إلى هنا؟

الحقيقة هي أنّ أهل تلك الأرض استغلوا نومهم، وزرعوا في نارهم أعشاباً مخدّرة.

لم تكن نار التدفئة نارا عادية، بل بوابة إلى اللاوعي، فانتقلوا من غفوة إلى غياب.

أما تلك الأكواخ الحجرية، الضيقة حدّ الاختناق، فلم تكن سوى بوابات سرّية تؤدي إلى مدينة تحت الأرض...

مدينة لا وجود لها على أي خريطة وقف الرجال مذهولين، تتساءل أفواههم
وتصرخ نظراتهم:

— أين نحن؟ ولكن ما من مُجيب بل دُفعوا دفعًا نحو الباب الأوسط، الذي انفتح
ببطء، كاشفًا عن عالم لم يعرفوه.

كانوا أمام مدينة عظيمة، مبانيها مرصوفة بأحجار رمادية مليئة بالقسوة والهيبة أزقتها
ملتوية كمتاهة صُممت بحرفية.

رفع صمصام رأسه نحو الأعلى، فلاحظ أن السقف لا يُغطي السماء تمامًا، من
المنتصف، كانت تتدلى شعلة هائلة داخل قفص معدني، تتراقص ألسنتها البرتقالية
تبث نورًا خافتًا يطرد الظلام كأنها شمس هذا العالم السفلي.

لكن الرعب الحقيقي لم يكن في الحجارة، بل في الوجوه.

كل من قابله هناك، رجالًا ونساءً، شيوخًا وصبية، كانت أجسادهم موسوم عليها
الثعبان ذاته، يلتف حولهم كعقيدة مغروسة في اللحم والدم.

الرجال عراة الصدر لا يرتدون سوى سراويل فضفاضة، والنساء في أردية جلدية
ضيقة.

في عيونهم لا ترحيب، ولا شفقة، فقط نظرات صامتة ترن القادمين كأنهم بضائع
جديدة.

حاول صمصام الحديث، لكن لم ينبس أحد بكلمة الوجوه فقط ثابتة.

فجأة شق الجموع رجل مهيب الخطى، جسده العاري لا يستره سوى بنطال ممزق،
وجلده مليء بالوشوم وعلى زراعه رسم ذلك الثعبان، رفع يده بإيماء صامتة فتوقف
الجميع، ثم بدأ يحرك يديه بإشارات غريبة، كأنه يتحدث بلغة غير منطوقة، لغة لا
تفهم بالأذن بل بالبصر.

قال بدر بصوت خافت وهو يراقبه:

—إنهم لا يتكلمون لأنهم صم وبكم جميع من هنا اصم وابكم .

اتسعت أعينهم وردد صفيدر بدهشة:

—صم... وبكم؟

أوماً بدر وأضاف:

—نعم.. لكنني أفهم لغتهم.

راح يتابع إشارات الرجل المهيب الذي أشار إلى صدره، فعينيه، وكرر بعض
الحركات حتى توقف الرجل عن الإشارة.

فاستدار بدر إلى صمصام والبقية:

—إنه يسأل لماذا دخلتم قرية آل سمعان؟

تراجع صمصام خطوة إلى الوراء، يُظهر مزيجًا من الانبهار والوجل.

ثم سأل بهمس مخمّن:

__ قرية آل سمعان، ما هذا المكان؟

انفجر نجم ضاحكًا بصوت عالٍ، حتى انهمرت دموعه، ثم قال بسخرية:

__ سمعان ولا يسمعون! هل أطلقوا على أنفسهم اسمًا يعكس ما فقدوه؟ يا لها من مفارقة.

التفت إليه بدر بجدة، قبض على ذراعه وهمس بغضب:

__ اصمت أيها الأبله لأنهم يقرأون الشفاه..

لكن التحذير جاء متأخرًا إذ انقضّ أحد رجال آل سمعان بقوة، وهوت قبضته القاسية على رأس نجم فتهاوى أرضًا فاقدًا الوعي وسط صدمة رفاقه.

تحرك الرجل المهيب إلى الأمام، يظهر من ملامحه وإشاراته أنه الحاكم، رفع يده وبدأ في أداء إشارات معقدة، لم يستطع أحد فك شيفرتها سوى بدر، الذي تأمل الحركات بعناية قبل أن يترجمها بحذر:

لأنهم لا يسمعون ولا يتحدثون، لكن حواسهم الأخرى قد تطورت بشكل استثنائي يستطيعون التقاط الذبذبات، وقراءة الشفاه بل إنهم قادرون على التمييز بين الصادق والكاذب من خلال أدق تعابير الوجه.

أخذ صمصام نفساً عميقاً محاولاً أن يهدئ اضطراب الموقف ثم قال:

__ أقدم اعتذاري عن تصرف نجم الأرعن إنه لم يقصد الإساءة، هو مجرد أحق لا يدرك تبعات كلماته، لكننا لم نأتِ إلى قربتكم بسوء نية، ولم يكن دخولنا مقصوداً، لذا نرجو منكم السماح لنا بالمغادرة.

الرجل لم يُبدِ أي تساهل، وأشاح يده بإشارة أخرى، تلاها بدر بوجه شاحب، متلعثماً في ترجمتها:

- يقول إن قربتهم ليست ممراً للعابرين، من تطأ قدماه أرض آل سمعان، فمصييره البقاء هنا إلى الأبد... أو الموت.

(صمصام باستعلاء)

__ يبدو أنك لا تعرف من نحن، أنا ابن الحوت الأزرق، وهؤلاء هم جماعة الوريد و لا أحد يمنعنا من الذهاب الى اي مكان نريده، لا أنت ولا أي رجل من رجال قربتك.

اتسعت عيننا الحاكم، ثم تحولت ملامحه إلى الغضب ولوح بيديه بإشارات سريعة،
ترجمها بدر وصوته يرتجف:

— يقول إنه لا يعرف من هو الحوت الأزرق ولا يهتم من تكون، كل ما يعرفه أن
هذه الأرض تنتمي لقرية آل سمعان، وهو الحاكم هنا، وسلطته لا يعلوها شيء، هو
السيد والباقي تبع.

توقف بدر للحظة، وكأن الكلمات عالقة في حلقه، ثم تابع بصوت خافت:

— يقول أيضًا إنهم حُرِّموا من السمع والنطق منذ أن ضربت النيازك الأرض،
فتحولت جيناتهم، وتوارثوا هذا المصير عبر الأجيال، فعندما طردتهم المدن، لجأوا إلى
هذه الأرض، وأقاموا عشيرتهم وفق قوانين صارمة سنّها جدّه الأكبر، سمعان الحكيم،
ومنذ ذلك الحين أصبح هناك قانون واحد لا يتغير من دخل قريتهم لن يرى
الشمس مجددًا حتى لا يأتي لهم بالخراب ولن يسمح لنا بتغيرها.

(صمصام)

— بعد غد عرس سمراء؟ وأنا لن أبقى هنا كالفريسة في قفص من اجل حفنة من
الحمقى اوجدوا قوانين فارغة.

ارتجف قلب نائلة:

— أنا لا أريد البقاء ؟

لم يهلهم صمصام لحظة أخرى، إذ انفجرت عاصفة من الغضب داخله، انقض على الحاكم الأبكم بسرعة مدهشة، وأمطره بوابل من الضربات القوية، لم تكن مجرد لكلمات، بل كانت انفجارات من سخط دفين، غضب رجل يرفض أن يُسجن في قيد لا يليق به.

كأن الشرارة اندلعت بين الجميع، فجأة تحول المكان إلى حلبة صراع رجال الوريد وصمصام ورفاقه يهاجمون بلا هوادة، أجسادهم تتحرك بوحشية، يضربون، يركلون، يدفعون، أشبه بثيران هائجة في حلبة مصارعة، ترفض أن تخضع لسياج الأسر.

في وسط هذه الفوضى العارمة، اخترقت الهواء صفارات حادة، تبعها انطلاق وابل من السهام الصغيرة، كلسعات خبيثة من أفاع سامة اخترقت تلك السهام جلودهم بسرعة، وأحس كل منهم بوخز مؤلم، تلاه خدر ثقيل، حاولوا المقاومة، لكن أطرافهم خذلتهم، وأعينهم ثققلت، وأجسادهم تهوت واحدة تلو الأخرى.

التفت حاكم آل سمعان إلى الجنود، وقال بإشاراته:

— جهّزهم لطقس الوخز...

في أرض آل سمعان، لا يُرحب بالغريب إلا إذا صمت ولا يُعَدّ من أهلها من لم تخنه
جيناته. فاللسان يُؤخذ طوعًا أو كرهًا، والآذان تُشرّع للوخز، كأن الهوية هناك تُنتزع
لتُستبدل بهيئة تُشبه الجمع، ولكنها تخفي الفرد في قاع النسيان.

عندما فتحوا أعينهم مجددًا، كانوا كأنهم استيقظوا ليجدوا أنفسهم في قلب مأساة لا
فكّك منها، كانوا مكبلين إلى أعمدة حجرية شاهقة و القيود المعدنية تحفر في معاصمهم
كأنياب وحش لا يرحم، اما البرد فزحف إلى عظامهم كما لو كان كيانًا حيًا ينهش
أرواحهم، ساد المكان صمتٌ خانق، ليس صمت الراحة، بل صمت ما يسبق
العاصفة أو ما يسبق الذبح.

وفجأة، انطلق صوتٌ متحشرج، مختلط بالحنق والقنوط.

— أرجوكم... أخرجوني! سمر!!!!!!!!!!!!!!!!!!... —!

كان صمصام هو من صرخ، جسده يتشنج في محاولة يائسة لتحطيم القيود، لكن
الحديد لم يكن يلين أصبح مثل وحشٌ جريح يزأر في وجه سجانیه، رغم علمه بأن
زئيره لن يغيّر قدره.

اقترب منه صفيدر وبرغم قلقه الواضح قال:

— أرجوك يا صمصام لا تكن هكذا اعدك سنجد الحل فلا تفقد أعصابك.

ضرب صمصام رأسه بالعمود الحجري وكان الألم الجسدي قد يطفئ النيران
المشتعلة داخله.

— أي حل في هذا الوضع؟ كل دقيقة تمر تبتعد فيها سمراء عني ويقترب منها ذلك
النذل نفيل، لا أحتمل الفكرة، لا أريد البقاء هنا، أنا احترق أشعر بالعجز ولأول
مرة في حياتي أشعر أنني لا شيء.

جاء صوت بدر هادئاً:

— يا سيدي لا تكن هكذا أنت دائماً من نستمد منه شجاعتنا فلا تجعلنا نضعف
بضعفك.

تفكر في كلمات صفيدر قليلاً ثم رفع عينيه بعد أن تغيرت ملامحه ثم التفت إلى
الظلام الذي يحيط بهم وقال:

— سأنادي أحدهم.

وبصوت خافت همس لنفسه:

— لا حل لدي سأستخدم آخر حيلة في جعبتي ليس من اجلي بل من اجلها .

أدار وجهه بعيداً عنهم واغمض عينيه، وبدأ بهمهم بصوت خفيض:

- ميساس ساسيم.

لم يتحرك شيء، فلم يحدث أي تغيير، لكن صمصام لم يتوقف بل زاد صوته قوة وتكرر النداء.

__ميساس ساسيم!

وقف على قدميه رغم ثقل القيود، رفع رأسه عاليًا، وكأنا يخاطب قوة خفية في السماء، ثم صاح بكل كيانه:

__ ميساس..... ساسيم..... جنية الأرض والطين، الحب يسري، والقلب سليم.

صرخ صفيدر، متراجعًا قليلًا:

__ ماذا تفعل يا صمصام؟ هل فقدت عقلك؟

لكن قبل أن يكمل، هبت ريح عاتية من العدم، اجتاحت المكان وأسقطت كل من كان واقفًا على قدميه. تحركت الجدران واهتزت الصخور، وكأن الأرض نفسها تهبًا لظهور شيء لم يكن من المفترض أن يُرى. وفجأة انشقت العتمة.

ظهرت ميساس من اللاشيء، يلفها ذلك الرداء الأسود الطويل، عيناها تلمعان بنور غريب ابتسمت ابتسامة شبحية وقالت بصوت ناعم:

__ كيف حالك يا حبيبي؟ لم يخب ظني بك فقد كنت أعلم أنك ستناديني.

صمصام بوجه خالٍ من الخوف:

— إن كنتِ تحبيني حقًا أخرجينا من هنا ياميساس.

كان صفيدر يبحث حوله كي يرى مع من يتكلم صمصام ثم نادى عليه:

— مع من تتحدث؟

ميساس لم تحرك عينها عن صمصام:

— هم لا يروني أنت فقط تستطيع رؤيتي، ولا أحد غيرك.

(نائلة)

— أنا خائفة مع من يتحدث السيد صمصام؟

أجابها صفيدر وهو يحاول تسكين مخاوفها:

— لا تقلقي سيكون بخير...

ثم نادى على صمصام بصوت يعلوه الأرتياب:

— صمصام تحدث إلينا ماذا بك؟؟

لكن صمصام لم يلتفت إليهما عيناه كانتا مسمرتين في الفراغ تسبران أغوار عالم لا يراه

احد سواه ثم نطق بكلمة واحدة، تشبه الترنمة :

__حررينا يا ميساس.

دارت ميساس حوله، أصابعها الباردة انسابت على خده بخفة، قبل أن تهمس:

__ سأفعل ما تشاء يا عزيزي و لكن لماذا لا تخاطبهم بالعقل؟

(صمصام بتوجس)

__ كيف؟

تابعت بصوت أجش مخلي:

__ هذه القرية قد زارها وحش قديم يُدعى رهاص، كاد أن يفنيهم جميعًا، لولا غريبٌ ظهر من العدم وقتله منذ ذلك اليوم، أصبح ذلك الغريب أسطورة، نقشوا اسمه في كل زاوية. يقدسونه كمنقذ ويحفظون سيرته كما تحفظ الروح الجسد.

تأملها صمصام بنظرة حائرة:

__وماذا يعني لي ذلك؟ لم تخبريني بعد كيف نخرج من هنا؟

ابتسمت ميساس ابتسامة مأكرة، واقتربت أكثر منه:

__أنا قادرة على إخراجك يا قلبي، ولكن أريدك أن تُقدّس هنا...هذا الشعب قد

يصير خادمًا لك فلماذا لا تستغل الفرصة؟

تراجع خطوة إلى الوراء، تجهم وجهه وانكمش حاجباه بحيرة:

- ماذا تقترحين؟"

تدخل صفيدر ولم يدعه يكمل، إذ قال في دعر:

-أرجوك يا صمصام، لا تريد مخاوفنا مع من نتحدث؟

لكن صمصام لم يلتفت إليه، بل صرخ بانفعال:

__ماذا أفعل ياميساس.

ضحكت ميساس بخفوت ثم رفعت يدها ولمست ذراعه اليمنى، من أعلاه حتى أسفله حينها تسلل الألم الشديد في أوصاله ، ليتراجع قليلاً قبل أن يسمعها تقول:

__اكشف عن ذراعك.

رفع كفه ببطء، ليكتشف وشما غريباً طبع على زرعه، كان ذلك وشم لشعبان برأسين يلتف حول عضده تأملته ميساس بدهاء وقالت:

__ هذا الوشم كان على ذراع المنقذ الذي خلّصهم من رهاص. جميعهم وشموا الشعبان ذاته على أجسادهم تيمناً به، لكنهم لم يجرؤوا على رسم الرأس الثاني، احتراماً لمنزلته، بدلاً من ذلك، أضافوا لسانين في فمه... تصديقاً لأسطورة عودته وانه كان لسانهم عندما حرموا من النطق، أرهم الوشم يا صمصام، حينها سأدخل داخلك وسأتلعب بيديك فقط، أما عقلك وجسدك فسيظل لك دعني أرهم أنك أنت المنقذ!

(صمصام)

— افعلني

احتلت جسده كظلي يذوب في صاحبه، وكأنها كانت قطعة ناقصة من روحه، وبعد ان سيطرت على اطرافه ضربت الأرض بقدميه ثلاث مرات، ثم صفقت بكفيه مرتين، أعقبها بثالثة حاسمة، فكان الصوت أشبه بنداء حرب لم تمر سوى لحظات حتى تدفقت مجموعة من الحراس لقد شعروا بي ذبذبات النداء.

وما إن اقتحموا الغرفة حتى انقضّوا على صمصام، أمسكوا به بقسوة، وكانت السكاكين تلمع استعدادًا لحرم أذنه وقطع لسانه، من اجل اقامة طقس "الوغز" الطقس الذي تحدّث عنه سمرعان الأبكم بالإشارة، ليغدو الجميع مثله صامتين مدعنين.

فلت صمصام بيديه منهم ثم ببطء من قيوده نزع ملابسه العلوية، كاشفًا عن وشمه الغامض صُعب الحراس، وتسمرت أعينهم على الثعبان ذي الرأسين، وكأنهم رأوا نبوءة تتجسد أمامهم، فجأة انطلقت أصواتهم بهتافات مهيبة، وضربوا على صدورهم بقبضاتهم، ثم انحنوا له .

حدّق بدر بالمشهد مذهولًا، ثم تتم بارتباك:

— ما الذي يحدث هنا؟ وكيف فعلت هذا؟!

(صمصام)

— هؤلاء يظنونني شخصًا مقدسًا لديهم الآن.

إشارة خفية من ميساس، لوح صمصام ببراعة، لينطق لغة الإشارات التي يتحدثونها:

أنا الحامي همان... أنا من خلصكم من رهّاص، وبعد كل هذه السنوات، تعاملونني بهذه القسوة؟"

شهقت الحشود، وتحول الحراس إلى كتل من الذنب، جثوا على ركبهم، وضربوا على صدورهم وهم يهتفون بحسرة مذعورة، وكأنهم يستغفرون خطيئة فادحة. لم تمض سوى لحظات حتى انطلقت أياديهم لتحرير الأسرى، وفكّت القيود التي كبلت الجميع.

نظرت نائلة حولها، وسألت باستغراب:

- ماذا 'ماذا حدث؟

أجابها صفيدر وهو يراقب المعاصم التي تحررت لتوها:

— لست متأكدًا، لكن هل أنت بخير؟"

هزّت رأسها قائلة:

- نعم لكن كيف؟

(نجم)

__ نعم كيف تمكن السيد صمصام من التحدث إليهم ولماذا لم يوصل لهم ما يريد عن طريق الحديث هم يقرأون الشفاء كيف أجاد لغتهم وبدر فقط من يعرفها بيننا؟!

(بدر)

__ لقد أخبرهم أنه من أنقذهم من رهّاص.

(صفيدر في حيرة)

- وماذا يعني ذلك؟

(بدر)

- لا أعلم لكن لا تتكلموا كثيرًا، حتى لا تفسدوا خطته.

((الفصل السادس عشر: طالتك الخدعة))

بينما كان صمصام يُرتب أفكاره، ويفزل خيوط الخدعة التي حاكها ميساس ليفرض سطوته على قبيلة آل سمعان، كانت خيوط أكثر تعقيدًا تُحاك في قصر "جلموود"

كان جلمود جالسًا بجوار زوجته "رابحة" يحتضن كأس الشراب بثقل، وعينه
تحدقان في النيران ، في هذا الوقت فُتح الباب ودخل أحد الحراس بخطوات متردة
بينما كانت عيناه تقرأن من نظرات سيده.

– سيدي، اسمح لي بالكلام.

رفع جلمود حاجبًا، وصوته خرج ببطء كصخر ينفصل من جبل:

__ماذا هناك؟

ازدرد الحارس ريقه وتلعثم وهو يقول:

– إنها والدتك يا مولاي... الملكة زهيرة... جاءت.

(جلمود)

– هل تمزح معي؟

أشار الحارس ناحية الباب:

– إنها هنا.

انفتح الباب بانسيابية ودخلت زهيرة وجهها مسكون بتعب الرحلة وعيناها تلمعان
بمزيج غريب من الحنين .

أسرعت نحو ابنها واحتضنته بشوقٍ خانق همست بصوت مرتجف:

— اشتقت إليك يا بني اشتقت إليك كثيراً.

تخشب جلود للحظة ثم انكسر و احتضنها بقوة بعدها دفن وجهه في كتفها كطفل عاد من مدرسة، ودموعه التي لم يجروا على إظهارها منذ دهر انسابت:

— أمي لم أظن أنني سأراك ثانيةً.

ثم وكأنها تتبع سيناريو مكتوب بعناية التفت نحو رابحة ومدّت يدها إليها بحرارة:

— كيف حالك يا زوجة ابني؟

(رابحة)

— بأفضل حال لأنك هنا اليوم.

سألت وهي تحديق خلف زهيرة:

— ولكن أين سمراء؟ لماذا لم تأت معك؟

تبدّل وجه زهيرة وفي لحظة، انطفأ بريق عينيها وشحب وجهها كأنما سُحب منه الدم، ثم ارتعشت شفيتها، قبل أن تهار على ركبتها ويخرج صوتها مكسوراً بالبكاء:

— لقد اختطفها صمصام ابن الحوت الأزرق.

شهقت رابحة، ورفعت يدها لتغطي فمها:

__ كيف حدث هذا وأين كان الجنود.

جلمود كأنه لم يسمع شيئاً، السكون عم المكان والنار في الموقد خفت لهما ثم فجأة أمسك بالكأس وحطمه على الأرض صائحاً:

__ أنتِ تكذبين! قولي إنكِ تكذبين يا أمي، قولي إن سمراء بخير..

(زهيرة)

__ أتمنى لو كنت أكذب يا بني.

التفت جلمود إلى رابحة و عيناه تقدحان شرراً:

__ أنتِ السبب.

ارتدت رابحة خطوة إلى الوراء، تلعثت والدموع تخرج صوتها:

__ كيف أكون السبب؟

(جلمود)

__ أنتِ من أصررتِ على إرسالها إلى أمي، لقد حدّرتكِ و قلت لكي إنني أخاف على

ابنتي من أعدائي... وأنتِ قلتِ إنها ستكون في أمان، وأن أمي ستقنعها بالزواج!

والآن لقد ضاعت.

سقطت رابحة على ركبتيها، تمسكت بطرف عباءته وهي تبكي:

__لم أقصد، أردت فقط سعادتها لم أكن أعلم.

أبعد يدها عنه بقسوة:

__رغبتك في إسعادها دمّرتنا وأنا لن أسكت سأشعل الأرض من أجل ابنتي و
سأعلن الحرب على الحوت الأزرق و إن لم تعد سمراء فليحترق العالم.

ثم صرخ:

__نقيل استدعوا نقيل فوراً.

لم يلبث الصوت أن تردد في الأرجاء، حتى ظهر "نقيل" عند الباب، وقف شائخاً،
وعيناه تلمعان بجمود ثم تقدم بخطوات واثقة وانحنى:

__أمرتني يا مولاي.

(جلمود بغضب)

__ابنة عمك خُطفت، أريدك أن تكون أول من يتحرك، لا أريد أسرى أريد
رؤوسهم.

أوماً نقيل دون تردد، وبصوت بارد كالثلج:

__كما تأمر يا مولاي.

وحين هم بالخروج، استوقفته زهيرة نظرت إليه بنظرة مشحونة ثم همست:

يا بني أرجوك أعد لي حفيدتي.

نظر إليها نفيل للحظة، وبعينين لا تشيان بشيء أو ما لها.

فقال له :

تعال معي أريد أن أودعك.

قادته إلى غرفة جانبية، وما إن أغلق الباب، حتى سقط القناع جفت
دموعها وارتسمت على شفثها ابتسامة شيطانية. اقتربت منه، واحتضنته كأنما
تحتضن شريك مؤامرة:

أحسن يا نفيل أحسنت.

ابتسم نفيل بخبث وقال:

لم أكن لأفوت هذه الفرصة.

رفعت زهيرة يدها ولمست وجهه برفق يشوبه حقد:

الخطئة سارت كما أردنا سمراء بين أيدينا وجلمود يصرخ على سراب، يظن أن
الحوت الأزرق هو الجاني.

ضحك نفيل بهدوء، وقال:

والآن، ستشتعل الحرب تمامًا كما أردت.

ضمت زهيرة حفيدها، وهمست بسخرية:

__انظر يا نفيل اختطفوا ابنة عمك.

(صمصام)

__لا انا اريد حبيتي..

رفعت زهيرة يد نفيل عن حضنها، وابتسمت ابتسامة ناعمة ثم اقتربت من وجهه وهممت:

__والآن سأذهب لأكمل خطتنا.

وضعت قناع الاستنشاق على وجهها، بعدها أدارت ظهرها متجهة نحو جناح رابحة.

دخلت زهيرة غرفة رابحة بكل ثقة وقتها كانت رابحة واقفة أمام المرأة، تضغط شال سمراء إلى صدرها ، وتصارع نفسها بأسئلة لا إجابة لها.

__هل كنت أما سيئة؟ هل كنت السبب؟ إتي اعيش من اجلها ماذا افعل بدونها ؟ وجلمود ثمة غضب داخلي يتصاعد ناحيته ، أنا أحبه، نعم، لكنني لم أنس أنه لم يثأر لمقتل والدي. والآن اختفت سمراء ربما تكون هذه المفاجعة هي التي توقظ ما دُفن بداخلي.

زهيرة خلفها تراقب كل شيء تتأمل ملامحها، تلتقط اهتزاز روحها وتشم رائحة
اليأس المتفجر منها .

اقتربت ورفعت القناع عنها ثم أسقطت قليلاً من أعشاب تنقية الهواء في المبخرة
أمام المرأة بعدها نطقت بصوت حنون، مُبطّن بالمكر:

__ لا تحزني يا ابنتي سمراء ستعود.

أجفلت رابحة، واغرورقت عيناها بالدموع:

__أنا السبب أنا من أرسلتها، انا من أقنعت جلمود بذلك لكن لم أكن أعلم أنني
أوقعها في فخ...

وضعت زهيرة يدها الناعمة كالعنكبوت على كتفها لترد:

__فعلتِ ما ظننته الأفضل ، فلا تلام الأم إن أرادت سعادة ابنتها فلا تقتلينا
بلومك.

(رابحة)

__ أنتِ أكثر من أم لي ولا أعلم ما كنت سأفعل من دونك.

عاشتها زهيرة وهمست كأفعى تدق فريستها:

—سمراء ستعود قريبًا، وأيضًا أنا آسفة على موت والدك، أعلم أن جلمود قد يبدو قاسيًا أحيانًا، لكنه في داخله هش، بعض الكلمات تؤذيه بشدة فلا يستطيع دائمًا التحكم في مشاعره.

بعد ان نطقت كلماتها بتروي ، اخذت تراقب أثرها على رابحة وكأنها تدفعها نحو الهاوية.

(رابحة بشك)

—وما علاقة موت والدي بمشاعر جلمود؟

(زهيرة)

—لا شيء فقط كنت أتحدث بشكل عام ، ابني سريع الغضب، وأحيانًا تسيطر عليه مشاعره.

لكن رابحة لم تقتنع، حدقت فيها بحدة:

—لا...هناك شيء خاطئ أشعر بذلك، أرجوك أنتِ مثل امي فلا تخفي عني شيئًا.

وضعت زهرة يدها على قلبها، وتظاهرت بالأم:

—أرجوكِ يا ابنتي، لا تقسي علي فقلبي لا يتحمل المزيد

ازدادت نظرات رابحة شكًا:

__ عندما قال لي جلمود إن مقرعون الحوت الأزرق قتل أبي، رغم كسري وقتها شعرت أن هناك شيئًا خاطئًا، كيف يقتله وهو صديقه، لم اقتنع برد جلمود وقتها لان ابي لا يخطأ في تقييم الناس ؟

اردفت بتوسل:

__ أرجوك أخبريني بالحقيقة، ولا تعذّبيني أكثر.

وضعت زهرة يدها على رأسها واشاحت بوجهها ناحية الجهة الأخرى حينها جثت رابحة على الأرض، واحتضنت قدي زهرة بأكية:

__ أرجوك... أريد الحقيقة، سأسجد تحت قدميك إن تطلب الأمر، فقط قولي لي. تلالأت عينا زهرة كقطعة شمت رائحة الدم، ثم نظرت إلى رابحة ببطء، كأنها ترى سقوط قلاع في عيني امرأة منهارة. بعدها بقليل رفعها برقة مصطنعة ومسحت دموعها:

__ لا تذلي نفسك أكثر سأخبرك ...

تهدت وانخفض صوتها حتى كاد أن يكون همسًا:

__ من قتل والدك، من قتل أرمنان هو ابني جلمود.

شهقت رابحة، وكأنها سقطت من شاهق:

__جلمود...مستحيل ؟!!!

أجابت زهيرة، وهي تخفض رأسها تمثيلاً للحزن:

__غضبه أعماه فلم يكن في وعيه، هو لم يقصد.

(رابحة)

__لم يقصد هل تستهزئين بي؟ كيف لم يقصد؟ قولي كيف لم يقصد لم يقصد أن يقتل من اعتبره كابنه! من وقف إلى جانبه حتى أصبح الحوت الأحمر! لم يقصد أن يقتل وزيره؟ لا تقولي لي إنه لم يقصد جلمود يعلم جيداً ما يفعل وما يقصد.

(زهيرة)

__لا تجعليني اندم لأنني اخبرتك.

(رابحة)

__أنا من سأجعله يندم على كل شيء.

هتت بالخروج، لكن زهيرة أمسكت بذراعها حينها سحبت رابحة يدها بقوة، وركضت خارج الغرفة بينما بقيت زهيرة واقفة تحدّق في الفراغ.

وبعد ان تأكدت من ذهابها ، ارتسمت على شفيتها ابتسامة خبيثة و بدأت تدور حول نفسها ببطء، وكأنها صبية لم تتجاوز العشرين حتى داخت وسقطت على السرير، اصبحت عيناها معلقتان بالسقف رفعت إصبعها مشيرة للأعلى تخاطب نفسها :

__جلمود سيقتل رابحة..... لا بل رابحة من ستقتل جلمود لا بل جلمود سيقتلها، لا اصدق هذا بل هي من ستقتله جلمود أم رابحة؟'
أخرجت قطعة ذهبية من ثوبها، وقلبتها بين أصابعها.

__إن وقعت على الختم تموت رابحة، وإن جاء الوجه الآخر فليذهب جلمود إلى الجحيم.

رمت القطعة في الهواء، تراقبها تدور حتى سقطت في راحة يدها.
نظرت إليها، ثم همست مبتسمة:

__يا خسارة راحت رابحة لكن لا بأس... المسرحية بدأت الآن.

((الفصل السابع عشر: الخلاص المفقود))

كان البارحة سجينًا لا يُسمّى، واليوم انحنى له الهامات، وتبدّل القيد إلى تاج.

دخل صمصام ساحة الحكم حينها لم يعلُ صوته، ولم يمدّ يده، فقط وقف فكان الوقوف في حضرته قيامًا، في حضرة الحامي، انقلبت موازين آل سمعان، وسجد القاتل بين يدي من قيل عنه يومًا < دخيل لا يؤتمن >

افترش الجمع الأرض حين جاء، كأن الأرض تذكّرت ثقل اسمه فارتجّت.

ثم رفع الحاكم الأبكم يده، وأشار بحركات صامتة، تُرجمت على لسان بدر:

__ أنا سمعان الأبكم حاكم هذه البلدة ، أعلن أن هذا الرجل هو صاحب الأذن المقدّسة همان وهو من أنقذ شعبنا من الرهاص ومن هذا اليوم، هو الحاكم الشرعي لآل سمعان، هكذا أوصى سمعان الحكيم ومن بعده أي سمعان الأبطال:

إذا جاء المنتقد فالحكم حقّ له ولا يُنازع.

انحنت الرقاب، وغرقت نظرات جماعة الوريد في ذهول لم تستطع تفسيره، حتى اقترب منهم أحد الحراس وأشار في غضب فترجم بدر:

__ انحنوا كما انحنينا فالذي أنقذنا، صار سيدكم وسيدنا.

وببطء انحنى الجميع.

اعتدل سمعان الابكم ثم تكلم بلغة الإشارة

ترجمها بدر:

__ ساحنا يا سيدي لكن لماذا أخفيت عنا حقيقتك؟

لكن الإجابة لم تكن من صمصام، بل من ميساس التي تحكمت في يده:

__ كنت أريد أن أرى كيف ستتعاملون مع الغريب، لكنكم خيتم ظني.

وجه الحاكم شحّب فجأة، وأخذ يشير بسرعة كمن يبحث عن مبرر، فقال بدر وهو يترجم:

__ لم نعلم أنك أنت ثم إن قوانين سمعان الحكيم تأمرنا بمعاملة الغريب بلطف، ولكن إذا أراد المغادرة يقتل، وان بقي يجب أن يخضع لطقس الوغز فمن يدخل لا يخرج. وبعد فتره من الحديث والمجادلة خرج صمصام وأصدقائه لتفقد تلك البلدة.

(صمصام)

__ كيف تم بناء كل هذا؟

سمعان تأمل حركات شفتيه، ثم أشار بيديه فترجم بدر قائلاً:

__ لم نبني هذا وحدنا اما تذكر من جاء معك، يا سيد همان؟

صمصام قطب حاجبيه وقال بتوتر:

__ لا أذكر فقد مر وقت طويل ولهذا هناك الكثير من الأحداث التي طمست من ذهني.

أشار الحارس من جديد بلغة الإشارة ليتابع بدر:

__ من جاء معك هو من ساعدنا، تعالوا يجب أن تروا شيئًا.

لكن قبل ان يتحركوا سأل صمصام فجأة:

__كيف تتنفسون هنا؟ وأين هي الكمامات؟

أشار سمعان بيده، ومازال يفسر بدر:

__هنالك شقّاطات هواء في الجدران تعالوا سأشرح لكم.

قادهم عبر ممر ضيق عندما وصلوا إلى نهايته، وجدوا جدارًا حجريًا مغطى برموز غامضة. انحنى صفيدر، ثم قرأ بصوتٍ منخفض موجه وجهه لجدار حتى لا يرى سمعان شفاته وهما يتحركان:

__هذه الرموز تروي قصتهم كانوا مطاردين، منبوذين، عالقين بين الحياة والموت، بلا صوت، بلا قوة، يعيشون في عالم يحاول ابتلاعهم، وعندما بدأوا يشعرون بالأمان انقضّ عليهم الرهاص!

شعرت نائلة بارتجاف، وتراجعت خطوة إلى الوراء، وقالت بصوت خافت:

__هل هذه صورته؟

أوما صفيدر قائلاً:

__نعم رأس ذئب، جسد ضبع، وضخامة كالقيل وهنا صورة همان وهو يحاربه .

ثم أشار إلى صورة رجل آخر غريب الملامح، يرتدي نظاره:

__هذا الرجل يبدو مختلفًا، النقوش تروي قصته هو من علمهم قراءة الشفاه، وهو من قادهم لبناء هذه المدينة اسمه هنا انظروا.

اقتربت نائلة وركزت في الحروف، ثم قالت بدهشة:

__هذه لاتينية... الاسم Jonathan... أي: جوناثان.

انفجرت ضاحكة وكأنها اكتشفت المستحيل:

__كان أبي على حق لم يكن يتبع وهماً لقد كان هنا!

(صمصام)

__ماذا تقصدين؟؟؟

(نائلة)

__اقصد جوناثان الذي اخبركم عنه؟؟

(صمصام)

__ هذا يعني

(نائلة)

—سفر اليربوع العاشر قد يكون حقيقيا ..

التفت صمصام إلى سمعان وسأله:

—هل ترك جوناثان شيئًا هنا؟

تأمل سمعان شفتاه ثم اشار الى احد رجاله فأوماً الحارس ليعود بعد قليل ومعه صندوق صغير أسود، تتوسطه بقعة بيضاء غريبة.

فتح صمصام الصندوق في حذر فوجد ورقة قديمة صفراء الأطراف، وكأنها مرت بعمر طويل لم تكن خريطة أو كترًا بل حروفًا غريبة، كما لو انها ليست من لغة البشر.

أخذت نائلة الورقة:

—هذه لاتينية لكن بها رموز غريبة لحظة... أعتقد أنني أستطيع فك رموزها.

تابعت:

—إلى البشر ذوي القلوب المظلمة والعقول الضائعة أعلم أنكم في بحثٍ مستمر عن الخلاص لكن الخلاص قد ولى وانقضى. لقد أكتشفت سر الشفاء، ولكن لم يكتب لكم بعد فعندما حاولت تدوينه في سفر اليربوع العاشر، غمرني الشك، هل أتم

مستحقون له؟ نظرتُ حولي، ورأيتُ رماد الحضارات سمعت صراخ الأرض التي دمرتموها، استنشقت الهواء المسموم الذي نسجته أيديكم، رأيت البحار التي ابتلعت مدناً بأكملها رأيت الظلام في قلوبكم أكثر من الظلام الذي غطى هذا العالم الميت. أنتم البراكين التي انفجرت، الحروب التي مزقت الأرض، الدماء التي سُفكت، النبوءة التي تحققت، أنتم من قسمتمُ العالم، من فتحتُم حجيمه، من صنعتُم الطاعون الذي قضى على كل شيء، كنثُ أحمقاً إذ صدقتُ أنكم قادرون على التغيير، خفتُ أن أترك لكم مفتاح النجاة... فتعودوا لتدمروا ما تبقى من الحياة. فوضعت شرطاً واحداً إن اردتم ايجاده إن غيرتم أنفسكم، ستجدون الكتاب فهذا الصندوق ليس مجرد وعاء، إنه ميزان لطبيعتكم ميزان ماتخرجونه من فلسفة وكذب وخداع وايضاً ميزان للحق والعدل والرحمة. إن طغى السواد على البياض، إن بقيتم على حالكم لن تجدوا الخلاص. لكن إن غلب البياض على السواد إن أثبتتم أنكم تغيرتم حينها فقط، سينكشف سفر اليربوع العاشر.

جوناثان... المصاب الذي نجي.

كانت الرسالة صادمة لهم ، تخبرهم ان مستحيل سيظل مستحيل وسفر اليربوع لن يخرج لأن الشر لن يذهب .

قطع شرودهم اشارات سمعان يطلب منهم ان يتناولون معه الطعام، ذهبوا معه
فأكرمهم بأفضل ما يكون، ليس لأنهم ضيوف فحسب، بل لأن صمصام أصبح الحاكم
، تناولوا لحمًا شهيرًا متبادلين المزاح كأن الحرب ليست على الأبواب.

(صمصام)

—أظن أن وقت الرحيل قد حان، دعونا نغادر.

ردّ عليه سمعان بإشارته التي تلاها بدر:

—هل تتركنا يا سيد همان بعد أن وجدناك، انت حاكمنا فكيف تترك شعبك؟

(صمصام)

—أتم وجدتموني، لكنني لم أجد نفسي بعد.

(سمعان)

—نحن سنساعدك في رحلتك.

(صمصام)

—أتم لا تغادرون قريبتكم ابدا ، ولا تجعلون من يدخلها يغادر فكيف ستخرجون

وتأثون معي؟؟

(سمعان)

__أنت قريننا، أيها الأذن المقدسة مكانك هو قريننا.

(صمصام)

__أجل لقد نسيت.

ثم قال بوضوح:

__لنخرج الآن فليس لدينا وقت.

سار الجميع الى بوابة القرية التي ستخرجهم من الجوف الى السطح حينها سأل
صمصام:

__أين الخيول؟ والكمامات وبقية المعدات؟؟

فأشار أحدهم، يلعب سميع الأحذب بحركات متسارعة فهم بدر تلك الإشارة وقال:

__لقد دُبحَت الخيول فقد كان اللحم الذي تناوله اهل القرية و أكلنا منه هو
خيولنا.

(صمصام)

__وماذا سَنَمْتَطِي الآن؟

اشار سمعان الابكم بيده اليسرى فتوجهوا نحو ساحة واسعة تحيط بها الأكوخ
الحجرية أزاحوا بعض الأحجار الكبيرة عن الأرض فانكشفت ألواح خشبية تخفي
فتحة ضخمة تنحدر إلى الأسفل.

سُمع صوت فرقة قبل أن ينبعث من الداخل ضوءٌ خافتٌ يتراقص على جدران
ملساء مبللة. أطلق أحد الجنود صفيراً حاداً، فجاء الرد من الأعماق قعقة أرجل
ثقيلة تتقدم الى الاعلى تلى هذا الصوت ظهور أول رأس نملة عملاقة، سوداء و
لامعة دروعها كأنها من الفولاذ.

ثم الثانية و الثالثة، حتى خرجت ست وثلاثون نملة عملاقة، تتحرك بانضباط
مهيّب.

صاح صمصام مندهشاً:

__نمل البربر احذروا فقد يهاجمون؟

ابتسم سمعان وحرك يده...قال بدر:

__ هذه ليست كالوحوش التي تعرفونها نحن نريها منذ عقود، فقد كنا نسرق البيض
من الاعشاش نأكله وما يفيض عن حاجتنا نضعه في حضانات، ليسهل ترويضها
عند الفقس، والآن نركبها في الحرب.

أضاف:

لأنها أسرع من الخيول، وأقوى من الوحوش وهي تفهمنا كما نفهمها، بالإشارة فقط
فلا تحتاج الى الحديث.

وضع صمصام يده على ذقنه وهو يحدّق في احد النملات بفضول :
رحلتنا ستصبح أكثر إثارة مما توقعت.

قدم عليهم رجلا من اولئك الصم، يحمل في يديه سيوف وبعض المعدات
والكمامات، سلّمها لصمصام ورفاقه من جماعة الوريد، قائلاً بأشاراته :
هذه أماناتكم.

حينها اقترب سمعان الأبكم، وأشار هو الآخر ففسر بدر حديثه:
سأتي معكم ومعي ستة وعشرون من محاربي آل سمعان.

شكره صمصام على هذا واستعد محاربو ال سمعان للانطلاق فقد تسلّحوا بنبالٍ
من صنّع أيديهم، وجرابٍ صقلتها نيران الكهوف، أما وجوههم فغطّوها بأقنعة بدائيةٍ
عجينةٍ من الطين المجفف، مخلوطةٍ بالأعشاب والنسيج .

اخذ صفيدر واحد من تلك الاقنعة بدل من كمامته التي اعطاها لنائلة، فهو من
حينها منك من كثرة التبادل مع صمصام.

نائلة كانت لا تزال مترددة تحدّق في النمل العملاق برية قائلة:

__ لن أستطيع امتطاء هذه الكائنات!

لوح سمعان بيده فقال صفيدر:

__ اعلم ما يقوله هو يقول لا تخافي إنها غير مؤذية.

لكن نائلة هزّت رأسها بقوة، وقالت بنبرة يختلط فيها الخوف بالاشمئزاز:

__ لن أركب هذه الأشياء!

(صفيدر مبتسمًا)

__ إذن اركبي خلفي.

ترددت للحظة ثم أمسكت بيده لتصعد خلفه حينها تحركت النملة للأمام

وهكذا انطلقت القافلة في ظلام الليل، تاركين خلفهم قرية آل سمعان...

((الفصل الثامن عشر: سقوط المعبودة))

(حين تُدبر المكائد تختفي المصائب لحظات، وتغمرنا سكينَةٌ خادعة، هدوء ما قبل

العاصفة، نظن أنفسنا في مأمن، نبتسم للشمس المزيفة، وننشر ملابسنا ظنًا أن

السماء لن تمطر، لكن الشمس الكاذبة قد خدعتنا ولو كنا قرأنا نشرة الأخبار

الجوية، لربما نجونا من حُما بل وربما استفدنا من ذلك المطر)

وصلت رساله من قبيلة النار بعثها أحد جواسيس مقرعون ، دخل جرميد يحملها بين يديه فإشار له مقرعون أن يقرأها حينها ظهرت ما تحملها تلك الرسالة على ملامح جرميد قبل ان يتفوه بها، رفع رأسه ثم نظر الى الحوت وقال:

__ الخبر جلل يا سيدي سمراء، ابنة الحوت الأحمر، خُطفت صمت قليلاً وهو ينظر في زعر.

والأدهى... تابع جرميد:

__ أن الاتهام وجه للسيد صمصام.

شحب وجه مقرعون، لكنه لم يتكلم.

فأكمل جرميد:

__المملكة ليست بخير ونفيل نفيل يا سيدي يجهز جمع من الرجال، ويقسم ألا يعود إلا وقد غرس سيفه في عنق السيد صمصام.

(مقرعون)

__أعدوا السيوف..... الليل سيكون طويلاً.

خرج "جرميد" من القاعة حينها توجه "مقرعون" إلى حيث يجلس "الحوت الأسود" عدنان

قال مقرعون، بنبرة غليظة:

__هل سمعتَ ما قاله جرميد؟

أجاب عدنان دون أن يلتفت:

__نعم، سمعت.

(مقرعون)

__وهل ستسأني إن اشتعلت النار؟

(عدنان)

__أنا معك كما أخبرتك من قبل.

(مقرعون)

— هذه الحرب إن اندلعت ستظهر تحالفي معك و الحوت الأبيض والأحمر لن يصمتا.

(عدنان)

— وإن كان فليكن... أنا على أتم الاستعداد.

فجأة دخل رجل من الجنود مهرولاً وجهه ممتنع ونفسه يتسارع.

قال:

— سيدي!

(مقرعون)

— ماذا هناك؟

(الرجل)

— بعض سكان القرية جاءوا إلى هنا.

(مقرعون)

— لماذا؟ هل يتمردون مجددًا؟

(الرجل)

— لا يا سيدي إنهم أمسكوا رجلين حاولا قتل فتاة صغيرة، لم تبلغ الثامنة.

ارتجف فم مقرعون للحظة ثم زمجر:

— أدخلوهم حالًا!

دخل الناس تتقدمهم فتاة ترتجف كفرخ طير مبتل، يتبعها الرجلان المجرمان.

نظر مقرعون إلى الطفلة وبعدها اقترب منها ثم ارتقى على ركبتيه، واحتضنها بقوة:

— طريفة؟

كانت هي... الفتاة ذاتها التي جعلته يبكي لأول مرة، تلك التي رآها يومًا ممسكة
بطرف ثوب والدتها، تلك التي غثى معها ذات مساء أحلامنا ستزهر...
أخرجها من حضنه، ونهض ببطء، ثم استدار نحو المجرمين، ونظر إلى الجمع وقال:
— ما الذي حدث؟

تقدم شيخ من الحضور وقال:

— سمعنا صوت صراخ يأتي من تحت الألواح، وعندما تبعنا الصوت إلى البحيرة،
وجدنا هذين المجرمين يحاولان خنق الفتاة تحت البيوت.
مسح مقرعون ذقنه بيده كعادته حين يشتد غضبه، ثم مشى بخطى بطيئة لتندلع
بعدها نيرانه وينهال على الرجلان ضربًا، حتى تفجرت أفواههما دمًا.
(تابع بصياح)

— لماذا؟ لماذا فعلتما هذا؟

قال أحدهم بصوت مكسور:

— لم نفعل شيئًا... أقسم.

استدار مقرعون إلى طريفة وسألها برقة غريبة:

— ماذا حدث ؟ قولي لي.

بكت الفتاة وقالت:

— قالوا لي إنهم سيعطوني طعامًا وما إن ذهبت معهم، حتى حاولوا خنقي ولا أعلم لماذا.

سحب مقررعون خنجرًا من أحد جنوده، وأمر الحرس بتثبيت الرجلين.

تقدم إليهما وهو يضحك ضحكة مريية قائلاً:

— سأبدأ بأصابعكم واحدة تلو الأخرى، ثم أصابع القدم، بعدها سأجعل أطرافكم لافتات، وأعلق بقاياكم في مدخل القبيلة وقتها ستناولون موتًا بطيئًا، كما تحب الآلهة القديمة.

أمسك يد الأول وسأله:

— ألن تتكلم ؟

قال:

— لم أفعل شيئًا!

ابتسم بخبث ثم قطع خصره.

صرخ الرجل صرخة مدوية.

تابع. البنصر، الوسطى، السبابة... وعندما وصل إلى الإيهام، صرخ الرجل:

– سأتكلم! سأتكلم!

صرخ الآخر:

– اصمت أيها الأحق!

لكن الأول قال:

– من الأحق؟ أنا لن أفقد أطرافي من أجل عجز شمطاء!

قال مقرعون وعينيه تضيقان:

– من تقصد؟

– "ندرة" العرافة.

سرت صدمة باردة في المكان شهقات، همسات، عيون تتسع.

(مقرعون)

– ولماذا تأمرم بقتل فتاة صغيرة؟

أجاب الرجل وصوته يرتعش من الألم:

– لتتحقق نبوءتها، ندرّة تأخذ طعاما من الناس مقابل التنبأ، ولكننا نحن... نحن من نجعل النبوءات تتحقق.

هي تنبأ بموت فتاة غرقًا؟ نحن نغرقها.

تنبأ باحتراق بيت؟ نحن نحرقه.

يا جهاض امرأة؟ نرسل من يسقيها شيئًا يُسقط جنينها.

هي أفعى، ونحن أنياها...

صرخ الآخر:

– اصمت فضحتنا.

رد الأول:

– لن أموت وحدي ولن أكون وقودًا لوهم تعيشه تلك الساحرة.

كأن صوت الحقيقة انشجر في الهواء، وراح الناس يقلبون كفاً على كف، والهمهمة تتسع كجناح غراب فوق رؤوسهم.

همس شيخ عجوز:

– العرّافة ليست عرّافة.

وهتف آخر:

— خدعتنا، نهبتنا، وقتلت اخوتنا لقد صرنا نعبد ظلّها.

قال المجرم الجريح وهو يزفر دمه:

— خوفكم هو من قادكم الى ذلك أتم من أطفأ عقله وأشعل خوفه، لو فكرتم فقط للحظة لعلمتم أنه لا يوجد شيء اسمه تنبأ ولا عرّافة، هي شيطانة لكنكم أتم من عبدها، فالذين يهابون المجهول، يصنع لهم الكاذبون ألف نبوءة، وألف كذبة، ليحكموهم بها واتم سمحتم لها بذلك.

فجأة انهار مقرعون على ركبتيه، وضع ذراعيه على الأرض، وبدأ يضرب الأرض الخشبية بقبضتيه، بقوة غاضبة حتى تهشمت يده وسالت منها الدماء، صرخ وصرخ ولم يتوقف، ثم نهض، لكن مقرعون الذي نهض، لم يكن هو نفسه، لم يعد الحوت الذي يعرفونه بل كان وحشًا، اقترب من المجرمين، ولم ينظر إليهما، بل نظر إلى الأرض، وتكلم من تحت أسنانه:

— كنت لا أؤمن بها لكن تلك المرأة في يومٍ من الايام نادت في القبيلة، وقالت إن ابنتي، فجر، ستمرض مرضًا يكسر عظامها ويبدّل روحها، ويدفعها لتتمنى الموت ولا تناله.

صمت قليلًا، ثم همس:

– وبعد أيام مرضت بالضبط كما قالت، هل هي من فعلت بها ذلك أليس كذلك؟

تبادلت عينا المجرمين النظرات، وبدت الحقيقة في وجوههم، لكن الصمت كان سيدهم.

أمسك مقرعون سيفه ورمى الخنجر بعيدًا.

ثم قال:

– شدّوا أذرعهم.

وبدأ القصاص، قطع الذراع اليسرى للرجل للأول، فصرخ صرخة خافت منها الريح.

ثم الذراع اليسرى لرجل الثاني.

فقال الأول وهو يهذي:

– نعم نعم هي من أمرت، أعطتنا وصفة مزيج من عشبة الدفلى، والبيش، وسم الإستريكن، والشقائق النعمانية، خليطًا قاتل، سم بطيء، جعلها تصرخ كلما تحركت.

سقط السيف من يد مقرعون، وحلّ الصمت على الجميع، إلا صرخات الرجلين، فقد كانا ينوحان كجيفة تتعفن.

تابع مقرعون يهدوء مرعب:

— كانت كلما حاولت أن تمشي، تنكسر أطرافها وكان المرض يأكل لحمها أمامي.
تقدم ببطء و أمسك بذراع أحدهم الباقية ثم طرحه أرضاً، وطأ على بطنه، ثم شدّ
الذراع بقوة حتى انفصلت كجذع رطب، ثم فعل الشيء نفسه مع الثاني، وبعدها
أمسك فأَسَا.

وفصل أرجلهم عن أجسادهم كما يفصل الظل عن الضوء.

— علّقوهما للغربان.

قالها بصوت كأنما خرج من قاع الجحيم، وراح الجنود يحرون الجثتين الغارقتين
بالدم، ليعلقوهما في مدخل القبيلة كتحذير للغافلين، لكنه لم يتوقف كان كالمسحور
انطلق إلى بيت العرافة "ندرة" وخلفه كل أهل القرية يتبعونه كما يتبع الحطام
الطوفان.

حين وصلوا إلى كوخها الخشبي كان الباب مفتوحاً والأشياء مبعثرة، قال أحدهم
وهو يتنحّص الداخل:

— انها جمعت أغراضها وهربت.

مقرعون بصوت زلزل السقف:

— ابحثوا عنها حية أو ميتة!

بعدها أمسك شعلة نار، وألقى بها داخل الكوخ فاشتعلت النيران وارتفعت ألسنة الهب كأنها تطهر القبيلة، وانطلقت الفرقة من الجنود إلى بيوت الناس يفتشون، يقلبون، يهدمون الرفوف والصناديق، انقلبت القبيلة رأسًا على عقب، لكن "ندرة" لم تكن هناك، فقد اختفت ندرة ولم يترك اختفاؤها أي أثر. لا أحد علم من نهبها أو كيف أفلتت من رقابة العيون، لكن الجميع كان يعلم أن لأتباعها عيونًا في كل مكان، وهذا ما منحها الأفضلية دومًا فقد كانت تعرف كل شيء قبل الجميع.

خرجت من القرية متوجهة إلى مكان بعيد عن أعين أهل الماء. لم يكن مجرد ملجأ عشوائي بل مخبأ قديم، مهترئ ولكنه مُعدّ بعناية منذ زمن بعيد، ليس ملكًا لها بل لسيارة صدئة تعود إلى عهد الأسلاف. مركبة تبتلع الوقود وتنفث الدخان كانت هي من خبأتها هناك بنفسها، لأجل هذه اللحظة تحديدًا.

مدّت يدها داخل جفنها وسحبت عدستها اللاصقة التي أخفت لون عينيها الحقيقي لسنين. تلك العجوز الشمطاء لم تكن عمياء كما زعمت فلقد خدعتهم جميعًا.

كانوا يبهرون بقدرتها على معرفة من يطرق الباب، ومن يمر، ومن يجلس، ومن يهمس، معتقدين أنها تبصر ببصيرة روحية لكن الحقيقة أنها كانت ترى كل شيء.

جلست خلف المقود وضعت المفتاح ودارت المحرك الذي زار كوحش نائم أُيقظ من سباته ابتسمت وهي تهمس لنفسها:

أحسنتِ ياندره ذاك الجركن الممتلئ بالوقود لم يكلفني سوى نصف لتر من الماء. أدارت السيارة ببطء، ثم اندفعت بها عبر الأراضي محملةً بصناديق الطعام والزاد الذي جمعته على مدى سنوات طوال ثم لوحت للخلف، كأنها تودع تاريخًا لا يستحق الذكر، وضحكت قائلة:

__وداعًا يا قبيلة الاغبياء .

في ذلك الوقت دلف مقرعون إلى غرفة زوجته نوهارا التي كانت مستلقية على السرير توليه ظهرها تنن بصوتٍ لا يُسمع . وقف عند طرف الفراش وقال بصوت خافت:

__ أعلم أنك مستيقظة لطالما تظاهرتِ بالنوم، لكنني أعرفكِ أكثر مما تعرفين نفسك، تحملين في قلبك وجع موت ابنتنا ولهذا لا يغمض لكِ جفن، لقد ارتاحت فجر، أما أن لكِ أن ترتاحي أنتِ أيضًا؟

جلست نوهارا ببطء، والدموع لا تزال عالقة بجفניה:

__لقد قتلُها يا مقرعون ظننت أني أريحها وأريح نفسي، لكنني قتلت نفسي معها. لم ترى وجهها وهي تتوسل إليّ و تقول لي أطلق النار يا أمي اريحيني من هذا العذاب خلّصيني.

كنت أرفض، أزجرها، أُنشِث بها، لكنها ظلت تتوسل وعندما لم أعد أحمّل أمسكْتُ المسدس حينها نَظَرْتُ إليّ نظرةً لا تُنسى، ثم قالت لا تترددي يا أماه... أطلق النار.. ولست أدري من مات حينها هي أم أنا؟
(مقرعون)

__نوهارا أنتِ لم تقُليها...

صرخت به، كمن يرفض الغفران:

__ بل فعلت ومن ينكر ذلك إني من سحب الزناد.

(مقرعون)

__ لا من قتلها ليس إصبعك، بل السم الذي وضعته ندرة في جسدها تلك الشمطاء ليست عزّافة كما ادعت بل ساحرة مجرّمة، أرادت أن تثبت لنفسها وللشعب أن نبوءتها في بيت الزعيم قد تحققت، فدست المرض في فجر، حتى تترأى نبوءتها وكأنها وحي، الشعب يهلل، وهي ترتفع فوقهم كمن ترى الغيب، أما فجر، فدفعت الثمن.

نهضت كمن تُوقدت فيها نار الجحيم وصاحت:

— وأين هي الآن؟ لا تقل لي أنك قتلتها... فأني أريد أن أقطع لهما يدي، أسمع صراخها.

أطرق رأسه وقال:

— لقد هربت كانت مهيأة لهذا اليوم فهي ليست وحدها، بل لديها معاونون قتلث اثنين منهم، وسأعدم عشرة آخرين عرفت أنهم من أتباعها، سأعدمهم في الساحة بعد قليل.

شهقت نوهارا بغضب:

— امرأة عجوز، عمياء تقتل ابنتك، تخدع شعبك، وتفتر من بين يديك؟

قال بمرارة:

— ليست عمياء، كانت ترى كل شيء وتعرف كل شيء، ونحن الآن نعرف ولكن بعد فوات الأوان سأتيك بها وستذوقين لهما حين يحين الوقت، أما الآن فعلي أن أعد نفسي للحرب.

(نوهارا)

— اريد النظر الي الخونة وهم يُعدمون.

نادى المخبراني بإعدام الخونه

فتجمع الناس، رجالاً ونساءً، حتى الأطفال الذين حُبئوا خلف الثياب لم يمنعهم الفضول من التسلل، عيونهم تتصبب من البخار والدموع، والكمامات تغطي الوجوه، دُقَّت الطبول ثلاثة دقائق لا أكثر.

الشعلات اشتعلت، لكنها لم تُدْفِ المكان، بل زادت من جحيم الانتظار.

صعد الجلاد على منصة الطين الأسود، وبصوت كالخرز صاح:

—هؤلاء العشرة هم اليد التي امتدت إلى نبع النقاء، دسّوا السم، ونشروا سواد ندرة فلا مكان لهم بعد اليوم بيننا.

كانت أجساد العشرة مربوطة بالحبال، أذرعهم وأرجلهم مكبلة ومُعلّقة بها أحجار من الرخام المتحلل الذي اخذ من قاع النهر المتعقّن .

نُقلوا واحدًا تلو الآخر، وأُلقي بهم في نفس النهر فحدث ما يشبه الفقاعات على سطح المياه اتبع بعده صمت مريب لم يخرج بعده صراخ ولا استغاثه، الماء يبلع ولا يعيد وبعد تنفيذ الاعدام

في تلك الليلة تحالف جيش الحوت الأزرق مع قوات الحوت الأسود، وتمت التعبئة الكاملة، استعدادًا للخروج مع بزوغ شمس اليوم التالي.

((الفصل التاسع عشر: القرعة))

بين مُتَاهِبٍ وجَاهِلٍ، ضاع شعبٌ لا يقوى على الحياة ولا الحرب.

كان صمصام يمتطي نملته، حين شعر بشيء يتحرك داخله ذلك الإحساس الذي لم يعد غريبًا عليه.

(صمصام)

__ هل تعلمين إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

(ميساس)

__ تريد أن تمنع زواج سمراء

(صمصام)

__ ولماذا لا تمنعيني؟ وأنتى تحبينني؟

اقترب صوتها منه وكأنها تهمس في أذنه:

__ من يحب لا يمنع، بل يعطي ثم أنا أصبحت الزوجة الأولى، وهذا ما يهمني.

اتسعت عينا صمصام وقال بدهشة:

__ انتِ تهذين أنا لم أتزوجك.

لم تظل داخل جسده هذه المرة، بل خرجت كطيف شفاف يطوف حوله، ثم هبطت على النملة خلفه، واحتضنته من الخلف قائلة بمكر:

__ نحن بنات الجن لا نخجل من مشاعرنا، عندما نقول لأحدٍ إننا نحبّه، فهذا عرض زواجٍ وإذا نطق المحبّ اسم الجنينة، ثم عكسه، فهذا يعني أنها سارت زوجته.
التفت إليها بنصف عينه:

__ أنا لم أعلم بهذا لقد خدعتني.

__ لم يكن عليك أن تعلم والآن... أنت زوجي.

ضحك بصوتٍ مرتفع، حتى التفت إليه الجميع وكأنه أصيب بالجنون فما يروونه انه يضحك مع نفسه ، فأخفض صوته وقال مبتسمًا:

__أنتِ بارعة في المكر وهذا يعجبني.

(ميساس)

__أنت لم تترك المكر بعد.

اختفت ابتسامته فجأة ،سألته بفضول:

__ما بك؟

أخرج من جعبته صندوق جوناثان، ورفعه أمامها قائلاً:

__ ما حكاية هذا الصندوق؟ وكيف سنجد الكتاب؟ وما سرّ هذا اللغز؟

(ميساس)

__ لا أعلم كل شيء، لكن ما أعلمه أن جوناثان وثق في شعب آل سمعان، وهم خانوه، لهذا هرب وأخفى كتابه.

سألها بدهشة:

__ وكيف خانوه؟

أجابت:

__ كان يحاول أن يغيّر البشرية وبدأ بهم لكنهم لم يتغيروا، بل ازدادوا سوءًا.

سأل والفضول يعتليه:

__ وماذا حدث؟

(ميساس)

__ البطن الفارغ لا يبحث عن السلام، بل عن ما يسدّ جوعه، كان جوناثان يحاول أن يهذب أخلاقهم، أن ينتشلهم من غريزة الحيوانات، فبنى لهم مستعمرة، لكنه نسي أنهم جائعون فمن جوعهم سنّوا قانونًا لم يأذن به سموه "القرعة" فيه يتم اختار أحدهم عشوائيًا ليذبح! ثم يُطهى... ليأكله الآخرون!

(صمصام)

—أي هراء هذا؟ هل كانوا مصابين .

هزّت رأسها وقالت:

—لا بل كانوا جوعى.

سكت قليلاً، وقد تغيرت ملامحه

فقالت:

—حينها فقد جوناثان الأمل غادرهم، وترك خلفه تلك الرسائل المبهمة التي تقود إلى كتابه قال إن البشرية لا تستحق الحياة إلا إذا تغيرت.

(صمصام)

—تعلمين كل هذا ولا تعلمين أين الكتاب؟

(ميساس)

—كان جوناثان حزيناً أخفاه بتعاويد سحرية، حتى لا يستطيع أحد من الجن أن يساعد البشر في الوصول إليه..

صمصام وكأنه لا يصدق:

__ لكن كيف يأكلون لحوم بعضهم وهم ليسوا من الاموات الاحياء.
(ميساس)

__ بل صدّق فهذه ليست المرة الأولى التي يأكل فيها البشر بعضهم من الجوع لقد فعلها أسلافك.

__ أسلافي؟!

__ نعم في مصر بين عامي 1065 و1071، زمن الخليفة المستنصر بالله حدثت فاجعه سُمّوها الشدة المستنصرية.

هل تظن أن الجوع يُميت فقط؟ اذا أنت لا تعرفه بعد فالجوع هو الذي ينهش النفس قبل الجسد، الجوع الذي يجعل الإنسان ينسى اسمه، ويتحوّل إلى وحش لا يشبه البشر.

الشدة المستنصرية؟ ذلك لم يكن زمناً بل لعنة على أهل مصر .
أخذت تحكي بنبذة باردة:

__ في منتصف القرن الخامس الهجري، انخفض النيل، وجفّت الأرض، سبع سنين، لا مطر ولا زرع، والنخيل صار هشيماً، والقمح حكاية ثروى، في البداية باع الناس الذهب، ثم باعوا البيوت ثم باعوا الثياب ثم باعوا أنفسهم، هل تصدّق كانوا يحفرون قبور الموتى ليلاً... ليس لدفنهم بل لاستخراجهم، يقطعون لحمهم

يطهونه، يبيعونه، ويتناولونه على موائد الظلمة، الناس أكلوا الجثث ولما شبعوا منها،
بدووا يختطفون الأحياء فمن فوق الأسطح كانوا يلقون الخطاطيف، يختطفون بها
من يمشي في الطريق، رجل، امرأة، طفل...

ويُسحب إلى الداخل، لا يُسمع منه صوت، ولا يُرى له ظل.

وبعد قليل، تُشتم رائحة شواء...

نظرت إلى السماء، بعينين نصف ميتين وقالت:

__الخليفة نفسه المستنصر بالله لم يجد في قصره سوى جارية واحدة تطبخ له خبز
الشعير، كل شيء انهار لا حكومة، لا قضاء، لا رحمة.

ثم اختتمت

__لا تحدّثني عن الحضارة فالجوع حين يزور لا يترك خلفه بشراً، بل يترك مخلوقات
تتنقن الطهو...

كان صمصام يستمع لحديثها، وهو في صدمة من أمره، يفكر ويتعمق فيما يسمعه،
كيف لرغيف خبز أن يحرك الإنسان ويحوّله من مسالم إلى مستذئب، حتى ولو لم
يكن مصاباً؟ كيف للجوع أن يحو ملامح الرحمة ويترك فقط أنياباً تهش كل شيء؟
تابعت ميساس حديثها بصوتها الهادئ:

__الشدة المستنصرية؟ تلك كانت جزءًا فقط، ظلّ من ظلال ما عاشه البشر...
هناك الكثير من الحوادث منذ بداية الخليقة الى الآن، جوع يجعل الأمهات يلتهمن
أبناءهن، يجعل الناس يحفرون قبور موتاهم، ويبيعون اللحم البشري على الأرصفة.
لا تتعجب يا صمصام... أتم الآن تعيشون واحدة منها، لكنها أقسى، أعمق و أشد
ظلمة. ولا أعلم هل ستقاومون أم ستهلكون؟

سكن صوته، لكن كلماتها ظلت تدور في رأسه ثم شعر بها لقد دخلت ميساس
في داخله مرة أخرى.

أدار رأسه نحو الريح، قبض على لجام نملته، وقال لنفسه بصوت بالكاد خرج من
صدره...

__ لظالما كنت أحدث نفسي وأقول، أيتها الدنيا، أكنتِ دائمًا هكذا، أم أنتي لم
أفهمك جيدًا؟ هل أنتِ المسؤولة عن الأخطاء، أم أنكِ مجرد مرآة تعكس زلاتنا؟،
نلنحك حين نخسر، ونحملك أوزار فشلنا، لكن الحقيقة التي نهرب منها أن الإنسان
هو من يخطئ مصيره، ثم يتظاهر بالدهشة أمام نتائجه.

نبحث عن شماعة نعلق عليها خيائتنا، فنجعلك الجانية بينما الجاني الحقيقي يسكن في
أعماقنا ربما لم تكوني أنتِ من أوجعنا... ربما نحن من أوجعنا أنفسنا ثم بحثنا عن عذرٍ
نختبئ خلفه..

نظرت نائلة إلى صمصام الذي كان بجوارهم منطلقًا بمنلته وهمست لصفيدر:

__السيد صمصام عاد يتحدث مع نفسه من جديد...

ألقى صفيدر نظرة جانبية نحوه:

__ هناك شيء في هذا لا أفهمه، هناك أمور معقدة حوله لم أجد لها تفسيرًا، فعندما أتينا إلى قرية آل سمعان، لم يكن هناك وشم على ذراعه، لكن بعد كل ما حدث، ظهر وشم الثعبان أيضًا كيف عرف قصة القرية، وقصة همان الذي انقذهم من الرهاص ...

نظرت إليه نائلة باستغراب وقالت:

__وماذا يعني ذلك؟

هز كتفيه قائلاً:

__ لا أعلم، لكنني أعرف شيئًا واحدًا... صمصام لم يفقد عقله.

ضيقت نائلة عينها وقالت:

__ تقصد أنه يكلم أحدًا لا نراه؟

نظر للأمام بصمت للحظة ثم قال:

__لما لا؟

(نائلة)

اسأله.

(صفيدر)

__ ليس الآن لا يبدو أنه يجب الحديث عن هذا الأمر.

(نائلة)

__ نعم، لقد لاحظت ذلك...

ابتسم قليلاً ثم قال:

__ وماذا عنك؟ هل تحبين الحديث؟

سأله بستنكار:

__ عن ماذا؟

__ لا أعلم لكننا سنسير طوال الليل، ألا تريد أن تعرفيني وأعرفك أكثر؟

قالت بتردد صاحبة شك:

__ لماذا؟

أخذ صفيدر نفساً عميقاً وقال:

__ لا يوجد لدي إجابة، لكنني أريد ذلك فقط.

قالت بدهاء:

__ لقد أخبرتكم كثيرًا عن حياتي، لماذا لا تخبرني أنت عن حياتك؟

__الم أخبرك.

__فعلت ولكنني اشعر ان هناك المزيد

ابتسم صفيدر وهو يمسك بلجام نملته بإحكام ثم قال:

__ أنت محقة في ذلك، لم أكن سوى طفل عادي، ابناً بالتبني لعائلة ليست غنية، ولكنها لم تكن فقيرة تمامًا.

قالت نائلة لمواساته:

__أنا آسفة لهذا...

هز رأسه وقال في لوعة:

__لا عليك، لا تأسفي.

ثم أكمل بعد برهة من الصمت:

والذي الذي تبناني وجدني رضيعًا عندما قاد غارة للبحث عن المؤمن. كنتُ
الوحيد الذي نجا من عائلتي الحقيقية، قالوا إن اجميع إما قُتلوا أو تحولوا...

قالت في حيرة:

لكن ألم تخبرني أنك رأيت والدك وهو يلتهم من قبل المصايين، وأن والدتك ماتت
وأنت صغير؟

ابتسم صفيدر وفي عينية بحر من الدموع يمنعها سداً من القوة وقال:

وهذا ما يعرفه الناس عني، لكنني الآن أريد أن أخبرك بما لا يعرفه أحد، كنت
أتحدث وقتها عن والدي بالتبني، وليس والدي الحقيقيين فأنا لم أعرفهم، ولم أرهم في
حياتي.

تأملته نائلة بصمت، بينما تابع قائلاً:

لكن من تبنيوني، أظن أنهم يستحقون بحق أن أقول عنهم أبي وأمي. لقد ربّاني
كبنها، أعطاني اسماً ومنزلاً، لم أشعر يوماً أنني غريب عنهما... لكن الحياة لم ترحمني.
خفض صوته قليلاً ثم قال:

أمي بالتبني كانت سيدة طيبة، وكانت تخبز لي الخبز الحلو كلما عدتُ من
التدريب أما أبي؟ كان رجلاً قوياً، صامتاً لكنه علمني كل شيء عن الحياة، عن
القتال، عن النجاة، كانا عالمي بأكمله، لكنني لم أستطع إقناذهما...

قالت نائلة بأسى:

__ لابد أن ذلك كان صعباً عليك...

أطلق ضحكة جافة وقال:

__ الصعب ليس فقدانها، بل العيش بعدها. كنت أعتقد أنني سأحزن عليهما،
لكن الأمر تجاوز الحزن أصبح فراغاً، جرحاً لا يلتئم كنت أشعر أنني أعيش جسداً
بلا روح، حتى نسيت كيف يبدو الدفء.

ثم أدار رأسه قليلاً لينظر إليها وهو يقول بصوت خافت:

__ لكن عندما رأيته وسط النار شعرتُ أنني استعدت شيئاً افتقدته منذ وقت
بعيد.

__ وما هو؟

شعر أن هذا السؤال قد يأخذه إلى مكان لا يريد الذهاب إليه الآن، فحاول التملص
قائلاً بابتسامة مأكرة:

__ وأنت؟ هل لديك سر تريد إخباري به؟ لقد أخبرتك بسرّي، حان دورك.

ضحكت، ضحكة خفيفة لكنها مليئة بالسخرية، ثم قالت:

__ لأنك مغفل.

نظر إليها باندھاش:

__ماذا؟

ازدادت ضحكتها، حتى ظهرت أسنانها بوضوح ، ثم رفعت حاجبيها وقالت:

__أمزح معك.

ابتسم هو الآخر:

__ لم أكن أعلم أن ضحكتك ستكون بهذا الجمال.

(نائلة)

__ولم أكن أعلم أنك بارع في الغزل.

ثم أردفت بصوت خافض:

__ لكنني أملك سرًا صغيرًا، هل تريد أن تعلم ما هو.

__ نعم أكثر مما تتوقعي.

__سرى هو أنّ لدي إصبع مبتور.

رفعت يدها أمامه، بينما كان يمسك بلجام النملة بإحكام ليحافظ على توازنها ألقى

نظرة سريعة عليها، ثم قال ببساطة:

__ لا أرى أي إصبع مفقود الخمس اصابع في أماكنهم.

ابتسمت بمكر، ثم حركت أحد أصابعها، فانتزع من مكانه للحظة، قبل أن تعيده مجدداً:

__ لأن هذا إصبع مزيف، رأيت؟

شعر بقشعريرة خفيفة تمر في جسده، ثم قال متردداً:

__ نعم لكن ماذا حدث؟

أظلمت ملامحها للحظة، ثم قالت بصوت خالٍ من أي تعبير:

__ لا شيء، كنتُ أحب شخصاً وخدعني.

ظل صامتاً، بينما تابعت كلامها بصوت أكثر بروداً:

__ كنت أظن أنني سأعيش معه باقي عمري، لكنه جعلني أكره كلمة الحب وكل ما يتعلق بها.

تقلصت ملامح صفيدر قليلاً، ثم قال بحذر:

__ ماذا فعل؟

تهددت بغصة وقالت:

— لم يكن يجنبي، بل أحب جسدي، خدعني بكلماته المعسولة، حتى أنه حاول أن يعتدي عليّ، لكنني هربت منه بأعجوبة كان في داخلي شعور لا يتحمله أحد... أن من تشعر معه بالأمان هو الشخص الذي يجب أن تحذر منه.

وجهي كان ينزف، فعندما رفضتُ، ضربني بكل الطرق الممكنة وبعد وقت قصير من الفراق بيننا عاد إليّ وكأن شيئاً لم يكن وكأني مجرد شيء يحق له امتلاكه.

قال بفضول يمتزج بغضب:

وماذا فعلتِ؟

قالت بعدم مبالاة... :

— لم أفعل شيئاً... لقد قتلته فقط . تعلم لقد أعطيته موعداً وانتظرت حتى جاء، جلستُ معه وتحدثنا، ثم في اللحظة المناسبة، أخرجت الخنجر وشققت صدره.

ارتعشت شفتاها، لكنها لم تتوقف عن الحديث:

— كان يصرخ وأنا كنت أصرخ أكثر منه أخرجتُ قلبه بيدي، ثم وضعته تحت قدمي ورحت أدوس عليه كما داس على ثقتي.

سكنت لفم يكن هناك سوى صوت النمل الذي يركض بسرعة في عتمة السكون.

ثم رفعت يدها مجدداً، وأشارت إلى إصبعها المبتور، قائلة بصوت أجش:

—ثم في لحظة غضب قطعت إصبعي لكي أذكر نفسي كلما خفق قلبي لأحد، أن الحب لا وجود له في هذا الزمن.

ظل صفيدر يقود النملة ولم يقل شيئاً لكن قبضته على اللجام اشتدت قليلاً، وكأن الكلمات التي سمعها أثقلت قلبه، دون أن يدري لماذا، أو انه يدري ولكنه ينكر ذلك.

أخذ نفساً عميقاً ثم رجع للحديث معها:

—أنتِ قوية، أقوى مما توقعت.

ضحكت ضحكة صغيرة، لكنها لم تصل لعينيها:

—لست قوية، أنا فقط لم أعد أملك رفاهية أن أكون ضعيفة.

(صمصام)

—الشعور الذي لم أستطع فهمه تجاهك، اتضح الآن.

نظرت إليه نائلة بارتباك ثم سألته:

—وما هو؟

التفت بنصف رأسه و قال ببساطة، وكأنه يلقي بحمل ثقيل عن كتفيه:

—أنا أحبك.

تجمدت للحظة، ثم حدثت فيه بصدمة قبل أن ترفع حاجبها بسخرية:

— هل أنت أحمق؟ أخبرك بكل ما مررت به، وأني لا أثق بالحب، ثم تأتي لتقول لي هذا؟

تهد صفيدر وكأن صراعًا داخليًا يمزقه، ثم قال:

— حاولت أن أمنع نفسي... حاولت ألا أقولها، لكن هناك شيء بداخلي، شيء لا أستطيع كبه، يدفعني لأن أبوح لك بها.

(ناثلة برود)

— وأنا لا أحبك.

كلمتها كانت كطعنة جعلته يدير وجهه للأمام موجهاً النملة بخفة وكأنها الشيء الوحيد الذي يمكنه التحكم به الآن.

اقتربت منه أكثر حتى كادت أن تلتصق به ثم همست في أذنه بصوت بالكاد سُمع وسط هدير الرياح:

— ولكنني لا أكرهك...

التفت إليها بتعجب

فأردفت: وهذا يعطيك فرصة.

لم يستطع منع ابتسامته التي لم يشعر بها منذ وقت طويل، وكأنها خرجت من أعماقه دون إذنه.

ثم بجرعة مفاجئة، ضغطت نائلة على جانب النملة بقبضتها، فأسرعت أكثر، تاركة الريح تلعب بخصلات شعرها.

((الفصل العشرون: نفق الكستناء))

مع انبلاح أول خيوط الفجر الرمادي ، اقترب الجميع من أسوار قبيلة النار فتوقفت النال مُتأملين المشهد الذي يتجلى أمامهم، كانت الجدران العالية التي تحيط بالقبيلة قائمة وموصدة.

أعلن صمصام:

__ها نحن قد وصلنا إلى قبيلة النار.

(صفيدر)

__كيف تمكنت من الهروب بوجود كل هذا ؟عندما استنجبت المعلومات من أحد تجار سوق عوصان بقرية المنبوذين وأخبرني أنه قد سمع أنك هربت دهشت حينها، ولكن لم أكن أتصور أن الأسوار بهذا الحجم ولا سيما الحراسة .

(صمصام)

أي قرية؟

(صفيدر)

__ قام جلمود بطرد جميع الفقراء والمرضى الذين لا يساهمون في إنتاج وعيش قبيلة النار خارج المدينة وهم الآن فوق قمم جبال الدوس، قريباً من هنا لقد انشأوا قريتهم الخاصة بهم تسمى قرية المنبوذين ولكن أود أن أعرف كيف تمكنت من الهروب.
(صمصام)

__ يوجد سجن ضخم محصن بالقرب من منزل جلمود تقريباً في المنتصف ، فمساحة السجن استولت على نصف مساحة قبيلة النار من الجهة الخلفية سور السجن الذى يعد جزءاً من سور المدينة. تمكنت من الهروب بطريقتي، لكنني لا أرغب في التطرق إلى ذلك، فالسجن يقع بعيداً عن هنا، حيث يحتفظ جلمود بالسجناء المهمين وأيضاً بالأشخاص الذين يرغب في إبعادهم عن الأنظار.
(صفيدر)

__ نعم لقد أخبرني التاجر بشيء من هذا والآن؟ كيف سندخل ولا تقل لي أنك لم تفكر في ذلك!

صمت صمصام لبرهة قبل أن يرد:

__ لا أعلم.

اتسعت عيننا بدر، وضرب بقبضة يده على سرح نملته:

__هل تمزح؟! جئنا كل هذه المسافة دون خطة؟!

لم يتحرك صمصام أو يظهر عليه أي انفعال، فقط قال :

__هدي الوحيد هو إقاذ سمراء والخطة آخر ما يشغل تفكيري.

ضحك بدر باستهزاء

__عظيم سندخل القبيلة، ونواجه حوثًا لا يُهزم، بجيشه، وسنكتشف الخطة ونحن نموت؟ عبقرية لا مثيل لها!

رفع سمعان يده بإشارة هادئة، مما جعل الجميع يلتفتون إليه، فهم بدر ما يريد قوله فقال:

__يقول لكم الحلول تولد من المواقف، تمامًا كما يولد النور من الظلام، إن خططت لكل شيء، فقدت القدرة على المفاجأة وإن وثقت بكل شيء، جعلوا منك المفاجأة.

انتهى بدر من ترجمة ثم اردف:

__جميل كلمات حكيمة لكنها لن تفتح لنا بوابة القبيلة، ثم إن كنت حكيماً هكذا فلماذا لم تستخدم حكمتك في شعبك.

قال صمصام رافعاً سبابته في تعبير عن الغضب:

__ اصمت ولا تتحدث حتى تنتهي المهمة فهمت.

خفض بدر رأسه قليلاً وأجاب:

__ أمرك سيدي.

سادت لحظة صمت قبل أن يهز صمصام رأسه ويقول:

__ أحتاج لحظة بمفردي...

قاد غلته بعيداً حتى صار بين الصخور، ثم تم بصوت منخفض:

__ ميساس، أحتاج إليك.

انبثقت ميساس من داخله ثم قالت بابتسامة غامضة:

__ أنت دائماً تحتاج إلي، لكنك لا تعترف بذلك.

(صمصام)

__ الوقت ليس مناسباً للمزاح، أريد طريقاً للدخول.

ميلت رأسها وكأنها تستعرض أفكارها، ثم نظقت قائلة :

__هناك نفق قديم، صنعه قائد القبيلة السابق كطريق سري للهروب لكنه الآن منسي، حتى الحوت جلمود لا يعلم عنه شيئاً.

أدام صمصام نظره إليها بتركيز وسأل:

__وأين هذا النفق؟

أشارت إلى الجبل القريب وقالت:

__عند سفحه، ستجد شجرة كستناء قديمة، جذورها تمتد إلى باب النفق.

ظل ينظر إليها لثوانٍ قبل أن يقول:

__حسنًا لنبدأ اللعبة.

عاد إلى رفاقه وقد ارتسمت على وجهه ملامح التفاؤل:

__تعالوا خلفي.

تبادل فارس ويدر نظرات متوجسة قبل أن يسأل الأول بريية:

__إلى أين؟

لم يلتفت صمصام، بل استمر في السير وهو يرد باقتضاب:

__ثقوا بي فحسب.

كانوا يتفحصون المسار المؤدي عبر التضاريس البركانية الوعرة، حتى وصلوا إلى
السطح الغربي للجبل. هناك بين الصخور السوداء المتفحمة، كانت تقف شجرة
كستناء عتيقة، تجذرت عمقاً في الأرض

اقترب صمصام من الجذع، تحسس أخاديه، ثم ركع عند قاعدة الشجرة، وأخذ
يحفر في التربة الرملية بأصابعه:

__ هنا يوجد مدخل تحتنا.

جثا صفيدر بجواره، واخذ يراقب حركاته المرتبكة وسأله بنبرة متوجسة:

__ هل أنت واثق مما تفعل؟

رفع رأسه ونظر إليه بعينين يشتعل فيهما العزم:

__ لا تُضِع الوقت بالسؤال ثم التفت الى البقية واردف:

__ فليحضر الجميع.

لم يكن هناك متسع للجدل، انحنى الجميع إلى الأرض، راحوا يحفرون بأيديهم،
يزيجون الرمل والصخور الصغيرة حتى ظهرت بوابة معدنية قديمة تآكلت أطرافها
بالصدأ، تنحدر عبرها درجات حديدية تفضي إلى عتبة سحيقة، رفع سمعان يده فجأة
ثم ترجم بدر إشاراته بصوت خافت:

__النمل لن يتمكن من العبور فذلك المدخل ضيق لذا علينا المتابعة سيرًا على
الأقدام، والنمل سيبقى هنا.

أوماً الجميع بالموافقة، لكن صفيدر التفت فجأة نحو نائلة وقال بصرامة:
__وأنتِ... لن تأتي معنا.

حدقت فيه بدهشة، بعدها عقدت حاجبها قائلةً باستنكار:

__هل فقدت عقلك؟ بالطبع سأدخل!

لم يغير نبرة صوته، ظل ثابتًا وهو يكرر:

__لا لقد وافقتُ على مجيئك معنا لأنك ستنتظرين خارج القبيلة.

(نائلة)

__لقد وافقتُ على ذلك في البداية، لكنني غيرت رأيي، لن تمنعني!

قبض على ذراعها بحزم وعيناه اشتعلتا بالغضب والقلق، بينما صوته ارتجف بانفعال
نادر:

__نائلة هذه ليست مزحة نحن ذاهبون إلى عرين الذئب حيث قد لا نعود أبدًا،
أفهم أنك قوية، لكني لا أستطيع تحمل فكرة خسارتك.

رمقته بنظرة طويلة، كان وجهه متوترًا، ليس بسبب الغضب بل الخوف، لم تعتد رؤيته ضعيفًا لكنه الآن بدا وكأنه يكافح للحفاظ على تماسكه:

— أرجوك ابق هنا وإن لم نعد، خذي إحدى النملات واتجهي غربًا حتى تصلي إلى قبيلة الماء.

حركت شفيتها وكأنها ستعترض، لكنها توقفت نظرت إليه نظرة مليئة بالمشاعر المختلطة ثم همست:

— لا تدع أحدًا يقتلك لأنك إن مت سأجد جثتك وأقتلك مجددًا.

ابتسم رغم كل شيء، تلك الابتسامة التي تشي بأنه قد فهمها أكثر مما تفهم نفسها، ثم رد بهدوء:

— سأعود إليك... أعدك.

(نائلة)

— ما زلت أكرهك ..

(صفيدر)

— وأنا لازلت أحبك.

باغتهم صمصام بصوت صارم:

ـ كفى حديثًا فلا وقت لهذا.

تردد صفيذر للحظة، ثم أفلت يدها بلطف استدار دون أن ينظر خلفه، تبعه الآخرون، أشعلوا المشاعل وانزلقوا واحدًا تلو الآخر إلى النفق تاركين خلفهم الفجر يتسلل ببطء فوق قمة الجبل...

صمصام كان يحترق من الداخل تراوده هواجس سمعية وبصرية، يرى سمراء وكأنها واقفة أمامه، تمد يديها نحوه وتتوسل ((أخرجني من هنا)) كلما ازداد هذا الشعور بداخله، كلما دفعه إلى الإسراع بكل طاقته، غير عابئ بالخطر أو الألم، ولا يعلم انها ليست موجوده في قبيلة النار حتى ايها لا يعلم اين هي، هو جاء لإنقاذ شخص ليس موجود في ذلك المكان فلقد كان يخبئها نفيل في كهف سري خارج القبيلة في هذا الكهف استفاقت سمراء على يد خشنة تتحسس وجهها، تزيح خصلات شعرها المتدللية على عينيها النعستين، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها قبل أن تتضح الرؤية أمامها... كان نفيل يقف هناك، عيناه تتلألآن بشرّ مكبوت.

صرخت في وجهه، وحاولت التحرك، لكنها سرعان ما أدركت أن معصمها وقدميها مكبله، وجسدها محاصر داخل مكان مظلم لم تستطع التعرف عليه.

ابتسم نفيل بخبث، بينما صوته يقطر سخرية وهو يقول:

ـ أخيرًا الأميرة الصغيرة مكبله أمامي.

ارتجف جسدها وزحفت إلى الخلف، لكن الجدران الحجرية والأغلال التي تقيدها جعلت الهروب مستحيلًا، مد يده واخذ قناعها فصاحت، تحاول التشبث بأي أمل:

__ابتعد عني، أخرجوني من هنا.

نظر إليها بنظرة تعاطف مصطنع يشوبها خبث عميق:

__مسكينة لن يسمعك أحد فنحن بعيدون عن القبيلة بأميال.. رفع جناحيه مشيرًا للمكان حوله ثم تابع

__مرحبًا بك في كهفي الخاص.

اقترب أكثر حتى شعرت بأنفاسه الباردة تزحف على بشرتها ثم انحنى بجانبها، وهمس كأنه يسكب السم في أذنيها:

__لا تقلقي لن أكلك فقط أريدك أن تري عهدي الجديد... أريدك أن تشهدي موت الحوت الأحمر أمام عينيك.

تسارعت أنفاسها وارتجف جسدها حاولت الصراخ، لكن الخوف كان يخنق صوتها. انهمرت دموعها بلا توقف حتى صرخت أخيرًا بصوت متحشرج:

__أنت وحش.. كيف تفعل هذا؟

ضحك، ضحكة مجنونة تردد صداها في الكهف، قبل أن يرفع ذقنها بقسوة، يجبرها على مواجهته، على الغرق في سواد عينيه الحاقدين:

—وحش؟ بل الوحش الحقيقي هو والدك جلمود الذي قتل أبي خلدون أخيه.

من صدمتها كان عقلها يرفض تصديق ما قاله نفيل، لكن السؤال تسلل إلى ذهنها رغماً عنها يعصف بها يطالب بإجابة كانت تخشاها تلعثت شفتاها وكأنها تعطي السؤال دون أن تجرؤ على سماع جوابه:

—أبي... هو من قتل عمي؟ لا... لا يمكن... أنت تكذب! أبي لن يفعل ذلك أبداً!

أطلق نفيل ضحكة قاسية، ثم دفع رأسها بقسوة، فسقطت على الأرض، تأوت من الألم، لكنه لم يكتثر بل نظر إليها باحتقار وقال:

—أوه، كم أنت بريئة... جلمود ليس كما تظنين لقد كان حقوداً منذ صغره أتدريين لماذا؟ لأن القصة بدأت قبل ولادته بسنوات...جدي عشنار أحب جدتك عتية، وتزوجها رغم معارضة الجميع، وأنجبا منها جلمود، لكن القدر لم يكن رحيماً عتية ماتت أثناء ولادته.

هل تعلمين من كانت هناك؟ من رأت كل شيء؟ جدي زهيرة.

كانت زوجة عشنار الأولى، المرأة التي أهملها لأجل عتية، ورغم ذلك أخذت جلمود وربته كأنه ابنها لم تفرق بينه وبين ابنها الحقيقي، أحبت زهيرة ابن زوجها

أطعمته، احتضنته، كانت له الأم التي لم يحظَ بها لكنها لم تكن تعلم أنها تربي قاتل
ابنها بيديها.

صمت لحظة ثم ازداد صوته مرارة:

__ كانت تعامله كأنه الوحيد حتى إنها كانت تقول إنه يتيم بحاجة إلى الحنان، بينما
أي... ثرك دون رعاية، دون اهتمام، كان يرى كل شيء، يرى كيف يُفضّل عليه ابن
المرأة التي كرهتها أمه حتى الموت.

وهكذا نشأ والدك يحمل في داخله ديتًا قديمًا، ديتًا لم يغفره أبدًا وحين كبر سدّده
بدم أخيه ابن المرأة التي ربه.

زادت رجفة سمراء تحاول إنكار ما تسمعه كأن رفضها للواقع قد يغيّره:

لا... هذا كذب... أي لم يكن ليسفك دم أخيه.

(ثقیل)

__ كذب؟ هل تعتقدين أنني اختلقت ذلك؟ جلمود قتل خلدون... قتل أخاه...
ليس انتقامًا ليس دفاعًا عن النفس... بل فقط ليحكم قبيلة النار وحين علم عشنار
بما حدث... لم يعاقبه بل كرمه وجعله زعيمًا للقبيلة.

حاولت الإفلات من الأغلال وهي تتمم:

- كاذب.

رفع يده وصفعها بقوة جعلت رأسها يصطدم بالأرض الصلبة، رنين الألم تردّد داخل جمجمتها شهقت وهي تحاول استعادة أنفاسها:

__كاذب جلمود هو الكاذب الحقيقي، وحين حاولت جدتي زهيرة الانتقام منه،
عشّار أخذه الخوف والعار فسجنها في قرية معزولة داخل غابة نيمورا، حيث لا
ضوء ولا خلاص والآن جاء دوري لأخذ حقي وحقها وحق أمي التي ماتت بكاء
على أبي.

(سمراء)

__زهيرة ليست مسجونة انت تهذي.

(نفيل)

__هذا ما لا يعلم به احد حتى جلمود لقد كان اتفاق جدي عشّار مع العمدة الا
يكشف سر سجنها لأحد حتى هي لم تستطع ان تبوح بذلك لكي لا يقتلها الحوت إن
علم انها كانت تحاول قتله ولهذا هي مسجونه.

تسلّل ظل ثقيل إلى داخل الكهف حركات بطيئة تلاها خشخشة ناعمة ثم صوت
امرأة مدلل مشحون بجنون:

__أوه... كم أحب التجمّعات العائلية.

قالتها باستهزاء بينما كانت تحمل شيئاً لم تدرك سمراء في البداية ما هو، اقتربت المرأة ورفعت يدها كاشفة عن الذي تحمله، كانت تبتسم وعيناها يظللها نشوة مرعبة. تسمرت عين سمراء حين أدركت ما كانت تحمله تلك المتوحشة إنها ذراع بشرية ما زالت مغطاة بالدماء.

مدّتها نحو نفيل وكأنها تقدّم له هدية فأخذها منها بلا تردد، وقضم منها قضمه بوحشية ففسر لها ذلك قول نفيل لن أكلك الآن ، لقد كان كلامه حقيقي وليس مجازي.

ثم بلا مبالاة مدّ ما تبقى نحو المرأة التي أخذت قضمه وهي تضحك بجنون. عينا سمراء اتسعتا بالرعب أوعاؤها انقلبت، معدتها تلوّت كأنها تريد لفظ كل ما في داخلها.

تدني نفيل من سمراء مره أخرى ثم لاح بيده، بعدها مسح الدماء عن فمه بظهر كفه هامساً:

__هذه مجرد بداية سأقتلك ببطء سأجعلك تتميّن الموت لكنني لن أمنحك هذه الرحمة... ليس قبل أن أرى وجه جلمود وهو يبكي كالطفل، تماماً كما أبكاني وكما أخذ مني حقي.

ابتعد عنها واتجه نحو زاوية مظلمة ثم مدّ يده وأمسك بغطاء ثقيل من القماش المملطخ بالدماء، وما إن أزاحه حتى كشف عن كابوس لم يكن حتى في أسوأ خيالات سمراء، لقد ظهر القفص الضخم الذي يخبئ بداخله المتحولون، مشهد جعل الهواء يتجمد في حلقتها جثث لم تكن ميتة تمامًا كانت تتحرك بطريقة غير طبيعية، تتلوى كأنها تتعذب عيونها غارقة في الظلام، فاعرة أفواهها كما لو كانت تصرخ دون صوت. البعض كان يزحف بأطراف مكسورة، والبعض الآخر يجر نفسه كدُمى مكسورة، بينما تصاعدت أصوات أنينهم، تخترق المكان كخناجر تحفر نفسها في عقلها، في أعصابها، في روحها.

ضحك نفيل بهستيرية وفتح ذراعيه كأنه يعانق المشهد المروع، عيناه تشعان بجنون طاع، ثم قال بصوت يملؤه الكبرياء والعظمة الزائفة:

—الجميع يهابون المصابين... يعتقدون أن الموت نهاية كل شيء لكنني كسرت هذا القانون فلم أعد أخشى الموت... بل سيخدمني لقد أصبحت ملك الأموات الأحياء... وسأصبح ملك القبائل جميعها.

انحنى قريبها يراقب رعبا بعينين متلذذتين ثم همس بازدياء:

— كنتِ تظنين أنني سأتزوجك؟ هه ظننتِ حقًا أنني أحببتك يومًا؟ يا لكِ من ساذجة... أنا لا أحبك بل أكرهك كرهتك كما والدك وكما كرهت أمك.

توقف قليلاً ثم تابع بنغمة قاتلة من السخرية:

—أوه، هل نسيتِ أنني لم أخبركِ؟ جلمود قتل جدك أرمغان... انا ارى انه يستحق ذلك، فقد ساعده ليصبح الحوت وأعطاه القوة التي لم يكن يستحقها بل وأكثر من ذلك اعتنى به بعد ذهاب عشنار وزهيرة إلى نيمورا ولهذا... جدتي زهيرة كانت لطيفة بما يكفي لتخبر أمك الحقيقة... والآن أمك الغبية ذهبت لمواجهته... لكنها لن تستطيع هزيمته... سيقتلها بلا شك.

(سمراء)

—كفاك خداع زهيرة ما زالت في نيمورا.

(نفيل)

ارسلت وحوشي وقد دمروا نيمورا فاستطاعت زهيرة الهرب من العمدة بعد أن قُتِل.

كل شيء حولها انهار في لحظة والدها... جدها... والدتها... كل شيء تآكل كالخشب في نار الحقيقة المشتعلة.

ضحك وهو ينتقص عليها بأصابعه القاسية التي أمسكت بوجهها، وأجبرها على النظر إلى تلك الجثث المتعفنة حاولت أن تغلق عينيها، لكنه ضغط على فكها بقوة، جعلها ترى كل شيء، جعلها تواجه كابوسها دون مهرب:

__ستشاهدين كل شيء... ستشاهدين العالم ينهار من حولك... قبل أن أتركهم
ينهشون لحمك قطعة... قطعة.

((الفصل الواحد والعشرون: في بيت الأعداء))

(حين تُنسج المكائد في الخفاء لا تكون غايتها الفعل بل الانتظار، فالمكيذة ليست
ضربة بل فكرة تُغرس وتنمو في العقول قبل أن تظهر في الواقع، فهل من سائلٍ يجرؤ
أن يستفسر وسط ضباب الشك، وهل صمصام سيُدرك أن زهيرة ليست كما
تبدو، وهل سينفر من مكيدتها، أم أن الهروب من الفخ هو بداية السقوط فيه؟)
عند حافة النفق ظل الصمت كثيف لا هو من جنس الخوف ولا من طمأنينة
الوصول... بل كأن الوقت نفسه يتقرب قرارًا لم يُنطق بعد، تبادلوا النظرات لا أحد
بادر بالحديث حتى انكسر الجمود بصوت صمصام:
__ هذا هو المخرج.

رفع رأسه إلى السلم الحديدي المتجه للأعلى تأمله دون استعجال:
__ لن نخرج جميعًا لأننا إن تحركنا دفعة واحدة، سينفضح امرنا.. قالها دون رجاء أو
تشاور.
(صفيدر)

__ ما الذي تخطط له ؟

رفع صمصام شعلة لهيبها انعكس على ملامحه ثم نزع كمامته حتى يفهم الجميع ماذا يقول:

__ سأخرج انا وانت نبحث عن سمراء

(صفيدر)

__والباقي؟؟

(صمصام)

__سيظلون هنا.

اعترض سمعان ملوحًا فأداروا له وجوههم فبادر بدر:

__يقول إنه قادر على الإحساس بالاهتزازات ، فيستطيع توجيهكم دون أن يهمس أحد.

صمصام خطأ نحوه، وضع يده على كتفه وقال.

__ ممتن لك...

لكن سمعان أشار مجددًا، بلهجة لا تحتمل المجاملة اظهرها بدر:

__ لا وقت للامتنان، تحرّكوا.

استدار صمصام للبقية:

__ ثلاثتنا سنخرج نبحث عن سمراء، إن لم نعد خلال أربع ساعات، لا تنتظروا
وفتشوا عنا في كل مكان....

لم يسألهم إن كانوا موافقين أو معترضين نظروا لبعضهم ثم أومأوا خاضعين.

كان السلم يئن تحت اقدام سمعان لكنه مضى خطوة بعد أخرى حتى وصل السطح
هناك توقف بعدها مد راحته على غطاء النفق، يتحسس الذبذبات، كأن الأرض
تبوح له بحضور الآخر، بعد فتره قصيرة أشار لهم بالصعود.

خرجوا تباغًا حتى ووجدوا أنفسهم داخل غرفة من زمن آخر. الجدران تقشرها
الرطوبة، والأثاث مهترئ حد الأتلاف كأن المكان تنفس الغياب لعقود كانت تلك
الغرفة لا يوجد فيها باب او حتى ثقب يدخل الهواء .

دارت عين صمصام في الغرفة يبحث عن مخرج حتى وقعت عيناه على صورة عتيقة
غطى الغبار ملامحها، اقترب منها ومسحها بكفه وفي اللحظة التي انكشفت فيها
اللامح همس:

__ هذا هو عشنار الحوت الأحمر، لقد رأيته في صغري ومن يومها ولم أنس
ملاحمه.

صفيدر اقترب أيضًا يحدق في الصورة هو الآخر :

— نعم نحن في بيته.

سمعان جلس أرضًا بينما كانت أنامله تمشط البلاط بتركيز عميق، فجأة أشار نحو الحائط .

(صفيدر)

— ما الذي يشير إليه؟

أجاب صمصام، بعد أن تبادل نظرة سريعة مع سماعيل:

— هناك باب مخفي.

اقترب ووضع يده على الجدار في المكان المشار إليه من قبل سماعيل، بدا في بداية الأمر صلبًا حتى شعر بجافة بالكاد تلمس جذعها حينها استجاب الجدار وانفتح.

كُتبت اصواتهم متبادلين نظرات حذرة ثم دخلوا بعدها.

في الممر الجديد عليهم ساروا بخطوات ناعمة كأنهم يسرون على قلوبهم وسمعان في المقدمة يضع يده على الحائط ولا يتركه كأنه يسترشد بنبضه.

توقف مرة واحدة ورفع يده بإشارة خاطفة، فاخترأ الجميع في اول غرفة كانت امامهم.

مرّ حينها حارس يتأمل كسكران فقد الطريق إلى نفسه، خطواته مهزوزة لكنه لا يزال خطرًا يتنفس حبسوا أنفاسهم ولما مضى الحارس أشار سمعان بالخروج.

تحركوا بحذر مجددًا، لكن هذه المرة، بدأ سمعان يرفع أذنه قليلًا، يستنشق الهواء يبحث عن أثر غير مرئي، راح يحرك يده ويشير إليهم، محاولاً إيصال معنى ما ضيق صفيدر عينيه وقال بتساؤل:

__ماذا يقول؟

(صمصام)

__لا أعلم بدأت أفهم لغته لكنني لم أتقنها بعد، لو أن بدر كان معنا.

نظر سمعان إليهم بامتعاض ثم رفع يده إلى شعره، وأخذ يشير بلمسات سريعة إلى خصلاته قبل أن يرسم بيديه ملامح جسد أثوي.

(صمصام)

__أتعني أنك تشم رائحة امرأة؟

أوما برأسه مؤكدًا.

سكنت ملامح صمصام وقلبه بدأ ينبض بقوة:

__وأين تلك المرأة؟ قد تكون سمراء.

أكمل التقدم أنامله ما زالت تتحسس الجدران، وعيناه مغمضتان نصف إغماضة،
بعد لحظات توقف أمام باب خشبي مطلي بلون أحمر قاني، رفع يده وأشار إليهم
بالدخول.

أراح صمصام يده على الباب ثم دفعه وبصوت بالكاد يخرج منه همس:
_سمراء، أين أنتِ يا سمراء؟

الغرفة كانت شبه مظلمة لا يوجد سوى ضوء خافت ينبعث من مصباح زيتي
معلق في وسطها كان هناك كرسي خشبي يدور ببطء عليه جلست امرأة،
ملاحظها غير واضحة في البداية وعندما اكتمل دوران الكرسي...

تجمدت الدماء في عروق صمصام لأنها لم تكن سمراء بل كانت الجدة زهيرة، جالسة
بكل هدوء تنظر إليه بعينين لا تحملان أي دهشة كأنها كانت تنتظره .

_الجدة زهيرة؟ قالها صمصام في حيرة فلم يتوقع أن تكون هنا.

انتصب من على الكرسي ثم احتضنته بحنان مصطنع قائلة:

_نعم يا بُني إنها أنا.

ظل جامدًا لدقيقة قبل أن يتعد عنها قليلًا وينظر إليها بشك:

_كيف أتيتِ إلى هنا؟ ألم تترككِ في نيمورا، وقلتِ انكِ لن تتركها ؟

(زهيرة)

— أتيْتُ لأُصلِحَ ما فعلته سابقًا، جلست وحدي طويلًا، لكن ضميري لم يتركني وحيدة قلت لنفسِي أنتِ من فعلتِ هذا يا زهيرة، أنتِ من أبعدتِ صمصام عن حبيبته، وأنتِ من فرقتِ حفيدتك عن حبيبها ولم أجد في عقلي سوى فكرة واحدة، يجب أن أصلح ما ارتكبته فجئت إلى هنا لأحاول تصحيح الأمور. قاطعها صفيدر بصوته الساخر وهو يعقد ذراعيه:

— كيف حالكِ يا عجوز؟

نظرت إليه باستياء ورفعت حاجبها:

— لقد أتيْتُ أنتِ أيضًا؟ سيأتي يوم أجعلك تندم على مناداتي بالعجوز.

ضحك صفيدر قليلًا، ثم قال بمكر:

— كنتُ أمزح معكِ يا جدتي.

رمقته بنظرة جانبية، وتمتت بنبرة شبه مسموعة:

— وأنا أيضًا أمزح، أو لعلي لا أمزح.

حوّلت نظرها إلى سمعان، الذي ظل صامئًا طوال الوقت وتأملته قليلًا قبل أن تسأل:

—ومن هذا؟

(صمصام)

—إنه صديق تعرفنا عليه في طريقنا.

أردفت بترحيب مختلط بالحذر:

—أهلاً بك.

أكتفى سمعان بإيماءة احترام، فأخذت زهيرة تراقبه باستغراب قبل أن تسأل:

—لماذا لم يرد؟

(صفيدر)

—لأنه لا يتكلم يا جدة فهو أبكم وأصم.

أشارت برأسها بتفهم، ثم عادت إلى صمصام وسألته بجديّة:

—بماذا كنتم تفكرون؟ وكيف دخلتم إلى هنا أصلاً؟

(صمصام)

—وجدنا نقباً بالصدفة.

(زهيرة)

__نفق أي نفق؟؟

(صمصام)

__ هو نفق صنعه الحوت السابق عشنار ليكون ملاذًا له في حالة الحرب أو

الهجوم، كيف لم تعرفي بوجوده وأنتِ زوجته، يا جدة؟

ارتبكت من هذا السؤال، ثم تنحنحت بتوتر وأجابت:

__عشنار كان لديه أسرارهِ الخاصة.

حاولت أن تبدّل الموضوع سريعًا، فسألتهن:

__لم تخبروني بعد، ماذا تخططون لفعله؟

(صمصام)

__سنجد سمراء، ثم نهرب من النفق الذي أتينا منه.

لمعت عينا زهيرة بنخبث وارتسمت على شفثيها ابتسامة غامضة قبل أن تهمس

بصوت ناعم:

__أجل إنها خطة ذكية اشارت لهم__ تعالوا معي سأدخلكم غرفة سمراء.

تحرك الثلاثة خلفها بلا تردد، تسيرهم ثقة زائدة بها غير مدركين إلى أين يقودهم الطريق أما هي فكان ذهنها يغوص في حسابات معقدة، عليها أن تتخلص منهم قبل أن يلمحهم جلمود، وإلا فإن خطتها ستنتهار وينفضح أمرها بالكامل.

مثلت انها ترى خيالات تقترب فأشارت لهم بسرعة فاخذتوا داخل غرفة من الغرف اقفلوا الباب ثم تبادلوا النظرات بقلق وخوف مرت الدقائق حتى انفتح الباب قبض صمصام على سيفه حتى اتضح ان زهيرة من فتحت الباب:

__هيا اكملوا السير خلفي.

مشوا ورائها حتى باغتتهم ضربات قوية فوق رؤوسهم أفقدتهم الوعي على الفور.

على بُعد امتار كانت راجحة في حجرها تتودد إلى جلمود، وقفت أمام المرأة تتزين، تمرر أصابعها في شعرها وتبتسم لنفسها.

ثم اقتربت منه وهو مستلقي على السرير هامسة بدلال:

__لم نجتمع منذ وقتٍ طويل...

ابتسم جلمود ابتسامة شائها الحذر وقال:

__ما الذي غيرك؟ لقد منعتِ نفسك عني، وكنتِ تحلفين أنك لن تعودى إليّ حتى تنتمنى لمقتل أرمغان فكيف تبدل رأيك الآن؟

ضحكت بنعومة لكن شيئاً في عينيها كان متصلباً:

__سئمتُ من ملاحقة دم أبي، فلقد حرمني الحب فترة طويلة، ثم إنني أعلم من قتله،
وسياتي الوقت الذي أقتله فيه.

قطب حاجبيه وقال بتوتر:

__ماذا تقصدين؟

أجابت بههمة:

__أقصد ما أخبرتي به.... إن من قتله مقرعون.

أطلق نفساً عميقاً، كأن حملاً ثقيلاً زال عن صدره، وتمتم:

__أجل... أجل.

ادنت منه لتقبله لكنها تراجعت فجأة وجرت في الغرفة كأنها تتلاعب به نهض من
سريره وركض خلفها، فركضت منه وهي تضحك بمرح طفولي، حتى أمسك بها
أخيراً لم يصبر حتى عانقها بجملة.

(راجعة)

__ذاك العناق؟ هو نفس شعوري حين عانقتني لأول مرة في يوم زفافي.

(مقرعون بحنين)

—حي لك لم يخمد يومًا، ولذا تشعرين بنفس الإحساس.

(راجعة)

—حين قلت لي إنك تحبني لم أصدق، لطالما أحببتك لكني كنت أخفي ذلك تحت قديمي، خوفًا على كرامتي حتى سمعت منك تلك الكلمات، شعرت حينها أنني أولد من جديد، كنت أضحك لأتفه الأسباب، وامتنعت عن الطعام في ذلك اليوم لأنني لم أعد أشعر بشيء إلا بك.

كان يشم شعرها وهو يتابع:

—ما تشعرين به لم يصل درجة حي لك، أي عشنا غضب مني حين أنجبت سمراء، لأنه أراد ذكرًا يرث الحكم من نسلي وليس من نسل أخي خلدون، وأمرني أن أتزوج غيرك... لكني رفضت، فقربك يساوي ألف امرأة، وابنتي التي أنجبتها منك تساوي رجال العالم.

انا اعلم انني السبب في اختفائها وليس انتِ، فأنا من كُنتِ العدوات واشعلت الفتن، ولكن هكذا تربيت كن اقوى تعيش ويعيش شعبك، سيطر، دمر، لا تحمل الضعف على اكتافك.

أمسك بذقنها برقعة، ففوجئ بالدموع تنساب على وجنتيها:

—لماذا تبكين؟

قالت بصوت متهدج:

__ هذا لن يصفح لك.

(مقرعون)

__ ماذا تقصدين؟؟؟؟

بهذوء أخرجت خنجرًا كانت تخفيه بين ثيابها لاحظته في اللحظة الأخيرة فاندفع ليمسك يدها، لكنها كانت أسرع رفعت الخنجر باتجاه صدره، فأمسك معصمها بشدة، ارتجف جسده، ارتبكت ملامحه، لم يكن مستعدًا لهذه اللحظة.

وفي لحظة فوضى... دفعها بعنف دون أن يقصد، وبين الاندفاع والتراجع، انزلق فصل الخنجر من يدها إلى بطنها، شهقت وهوى جسدها إلى الأرض.

حدّق فيها جلود مذهولًا، وعيناه تملؤهما الحسرة، رجع إلى جوارها وضمّهما إلى صدره، والدم يسيل من بين أصابعه:

__ رابحة... لا... لم أكن أريد...

ارتجف جسدها بين ذراعيه بينما صدرها يعلو ويهبط بأنفاس غير منتظمة. أمسك بيدها المرتخية، وطبع قبلة مرتجفة على أصابعها، ثم قال وهو يكاد لا يصدق:

__ رابحة كل شيء كان يمكن أن يُغفر، حتى هذا كنتُ سأغفره فقط لا ترحلي.

فتحت عينيها بصعوبة، تحديق فيه بنظرة موحشة:

__أحببتك وكرهتك في اللحظة ذاتها، وإن كنت ستغفر انا لا.

ابتسمت، ابتسامة واهنة كأنها تودّع بها الدنيا، وأضافت:

__ لا تضع ابنتي ارجعها و علمها ألا تثق بالرجال كما وثقت امها.

ثم غامت عيناها، وسقط رأسها على كتفه جالبا السكون.

جلس جلمود في مكانه يحتضن الجسد الذي بدأ يبرد. ووجهه جامد لم يرمش وتوقفت انقاسه وكأنه يحاول الصراخ ولا يستطيع.

مرت دقائق أو ربما ساعات لا أحد يعلم نهض بعدها وحملها بين ذراعيه، وسار بها إلى الخارج.

كانت الريح تعوي بالخارج فتح باب القاعة الكبرى، ثم استدار إلى أحد الخدم وقال بصوت أجش:

__جهّزوا القبر، سيدة هذا القصر سترحل الليلة.

حدّق الخادم في وجهه وبجسد رابحة ثم اشار بخضوع.

لكن الأخير ظل ثابتا في منتصف القاعة بينما الريح تعصف بالأبواب والنوافذ، تصرخ معه دون أن تدري.

نظر إلى الجسد بين ذراعيه، إلى العينين المنطفتين، إلى الفم الذي اعتاد أن يخاصمه ويفغر لم يعد يحتمل لم يشعر حين بدأ يصرخ صرخاً لا يشبه الرجال، بل يشبه الأطفال حين يضيعون أمهم في الزحام، صرخة واحدة، ثم صمت بعدها، لكن ذلك الصمت لم يكن راحة، بل اختناق.

تمتم، بصوت انقلت من صدره كأن صدره قد انكسر:

__قتلها جهلي، وعدم غفرانها...

وقبل أن يفعل أي شيء، دلف أحد الحراس إليه يلهث من شدة الرعب، كأنما رأى الموت واقفاً على الأبواب:

__سيدي الحوت.

(جلمود بغضب)

__ما بك يا أحمق؟ ألا تراي ما أنا فيه؟

ردّ الحارس بصوت مضطرب:

__لكن الأمر جلل هناك جيش ضخم على أبواب السور يتقدمه الحوت الأزرق والأسود ماذا تفعل يا سيدي.

الترم جلمود الصمت ولم يردّ فقط أنزل عينيه نحو رابحة ثم سارا كأنّه لم يسمع شيئاً.

ولج الى جناحها ثم وضعها برفق على سريرها، كما توضع القديسة في ضريحها، قبل جبينها، ثم جلس بجوارها وبكى بكى كما لم يفعل في حياته، تشهق وتشثف لو رآه أحد لما صدق أن هذا جلمود... الذي قيل إن قلبه من حجر.

اقترب من أذنها كأنّه يعلم أنها تسمعه:

__انتظريني، لن أتأخر عليك.

مسح دمه بظاهر كفه واستدار بعدها، استدعى قائد جيشه عاشور، فدخل الأخير على عجل.

(جلمود)

__أعد الجيش.

(عاشور)

__لا أستطيع...

(جلمود)

__هل جنت يا احمق.

(عاشور)

_ لا، ولكن نفيل اخذ أكثر من ثلثي الجيش..

(جلمود)

_ لماذا؟؟؟

(عاشور)

_ لا أعلم..

(جلمود)

_ وكيف سمحت له بأن يأخذ ذلك العدد؟؟؟

(عاشور)

_ أنت من امرت ياسيدي فلقد سمحت له بأخذ ما يريد من الجيش، لكي يحضر
الأميرة سمراء.

(جلمود)

_ ابعث من يبحث عن نفيل واخبره ان يرجع بالجيش ، ثم اجمع كل شاب في
القبيلة، ولا تترك امرأة تستطيع حمل بندقية أو مسدس إلا وضعها في الصفوف،
حتى الأطفال... أدخلهم، فهذه الأرض لن يحميها إلا من يعيش فوقها.

انحنى عاشور نصف انحنائه ثم وضع قناع الاستنشاق وانطلق ينفذ.

في ساعات، تدقق المقاتلون نحو الساحة، الجيش النظامي تجاوز خمسة آلاف مقاتل، وما جمعه من رجال القبيلة ونسائها وصغارها بلغ خمسة آلاف، المدينة صارت قلعة، وأهلها صاروا نارًا تمشي على الأرض، وفي الخارج، كانت البوابة ترتجف تحت ضربات الأعداء.

صوت المطارق يهز الجدران، والحديد يصرخ ومع كل ضربة، تقرب البوابة من الانهيار.

صعد جلمود أعلى السور، ، يحدّق في ساحة الموت بعين لا تعرف الرحمة، انتزع قناع الاستنشاق من وجهه وأطلق حكمه:

__أطلقوا النيران.

(الفصل الثاني والعشرون: ابي ليس قاتل)

انفجرت الدنيا بالسهم المشتعلة فكانت كالزواحف الجهنمية، البنادق تنفث أنفاسها الأخيرة، المدافع تزأر كالوحوش المربوطة بسلاسل، اندلع جدار اللهب فابتلعت النيران أجسادًا تصرخ ولا تموت، وتذوب ولا تُدفن.

صفوف العدو تراجعت للحظات ثم صمدت بعضهم احترق واقفًا والبعض تهاوى في صرخاته.

صمد جلمود وحاول أن يطيل أمد القتال، لكن الذخيرة شحيحة حتى نفذت مع الوقت..

ازدادت ضربات العدو، والبوابة لم تعد تتحمل المزيد.

التفت جلمود الى عاشور واوماً له فأمر عاشور:

__الآن... ألقوا قدور الحمم.

انصبت القدور من الأعالي كان بعضها يحمل زيتا مغليا والآخر حمما منصهرة ، احترقت الصفوف الأولى من العدو، وتراجع بعضهم، لكن الغضب كان أقوى من تلك النيران.

في الصفوف الأخيرة، كان ينظر عدنان إلى الدمار الذي يحدث امامه التفت إلى الحوت الازرق __ لن نسقط هكذا...

ابتسم "مقرعون" ثم التفت إلى عدنان وقال بصوت خافت:

__سأنهي عليهم .

رفع عدنان حاجبه باستغراب، فأكل "مقرعون"

__منذ امان أمرت جرميد أن يبحث لي عن كيميائي... كل ما أردته كان قنابل يدوية من البارود وقد فعل ، حصلت على ما أريد.

(عدنان)

__لكنك لم تكن تريد لهذه الحرب أن تقع، فكيف اعددت لها منذ زمن بعيد وانت تسعى لسلام.

(مقرعون)

صحيح لم أردّها، لكن جلمود أجبرني، كنت اعلم انه سينقلب في أي وقت فأردت ان احمي شعبي .

ثم أمر فجأة بصوت أريك الجميع:

__أطلقوا البارود!

تقدّمت المجانيق، وكانت محمّلة بقنابل بارودية بدائية، لكنها قاتلة.

في لحظات، انطلقت أول دفعة فارتجّ السور بانفجار هائل، وتناثر الغبار والحجارة.

صُعب المدافعون، وتعالّت الصرخات، وبعضهم طُمر تحت الركام.

استمر "مقرعون" يأمر دون رحمة:

__أطلقوا!

ضربة تلو الأخرى، والمنازل تهدم، والشوارع تتشقق، والدم يسابق الصرخات.

كان الدمار شاملاً.

وفي وسط هذا كان يردد مقرعون:

__أطلقوا... أطلقوا... ولا يتوقف كأنه أصيب بهستيريا الإطلاق.

أسفل المدينة في ذلك النفق العميق كانت الأرض تهتز تحت أقدامهم وقطع من السقف تتساقط من الأعلى معلنة عن احتضار الجدران ارتفاع الغبار في الجو، وخيم شعور بالخطر القريب.

قال نجم وهو يتشبث بالجدار المرتعش:

__ما الذي يحدث.. أتراها نهاية العالم؟؟؟

بدر كان يحدّق في الفراغ بنظرة قلقة ثم خلع كمامته وأدار وجهه نحو جنود آل سمعان، كي يروا شفثيه بوضوح وسط الضوضاء:

__لا أعلم ما الذي يجري، لكن الأمر ليس عابراً.

ثم أضاف، ووجهه يزداد صرامة:

__لقد مضت أربع ساعات كاملة، هذا يعني أن الوقت قد حان فاصعدوا لا تنتظروا حتى تُدفن هنا.

جرى الجميع بسرعة يصعدون السلم كأن شيئاً يطاردهم من الأعماق.

وما إن وصلوا إلى الأعلى وجدوا باب الغرفة المؤدية إلى القصر لازال مفتوحاً دلفوا من خلاله الى داخل القصر حتى اصطدموا بالفراغ ، لا أثر لأحد، المكان موحش، السكون فيه يصرخ وحده.

ثم، من خارج القصر انطلق صراخٌ مفزع...

صوتٌ لا يمكن وصفه، كأنه النواح الأبدى، أو صرخات أرواح تُسحب من أعماق الجحيم

__ ما هذا __ قال زهد في رعب، بينما الدخان يتصاعد من النوافذ، وأصوات التفجيرات تهزّ الجدران، وأنين الجرحى يتصاعد مع صراخ المذعورين.
رد بدر بصوت مرتجف:

__ المدينة تُباد.

التفت الى احد رجال ال سمعان و اشار له:

__ أين السيّد صمصام؟ والسيّد سمعان و صفيدر اعرف انه يمكن ان تشم رائحتهم، فلتبحث عنهم .

خلع هذا الرجل حذاءه، بعدها رفع قناعة ثم جثا أرضاً، ووضع قدمه العارية على البلاط، ثم اشار ببطية فافهمهم بدر:

__ يقول أنه يشعر بمكانهم كما انه يشم رائحتهم .

قال بدر في عجلة:

__اتبعوه.....

انطلق الرجل، يخطو واثقًا وسط الاهتزازات، يتتبع ذلك الإحساس الغريب وكأن
الله وقدميه آذانًا تُصغي لما تحت الأرض.

قادم في الممرات، إلى أن توقف أمام غرفة من الغرف فتح بابها بجذر، كانت فارغة
لكنها لم تكن غريبة لأنها نفس الغرفة التي احتموا بها قبل ان يعثروا على زهيرة، رائحة
أنفاسهم ما زالت عالقة في جدرانها.

أدار رأسه ببطء، ثم خرج منها دون أن يفعل أي حركة ، يتتبع الرائحة الخافتة
التي تتسلل في الممرات ، وتمنحه بصيرة لا يمتلكها المبصرون.

كان يدور ببصر ساكن، وجسد هادئ، ثم توقف، شمّ الهواء، رفع رأسه قليلًا،
وتقدّم يتبع الرائحة، كأنها خيط دخان لا يراه سواه،

تقدّم نحو أحد الجدران، ومدّ يده بتؤدة، تحسس الزوايا، ثم أغلق عينيه.

الصمت خيم لحظات بعدها فتح عينيه، وفيها بريق غامض، حينها ابتسم ابتسامة
من وجد شيئًا ضائعًا مدّ يده ودفع أحد القوالب الحجرية في الجدار.

فتحرك الجدار، واقتح عن غرفة سرية، لم يكن أحد يتوقع وجودها.
في الداخل، كان سمعان الأبكم، وصمصام، وصفيدر ما يزالون مغيبين، مقيدين
بالسلاسل إلى أعمدة حجرية، أسرع الرجال إليهم، أفاقوهم مما كانوا فيه، وفكّوا
قيودهم، واحداً تلو الآخر.

فتح صمصام عينيه، وهو يحدّق في الوجوه حوله:

__ماذا حدث؟؟ وأين سمراء؟؟

اجاب نجم في دهشة :

__يفترض أن نسألکم لا ان تسألونا .؟

(صفيدر)

__زهيرة، تلك العجوز الشمطاء خدعتنا!!

لكن قبل أن يكمل، هزة عنيفة ضربت المكان، فاهتزّ الجدار من جديد. سأل
صمصام بقلق:

__ما هذا؟ هل النيازك عادت تتساقط.

أجابه بدر وهو يضع يده على الحائط:

__لا... إنها الحرب ، لقد اندلعت حرب القبائل.

تجمّد صمصام في مكانه، مصعوقًا:

__حرب القبائل..... كيف ؟؟؟؟؟؟؟؟

قال صفيدر بوجه شاحب:

__كنت أشك لكن الأمر تأكد، انا واثق أنه الحوت الأزرق.

(صمصام)

أيي؟! لا مستحيل لقد أراد السلام، ربّاني على المحبة والتوحيد بين القبائل.

هزّ صفيدر رأسه، وقال بحزن:

__ نعم، كان يريد السلام لكنه لم يجده فيمن حوله، لذا قرر أن يصنعه بنفسه،
بطريقته قرر قتل من اختطفك، وهدم مزرعتك، وأعلن الحرب على كل من رأى
فيه تهديدًا لأمن شعبه.

ضربت هزة أخرى أعمدة الغرفة، فسقط بعض الغبار من السقف، ارتجف قلب
صمصام، ونهض فجأة يلهث:

__ لا لا يمكن عليّ أن أوقفه قبل أن نفقد كل شيء.

انطلق راكضًا، صوته يتردد خلفه بين جدران الممرات:

__عليّ أن أوقف أيي.

خرج من القصر، وعيناه تجوبان المكان بذهول، كأنهما ترفضان تصديق ما تراه من دمار و جثث، كان يُحرّك رأسه نفياً متمتماً:

__لا... مستحيل ما أراه.

كانت الأشلاء مبعثرة في كل ركن ، نساء، أطفال، شيوخ، مئات من الضحايا تمددوا على الأرض الباردة، لا يخرجون صوت ولا ترتفع صدوره بنبض.

سار بخطى متعثرة، كمن يحاول الهروب من الحقيقة، حتى عثرت عيناه على جثة صبي صغير، ملقاة على الأرض.

ارتقى على ركبتيه، واحتضن الجسد الصغير بذراعين مرتجفتين، ثم حمله إلى صدره في حزن ، ركض به نحو السور المنهدم، خطواته تجرّها الدموع والدماء، كان مقرعون يراقبه من بعيد، وما إن رآه، حتى رفع يده وأمر:

__أوقفوا إطلاق النار!

وصل صمصام إليه، ووقف أمامه، يحمل الطفل كأنه شاهدٌ حيّ على الجريمة، مدّ مقرعون يديه ليحتضنه:

__ابني...

لكن صمصام دفعه بقوة:

__لستُ ابنك، والدي لم يكن قاتلاً!!

تجمّد مقرعون، فهتف غاضبًا:

__ماذا تقول لقد فعلتُ هذا من أجلك، من أجل شعبي! أم تريدنا أن نبقي
مرعوبين من جلمود؟ ألا تذكر، كان خوفنا من الأموات الأحياء أمّا الآن فقبيلتي
ترتعب من جلمود بدلا منهم ...
(صمصام)

__أي خوف تتحدث عنه؟، كنتُ تلعن جلمود والآن صرّت مثله ، انظر! انظر
إلى ما أحمله بين يدي، طفل، ما ذنبه؟ وفي الداخل، مئات مثله، جثث تملأ
الطرق، أرواح أزهقت، لأجل ماذا؟ عدوك كان واحدًا، لكنك الآن تحصد شعبًا
بأكمله!

زجر مقرعون:

__اصمت أنت لا تفهم!

__بل أنت من لم يفهم شيئًا، ولن ادعك تكمل هذه الجريمة...

بلا تردد، صفعه مقرعون بقوة:

__ربّيتك لتكون سلاحي، لم أتوقع أن تُوجّه السلاح نحوي... يا حرّاس، أمسكوه!

أمسكه جنديان من كتفيه بقوة، بينما ظل الطفل الصغير بين ذراعيه. شدّ عليه قبضته أكثر، وكأنّ حضنه للطفل آخر حصن من الجنون.

ارتفع صوت مقرعون مجددًا، قاسيًا جافًا كأمر عسكري لا يحتمل التأخير:
_أطلقوا النيران!

انفجرت السماء بقنابل البارود من جديد، وكأنّ جهنم قد انشقت وسكبت غضبها.
صرخ صمصام، ووجهه مشقوق بالألم:

توقفوا! لا... لا يا أبي... كفى أرجوك.

لم يكن صراخه رجاء بل احتجاج روح، لحظة من شقوق الانهيار.

بيطء... وبكل حذر، انحنى صمصام، وربت على الطفل قبلة سريعة على جبهته، ثم وضعه برفق على الأرض، كما تُدفن الأماني دون نعش.

وحين لم يجد ردًا، استدار فجأة، وجذب جسده للخلف، فصدم أحد الجنديين برأسه، ثم ركله بقدمه اليمنى، فانكز ذراعه، وفي اللحظة ذاتها دفع الآخر بكتفه، فارتخى قبضته عنه، تحرر! ومضى يعدو كالمجنون وسط نيرانهم، وسط صرخاتهم، وسط كل شيء، صارخًا:

_إن أردت قتل أحد، فاقتلني أنا أولاً!

تجاوز السور، ووقف في قلب المدينة المحترقة، والسواد يتصاعد من أطلال البيوت. رفع يده نحو والده، عينيه دامتان:

__اقتلني! اقتلني إن كنت ترى أنني الخطر على سلامك!

ظل مقرعون يحدّق فيه لكن تلك الصرخة لم تصب أذنيه فقط، بل طعنته ذرفت عيناه دمعة واحدة، ثم اختنق بها ورفع يده عاليًا وكأنه فقد عقله وأمر بإطلاق القذائف.

تمّ صمصام حين سمع امر الأطلاق:

__لن أسأحك يا أي.

انطلقت قنبلة البارود نحوه فأغمض عينيه وفتح ذراعيه، لا تحد ولا خضوع... بل انكسار وسلام.

لكن قبل أن تمسه القذيفة... خرجت ميساس من داخله، كأنها طيف انفجر من صدره، واصطدمت بالقنبلة قبل أن تلمس الأرض، ففجّرتها في السماء.

ولم تتوقف.

ظلت تتصدى لكل قذيفة، واحدة تلو الأخرى، تنفجر في السماء، لا على الأرض.

حينها تراجع الرماة، مشدوهي الوجوه، كأنهم رأوا الشبح الأزرق ينبعث حيًّا من
جسد بشري. وانكششت أيديهم المرتجفة عن أزرة المناجيق.

ثم صمتوا.

مقرعون... ابتسم. ابتسامة غامضة لم يلحظها أحد.

تذكر نبوءة ((ندرة))

"سيعود ابنك لكنه لن يكون صمصام الذي تعرفه... سيعود ليكون الحوت
الأزرق."

ولوهلة صدّقها مع انه يعلم انها كاذبة... لكنه سرعان ما عاد يزعم وجهه بالحذر والتهجّم.

كان رجال الوريد وأبناء آل سماعيل يركضون بين المصابين، يحملون الجرحى،
يعالجون من يمكن علاجه، لكن كل عيونهم اتجهت إلى صمصام.

حتى صفيدر... شهق.

كأن الصورة المعلقة على جدران قرية ال سماعيل قد نزلت من مكانها، وعادت في
جسد هذا الفتى.

__هل هو هيمان؟ همس بها لنفسه، مرتجفًا.

(مقرعون)

— أطلقوا ما بالكم توقّعتُم؟...لكن لم يتحرك احد ، الأيدي ظلت منخفضة، لم يجرؤ أحد أن يرفعها مجددًا.

اقترب عدنان وهمس له:

__ ما الذي يحدث يا اخي ؟ كيف اصبحت بهذا الشر..

ردّ مقرعون بصوتٍ انبح بالغضب:

__ ما الذي يحدث ؟ حقًا تسألني، جلمود اختطف ابني، قتل عمّالي، دمر مزرعتي
ثم تسألني ما الذي يحدث ؟

رد عدنان بحزم:

__ أتيتُ بجنودي لأقف إلى جانب أخي ضد من ظلمه، لا لأشهد هذا الجنون،
وأنت ماذا فعلت ؟ إن كان قتل عمّالك، فأنت أهدتَ ثلث شعبه، وإن كان دمر
مزرعتك، فأنت دمرتَ مملكته، وإن كان اختطف ابنك، فأنت الآن تحاول قتل
ابنك بيدك، يقولون إن المساواة في الظلم عدل، لكنك لم تساو، بل جرت، أقتل
ابنك لأنك غاضب، ولو كان قد مات الآن فكيف كنت ستكمل حياتك ؟

ماذا كنت ستقول لأُمه ؟ لقد تربّيتُ في قبيلة الماء، لتتعلم الرحمة، لكن الآن، تُثبت
أنك ابن قبيلة الظلال!

(مقرعون)

— أنت وابني لا تفهماني..

(عدنان)

— بل أفهمك جيداً، وايضاً صمصام يفهمك، ولكن انت الذي لا تفهم نفسك، أنت لست هذا الوحش انظر إلى ما فعلت، انظر إلى جثمان الفتى الصغير، ماذا فعل ليستحق الموت؟

ارتبك مقرعون وحدث في الطفل طويلاً سكنت نظراته، وبدأت تخوناه بالدموع حتى سقط على ركبتيه كما يسقط الذنب على ضمير صاحبه بعد فوات الأوان. لم تكن تلك الصرخة التي خرجت من صدره سوى ارتجاف روح أنهاكها تأجيل الاعتراف. نظر إلى الدماء، إلى الركام، إلى الأجساد التي تفحمت وطفل لم يغلق عينيه بعد، كأنه لا يزال ينتظر أن يقول له أحدهم: "لا تخف".

لكن مقرعون لم يقلها، لم يقلها أبداً.

كان هو من صمت حين كان ينبغي أن يصرخ.

هو من تردد حين كان يجب أن يمنع القذيفة، أن يصفع نفسه، أن يتراجع... لكنه لم يفعل.

رفع عينيه إلى السماء التي لم تعد ترى سوى دخان، وقال كمن يكلم الله بعد أن أنكر وجوده عمرًا كاملاً:

__ ماذا حدث لي؟ لكن لا أحد أجابه... لا الرب، ولا الذين تحت التراب.

حينها أمر الجميع بالتراجع، ثم مضى نحو سور القبيلة، قاصداً ابنه، رافعاً يديه إشارةً لوقف كل شيء.

وبينما كان يقترب من فوق السور أمسك جلمود بندقيته وأدار فوهتها نحو مقرعون، ثم أطلق رصاصة شقّت صدره، وأسقطته أرضاً.

كان صمصام يراقب المشهد، وفجأة تغيّر وجهه، وركض كالمجنون نحو أبيه، وارتقى عليه.

قال جلمود بغليّ: فلتذق ما ذاقه أبوك!

وقبل أن يطلق رصاصة أخرى، اشتعلت النيران حوله، فتراجع سريعاً وفرّ هارباً.

أما صمصام، فكان يمسك بيد أبيه، ويضعها على صدره فتح مقرعون عينيه بصعوبة ليقول بعدها:

__ سامحني يا بني...

فأجابه باكياً:

__سأحني أنت ، أعدك ، سأقتل من آذاك.

هزّ مقرعون رأسه في ضعف وقال:

__لا يا بني ، لا تكن مثلي لا تجعل الغضب سيدك.

ثم تابع بصوت متقطع:

__طلبي الأخير أن تحافظ على قبيلتك، وألا تتراجع عن مدّ يد السلام...

سقطت يده من يدي صمصام، ومظهره دلّ على أن الروح قد فارقت الجسد، مسح دموعه، ثم وقف وسحب السيف من غمد والده ، وقال بصوت يملؤه الغضب:

__سأقتل من قتلك!

ركض كالمجنون، يبحث عن جلمود، وكان في طريقه كوحش هائج، لا يرحم، وإن تعثر بأحد من جنود قبيلة النار، قتله دون تردد.

لكن جلمود، قد هرع إلى قصره بعدما تأكد من الهزيمة، كان يتنقل بين الممرات كالمسحور:

__أين أنت يا أمي؟ علينا أن نهرب..... زهيرة... أمي... أين أنت؟!

خرجت زهيرة من مخبئها، وجهها مذعور، تتوكأ على عصاها:

__أنا هنا يا بُني.

ركض إليها، واحتضنها وهو تبكي.

قالت بتصنع:

__أنا خائفة.

فأجابها:

__لا تخافي، أنا معكِ. أصبحت وحيدًا، لا أملك في هذه الدنيا سوى أنتِ، ابنتي ضاعت، زوجتي رحلت، قبيلتي دُمّرت، أنتِ فقط... ضيّبني أكثر... أخرجيني مما أنا فيه.

ابتسمت زهيرة وهو بين ذراعها، ثم أخرجت خنجرًا من بين طيات ثوبها، وغرسته ببطء في عنقه من الخلف. تكرر مشهد مقتل "أرمغان" ذاته وكأنها رسالة تقول:

__مهما فعلت، سيرتد إليك ما صنعت، فلا تعطِ الأمان.

اتسعت حدقتا عينيه، وتراجع خطوتين إلى الخلف. وضع يده على عنقه فشعر بنفورة من الدماء تخرج منه قبل أن يسقط على ظهره وهو يهمس:

أنتِ...؟

((الفصل الثالث والعشرون))

(يا قاتلَ المقتول لا تَغْتَرَّ بالنَّصْرِ
قَالَ دَهْرٌ دَوَّارٌ، يَرُدُّ الظُّلُمَ بِالْعِبَرِ
سَيَلْفُ دَوْرِكَ، لا مَفَرَّ ولا وَطَنَ
وَتَذَوِّقُ طَعَمَ الموتِ مَنْ قد قَضَى الأَمْرَ)
أجابت، وهي تضحك بمرارة:

وقفت زهيرة على رأس الجلمود وهو يحتضر:

— نعم أنا وهل كنتَ تظنُّ أنني سأتركك دون أن أثارَ لابني ؟ ربيتك كأُنك ابني
عطفْتُ عليك، رعتك وأهملتُ ابني الحقيقي، وفي المقابل، قتلته لثَرث الحكم، هل
تظنُّ أنني نسيت ؟

لا يا جلمود... كنتُ أخطئ بصبر، وأنتظر اللحظة المناسبة.

ثم أكملت وهي تقترب منه:

أنا من جعلتك تقتل زوجتك، أخبرتها أنك قتلت والدها، كانت مسكينة، تتبع
عواطفها. لم تكن تستحق الموت، لكنك استحققت ألم فقدانها.

أما الحرب؟ كل ما حدث باسم مَنْ؟ باسمي أنا... وباسم فقيل.

نظر إليها جلمود بدهشة وهو يكتّم الدماء المتدفقة، بالكاد يقدر على التنفس...

همس:

"فقيل...؟"

ابتسمت زهيرة ابتسامة باردة وقالت:

— نعم، كان فقيل يعلم منذ البداية أن مقرعون لن يصمت طويلا خطف ابنه،
تدمير مزرعته، والاستهانة بمكانته كحوت، كل ذلك كان كافيا لإشعال حرب لا
محالة، لكنه لم يكن يريد حربًا تُراق فيها دماء الأبرياء فقط، بل حربًا تُسقطك أنت
من الداخل، دون أن تتلطح يده بشيء.

سعل جلمود بشدة، فخرج الدم من فمه، وزاد خنجر الخيانة ألمًا على ألم.

أكملت زهيرة بصوت متهدج لكنه خالٍ من الرحمة:

— لهذا اتاني نيمورا ذات ليلة، واتفقنا على حيلة لا تخطر لعقل تُختطف سمراء،
وتُنسب الجريمة إلى ابن (الحوت الأزرق) فإذا شاع الخبر، صارت الكلمة العليا لـ
فقيل وحينها يأخذ الصلاحيات الكاملة لتحريك الجيش، بحجة البحث عن ابنة
عمّه المختطفة. وهو ما كان فما إن جاءه خبر اقتراب (الحوت الأزرق) حتى خرج من
القبيلة بثلاثي الجيش وأعلن أمام الجميع أنه ذاهب لاستعادة سمراء.

اذاذت همسا:

وترك معزولا مكسورا، لتذوق ما فعلته بنا.

نظر جلود إلى الأعلى، إلى سقف القصر، كأنما رأى كل حياته تنهاوى أمامه ثم تتم بكلمة لم تفهم الا في داخله _ قُلت لك لن أتأخر يا حبيبتى .. بعدها سقط جسده بلا صوت.

وقفت زهرة بثبات أمام جسده، تمسح الخنجر بثوبها الأبيض وحين استدارت لتغادر اصطدمت بجسد صمصام يقف خلفها.

تسمرت في مكانها وعيناها زائغتان على الخنجر الذي في يدها، و على جثة جلود على الأرض.

شعرت بالارتباك وبدأت تتلعثم:

_ أنجذني... جلود... كان... كان يحاول قتلي...لأنه علم أنني أساعدك... لتتزوج سمراء!

أنا... أنا فقط دافعت عن نفسي.

صمصام بوجه خالي من اي انفعال:

__لقد سمعت كل شيء قلتيه للتو، أنتِ السبب في كل ما جرى، أي مات اليوم بسببك كل من مات الآن انتِ سبب مؤتته

تراجعت خطوة إلى الوراء، مدّت يدها أمامها وهي تتوسل:

__توقف مكانك أنا لم أفعل شيئًا، كنت أهذي فقط، كنتُ غاضبة، هذا كل شيء، أرجوك.

فجأة أصابها السعال أمسكت صدرها، اختنقت رثتها، وارتجف جسدها، مدّت يدها المرتعشة إلى جانبها، وأمسكت بقناع التنفس، لكن قبل أن تضعه، صفعه صمصام من يدها بعيدًا هجمت عليه تحاول طعنه بالخنجر، لكنه ضرب يدها الضعيفة، وانتزع السلاح منها بسهولة.

بعد خمس دقائق اشتد السعال عليها وبدأت تتقيأ مخاطًا ودما حتى أن عيونها تورمت:

__أرجوك أنا لم أرتدِ قناع التنفس منذ أكثر من نصف ساعة سأموت.

صمصام بلا مبالاة:

__فلتَموتي على الأقل ستذوقين بعضًا من شعور من ماتوا وهم يتمنون نفسًا واحدًا.

سقطت على الأرض والسعال لا يتوقف، لكنها بين اختناق وآخر، تمتمت بكلمات متقطعة:

—إن ... إن مث... فلن ... فلن تجد سمراء...

تغيرت ملامحه الى الاصغاء ولكنه كان يتردد، الغضب يشده من كفيه، والحب يسحبه من قلبه، نظر إليها وهي تتلو، تحتق، تنظر له برجاء لا يحمل الندم، بعد لحظات صامتة كأنها دهر، ركض إلى القناع، انحنى ووضعه على وجهها. شهقت بقوة ثم أخذت نفساً عميقاً ثم آخر كأن الحياة تعود لتأخذ مكانها في صدرها. (صمصام)

—أين هي سمراء؟

انزع القناع عن وجهها قبل ان ترتاح رثتها والشرر يتطاير من عينيه. شهقت من المفاجأة، وتشبثت بثوب صدرها المرتجف، وهي تقول بضعف: —سأخبرك، سأخبرك، فقط أعطني القناع لبضع دقائق أخرى أرجوك. ردّ بنبرة صارمة، دون أن يطرف له جفن: —لا اخبريني أولاً.

أخذها السعال مجدداً، صوتها يخرج متقطّعا، وبحسرة خافتة قالت:

—أنا... عجوز يا بني... لا أستطيع الهرب.... ولا أملك مكاناً أذهب إليه... لكن إن بقيتُ بلا قناع... سأموت... قبل أن أخبرك بشيء، أرجوك، فقط... القناع.

تأمل عينيها المبللتين بالدموع بينما صراع داخلي يعصف به، ثم ببطء مدّ يده إليها وأعطاهما القناع من جديد.

أخذته منه بلهفة، كأنها تمسك بالحياة ذاتها وضغطته على وجهها بسرعة، وأخذت نفساً عميقاً ثم آخر، وثالث. لكن صمصام قطع عليها لحظة الراحة وقال بنبرة قاطعة: _لن أمنحك المزيد، ومد يده مجدداً وللمرة الثالثة، انتزع القناع من على وجهها بقوة. شهقت، ثم صرخت:

_لا... لا.. أتوسل إليك.

ردّ دون أن يلتفت:

_لقد أخذتِ وقتك، ولن أصبر أكثر.

بدأت تتقيأ، وانهارت على الأرض، تتلوى وتصرخ صوتها يرتفع ويتلاشى مع كل ثانية:

_أرجوك... القناع... هي في الكهف.

_أي كهف؟؟

_كهف تحت جبل الدوس قرية المنبوذين... خارج قبيلة النار... أرجوك.

سقطت على وجهها، تسعل بشدة حتى اختنقت، رفعت رأسها بصعوبة وهي تنظر
إلى قدميه برجاء يائس:

ـرئتاي... لن تتحمل... اعطني قناعي..

ابتسم ببرود، ثم رمى القناع بعيدًا وقال:

ـاذهي إليه وخذيهِ .

زحفت على الأرض، تتشبث بالحياة كمن يغرق مدّت يدها نحو القناع، تسعل
بشدة، صدرها يعلو ويهبط كمن يناع، كل خطوة كانت عذابًا وكل نفس أقرب
للموت، عيناها معلقتان بالقناع كأن خلاصها فيه. لكن قبل أن تصل إليه توقّف
جسدها وفجأة سقطت، واختنق صوتها لتموت على بعد شبر واحد من الحياة.

خرج صمصام من القصر، وخطواته تسحق الأرض من شدة الغضب والحزن كان
كل شيء حينها قد هدأ، توقفت المعارك، واستسلمت قبيلة النار تمامًا بعد أن انهار
قاداتها، غابت الأصوات إلا من أنين الجرحى وخير الرياح التي كانت تمر على
ساحة امتلأت بأجساد من الطرفين.

إشارة من يده، دخل جيش قبيلة الماء والظلال أرض النار لأول مرة، لا كمهاجرين
بل كمنقذين. أمر صمصام في عجله:

—ساعدوا الجرحى، ادفنوا موتانا، ولا تميّزوا بينهم وبين موتاهم، كلهم الآن في ذمة الغيب.

في تلك اللحظة كان صفيدر لا يزال يُسعف الجرحى، يتنقل بينهم برفقة أصدقائه، اقترب منه صمصام وصوته يحمل ما هو أكثر من الكلام:

— خذني إلى جبل المنبوزين، الآن.

— الآن؟ قالها صفيدر متفاجئاً.

— نعم لا وقت لدينا.

رافقه سمعان، بينما ظل الحوت الأسود خلفهم، يحمل جثة مقرعون بكل وقار، وأدخلها إلى قصر جلمود، كما يليق بملك سقط في أرض معركة.

حين خرج صمصام من بوابة السور، أطلق سمعان صفيراً حاداً، صفيراً لا تفهمه سوى نملات البربر. على الجانب الآخر كانت نائلة قد رأت كيف تتحرك النملات فجأة ومن دون تردد، امتطت واحدة منها، وسارت بها نحو مصدر الصوت.

وحين وصلت إلى حيث يقف الثلاثة، ورأتهم بوضوح اختنقت دموعها وقفزت من على ظهر نملتها وركضت دون تفكير، ثم ارتمت في حضن صفيدر:

— كنت أظن أنني لن أراك مجدداً سمعت التفجيرات وقلبي انخلع بعدها.

(صفيدر)

– لقد وعدتك أنتي سأعود، وأنا لا أخلف وعدي.

وضع يده على خدها، ثم لامس جبينه بجبينها، وهمس:

– أنا لن أتركك لكن بقي شيءٌ أخير سأذهب مع سيدي، نحضر سمراء ثم نعود.

أومات برأسها، ودموعها تحجب عن وجهها النحيل كل ملامحه. ركب الثلاثة
الغلات، واتجهوا صوب جبل المنبوزين.

عند أسفل الجبل بدأوا في البحث بين الصخور والممرات، حتى عثروا على فوهة
كهف خفية خلف شجرة ملتوية الجذع، تقدم صمصام أولاً وسلاحه مشدود بين
يديه، تبعه صفيدر وسمعان دون تردد.

الداخل كان أشبه بالجحيم الكهف رطب مظلم، تُرثِّل فيه رائحة الموت ترانيمها
بصوت خفي. في العمق، وجدوا سمراء مكبلة، جسدها مهترئ من الخوف، وعيناها
جامدتان خلفهم حيث كانت المرأة التي تعمل مع فليل تطعم أولئك الموتى الأحياء
داخل القفص.

تسلل صمصام فيما كانت المرأة منسجمة في طقوسها الخفية، وانقض عليها بغتة،
وسدّ إليها عدة طعنات في ظهرها، طعنة تلو الأخرى حتى انهار جسدها أمام
عينيه.

وقف الثلاثة لحظة أمام مشهد الأقفاس التي امتلأت بجثث متحركة، بالكاد تملك ملامح بشر. ولكن لم يكن هناك وقت للدهشة حرر صمصام سمراء، وأزال عنها القناع، واحتضنها سريعاً. انهارت بين يديه، تصيح من قلبها:

— صمصام!! صمصام!! ضمّهما إلى صدره بقوة وقال:

— أنا هنا لا تخافي لقد انتهى كل شيء، أنا هنا.

لكنها كانت ترتجف، وتنظر إلى السقف كأنها تتوقع سقوطه عليها:

— نفيل حاول أن يطعمني لهم..... أين كنت؟ لماذا غبت عني؟

انفجرت باكيةً، تصرخ كطفلة خائفة:

— سيقتلني أو سيأكلني أو يجعلهم يأكلوتي قال إنه سيقيني حيّة ليرث بي الحكم بعد أن يقتل أبي، وبعد أن يتزوجني... قال إنه سيطعمني لهم!

كان صمصام يغلي لكنه كتم غضبه، ورفع وجهها نحو عينيها وقال بعنف ممزوج بالحب:

— كفى انظري في عينيّ ألا تتقين بي؟ ألا تتقين بحبي؟

نظرت إليه وفي تلك اللحظة، عيناها دخلتا عمقاً بعيداً في روحه، وكأنها تسألان وتجيّبان في آن واحد أغضت عينيها، وجمعت شتات نفسها ثم قالت وهي تبكي:

– أثق... خذني من هنا.

لم تكن تعلم أن صدمة الكهف لم تكن سوى البداية، وأن فاجعتها الحقيقية في انتظارها خارج الجبل، خرج صمصام بها من الكهف، يتقدمه صفيدر وسمعان، وكانت الشمس الباردة قد بدأت تميل إلى المغيّب، ترسل خيوطها الباهتة التي لا تحمل الدفء على أجساد القتلى الممددة على الأرض وكأنها تنثر عليهم الوداع الأخير.

وحين اقتربوا من قبيلة النار رأت الدخان المتصاعد، وسمعت أصوات البكاء من بعيد هرعت تسأل:

– أين أبي؟ أين أمي؟

نظر صمصام إلى الأرض ولم يقل شيئاً، فقط شدّ على يدها فلم تحتج أكثر من هذا، شهقة واحدة خرجت من قلبها ثم جلست على الأرض تبكي بحرقة، تصرخ أسماءهم، تتشبث بالتراب، تنظر للسماء كأنها تطلب تفسيراً، مات ابواها وثلث شعبها انقرض هذه لم تكن مجرد خسارة، هذه كانت نهاية عالمها.

ورغم كل هذا وقفت نعم وقفت. سمراء كانت حفيدة ملوك النار، ووريثة الحوت الأحمر فكان لا بد أن تهض، لا من أجل نفسها، بل من أجل من بقي.

سمعت أن نقيّل قد هرب وأنه قاد ثلثي الجيش بحجة البحث عنها.

فأمّرت القائد عاشور بمطاردته، وإعادة الجيش فوراً، عاشور فعل ما أمر به وأعاد القوات، ولكن نقييل لم يكن بينهم ، لأنه لما علم أن خطته فشلت، وأنها قد هربت من الكهف، ايقن أن كل شيء قد انكشف ففرّ تاركاً الجنود، قبل ان يصل عاشور سمراء وصمصام قررا أن لا يُغلق هذا الفصل الا على السلام،

صمصام قال بصوت مرتفع وهو يشير للمكان:

— هنا سنبنّي مقبرة لا لهؤلاء فقط، بل لكل من مات وهو يظن أنه يدافع عن حق، بينما الحقيقة كانت تُخفى عنه. وسموها مقبرة الغافلين تذكيراً بأن من سبقوهم من الحكام قد غفلوا عن شعبيهم، فدفعوا الجميع الثمن، لم يكتفوا بذلك، بل قرروا أن يبدأوا من جديد.

أصبحت سمراء رسمياً الحوت الأحمر الجديد وصمصام الحوت الأزرق، وقف إلى جانبها لا كقائدٍ فحسب بل كزوج.

فبعد فترة طويلة من الزمن تزوجها أمام الجميع في احتفال لم يكن فيه زينة ولا ذهب، بل نار وماء كل قبيلة مثّلت عنصرها وتقاليدها فكانت العروس تمشي على الجمر المنطفئ، والعريس يغتسل بماء النهر المتعفن وكلّ يقسم على الولاء لا للحكم، بل للعدل.

أما صفيدر فتزوج نائلة بعد أيام من السكون، و صارت شريكته وصوتها كان من أوائل الأصوات التي دعت لفكرة لم يجرؤ أحد على النطق بها سابقًا:

__قبيلة واحدة.

فكرة جنونية ؟ ربما... لكنهم اليوم أقرب لها من أي وقت حتى قرية المنبوذين سُمح لهم بالعودة إلى أرضهم القديمة بدموع فرح لم يعرفوها منذ زمن، فقد غفرت لهم سمراء ما فعله والدها، واحتضنتهم أرض النار من جديد.

صمصام أيضًا أرسل إلى قرية آل سمعان دعوة صريحة للانضمام إلى القبيلة الجديدة، تلك التي لم تُسم بعد.

بعد اتحاد قبائل النار والظل والماء، ورفض قبيلة الهواء الانضمام، اجتمع شيوخ القبائل وقادة الحيتان للبحث عن خطوة ترسخ هذا الاتحاد. وبعد تفكير عميق ولدت الفكرة الأولى في ذهن صفيدر وزوجته نائلة، وهي بناء مدينة واحدة تجمعهم كشعب موحد. لكن طول النقاش كشف أن البناء من الصفر يتطلب سنوات من العمل الشاق، في وقت تنصرف فيه الجهود إلى الصيد والبحث عن الطعام وسط شح الموارد، مما جعل الفكرة تتعثر.

عندها طرح مصمم الحوت الأزرق فكرة بديلة وهي إعمار مدينة من المدن المهجورة منذ قرون. لاقت الفكرة إعجاب عدنان وسمراء، إذ بدت أكثر واقعية وأقل استنزافاً للجهد. وبعد نقاش الحيتان ، تقرر المضي في الخطوة ووقع الاختيار على مدينة كباقي المدن المنسية التي اجتاحتها الزومبي ، مبانيها متهاكة تغطيها النباتات البرية، وشوارعها مكدسة بالركام تسكنها وحوش الليل مثل عناكب الصداح، نمل البربر، زواحف العكوز، وثعابين البرورو.

بدأت عملية التطهير الكبرى، واستمرت ثلاث سنوات قاتل فيها المحاربون جنباً إلى جنب، يحرقون محافل الزومبي، ويقتلعون النباتات المتسلقة، ويدمرون أوكار الوحوش. لم يكن الطريق سهلاً؛ فقد قُتل منهم محاربون أشداء، ومات رجال ونساء في المعارك، لكن الجميع أدرك أن التضحية تستحق من أجل بناء مستقبل آمن. في مواجهة النمل البربري المفترس، كانت فرقة "آل سمعان" المدربة هي رأس الحربة. بتكتيكاتهم الحاسمة وخبرتهم في التعامل مع أسراب النمل المتوحش، استطاعوا القضاء على محافل النمل التي كانت تعيق التقدم وتغزو الشوارع، مما مهد الطريق لاستكمال التطهير.

ومع تقدم العمل، أقاموا حول المدينة أسواراً حجرية سميقة، وأبواباً حديدية تُغلق بإحكام، حتى صارت حصناً منيعاً لا يُخترق، وأغلقت كل المداخل إلا نقاط الحراسة. داخل الأسوار، أعيد بناء مزرعة المرح ولكن بشكل أوسع لتكون مزارع

متعددة وُزعت مساحات واسعة للمزارع الداخلية، وُزرع فيها القمح والشعير
والعدس والأعشاب الطبية، كما جُلبت بذور أشجار فاكهة نادرة.

حُفرت الآبار العميقة لتوفير المياه العذبة، وثُقيت البرك القديمة لتكون مخزونًا
احتياطيًا للشرب والري. أما الخطر الأكبر، فكان الهواء المسموم الذي يخنق
الأنفاس، ما دفعهم إلى الاستغناء نهائيًا عن أقنعتهم القديمة، واستبدالها بالقناع
الزجاجي الموحد: زجاج شفاف صافٍ يطار نحاسي وفلاتر تنقي الهواء وتسمح
بالتواصل الواضح. صار هذا القناع رمزًا لاتحادهم وفخرًا لمقاتليهم.

أما الحكم في المدينة، فصار شورى بين ثلاثة من قادة الحيتان، يمثل كل واحد منهم
إحدى القبائل الثلاث، ليكون القرار جماعيًا والسلطة موزعة بالتساوي، ويحكمهم
عهد ألا يفرق بينهم نسب أو دم، بل هدف واحد حماية الحصن الأخضر من كل
خطر يقترب من أسواره وهكذا، تأسست مدينة النهضة الجديدة

بدا وكأن السلام أخيرًا استقر في ربوع الأرض التي مزقتها الحروب. سُيِّدت "دار
الحيتان"، وساد حكم سمراء وسمصام، وازدهرت الأرض في ظلال الوحدة، لكن ما
بدا هدوءًا، لم يكن إلا سكونًا يسبق العاصفة.

في قلب المجلس الأعلى، حيث كان سمصام يترأس اجتماعًا مع قادة القبائل، دخل
فارس مسرعًا، يلهث، وعيناه مليئتان بالذهول:

وجدناه... وجدنا نفيل!

سكنت الأنفاس، وتجمدت النظرات.

رفعت سمراء عينيها بثبات وقالت: - أين؟

أجاب: - في أطراف الوادي الأسود... بين جماعة البدو المتشردين يجمعهم،
يشحنهم بالحق، ويعددهم بالعودة... بالانتقام..

هذا لم يكن سوى البداية ففي الوقت نفسه انكشف شرّ اخر في أقصى الجنوب،
في قبيلة الهواء، حيث لا يصل صوت السلام ولا عقب الاتفاقات، جلست كارمن،
الحوت الأبيض، على كرسيها تطل من نافذتها على المدى الملبد بالغيوم. لم تنضم
للاتحاد، ولم تعترف به رغم أن سنتين مرتا عليه.

دخلت خادمتها "شعلونة" وانحنى حتى لامس رأسها الأرض:

— بن بن بندر.

ردّت كارمن بثبات: - بن بن بندر. تكلمي.

قالت شعلونة بنبرة يشوبها الانفعال والسعادة: - بعد بحث وتنقيب طال سنوات،
وجدناه...

— ماهو ؟

__ مخزن الأسلحة الذي أخبرتنا به.

شهقت كارمن، وارتجف جسدها من الإثارة: - حقًا؟

__ نعم يا مولاتي مخزن كامل أسلحة ذخائر صواريخ، قنابل... كل شيء.

نهضت كارمن، عيناها تلمعان كبريق الحديد في النار: - كنت أعلم... كنت أعلم أنها كانت هناك، أرايتِ يا أمي؟ لقد بدأ حلمي يتحقق.

قالت شعلونة والدموع في عينيها: - روحا معنا يا مولاتي... كانت دائمًا تؤمن بك.

لكن لحظات النشوة لم تكتمل... إذ دخلت خادمة أخرى مسرعة:

__ مولاتي، هناك امرأة عجوز بالخارج، تصرّ على مقابلتك.

أشارت كارمن بكسل: - أدخلوها.

وما هي إلا لحظات، حتى دخلت امرأة بثوب ممزق ووجه غطاء الغبار... لكنها رغم كل شيء، كانت مألوفة.

قالت شعلونة بذهول: - إنها... إنها ندره!

ابتسمت كارمن بسخرية، والتفتت إلى شعلونة وقالت: - أنظري يا عزيزتي... خالتي العزّافة... التي هجرتنا إلى قبيلة الماء، وخدعتهم برؤاها الزائفة... ها هي الآن، تعود جائعة، هاربة... بعدما انتهى طعامها وكُشف خداعها.

اقتربت ندرة وهي تبتسم وقالت بلسان يقطر السم : _الا تردين معرفة جميع
اسرار قبيلة الماء؟؟؟؟

(تأقي الليالي وتذهب...

لا لأنها سريعة، بل لأنها غادرة.

والقلب ليس بيتًا، بل غرفة تُحبس فيها المحبة، تُخاط داخلها المكائد كأنها غرز الإبرة
في نسيج ملعون، وتُنسج الشرور كأنها ستائر لِرؤى لا يليق بها النور.

لكن رغم السواد، لا يُمنع الحلّ إن نطقَ به المجنون، ولا يمنعه مأمور إن خرج من
قلب محروق.)

في إحدى الليالي الشاعرية، كان صمصام مع زوجته سمراء في غرفتهما يتودد إليها
بهدهوء.

قالت له وهي تبتسم بخجل:

_هل أنا أحلم؟ هل هذا أنت، زوجي، وفي غرفتي؟

فأجابها بلطف:

_لا... لا تحلمين لأن ما نعيشه الآن أجمل من أي حلم.

وضع يده على وجهها واقترب منها ليطلع قبلة على شفيتها، لكن فجأة، ابتعدت سمراء وقالت وهي تلتفت حولها:

__هل هي هنا؟

ابتسم صمصام وقال:

__لا...

اقتربت لتقبّله، ثم تراجعت مرة أخرى وقالت بشك:

__أنا لا أثق بها.

ردّ بهدوء:

__لا تخافي تعالي فقط لنكمل ما بدأناه.

قاطعه ظهور ميساس المفاجئ من داخله. قالت بسخرية:

__اخبر تلك الحمقاء ألا تذكر اسمي كثيرًا.. فقد تمرض من الحقد.

ردّ صمصام:

__اهدئي يا حبيبتى...

سمعت سمراء تلك الكلمة، فتجمدت نظراتها:

__ إلى أين تنظر؟! كنت أعلم أنها هنا، لكن أن تناديهما بـ(حييتي) وتغازلها أمامي؟
انا ذاهبه.

وقفت ميساس خلفه، وضعت يدها على كتفه، وأخرجت لسانها لسمرء بتحدٍ
وقالت:

__ اتركها تغادر يا عزيزي، وتعال لتقضي الليلة معي.

التفت إليها صمصام متعجبًا وقال:

__ ألم تقولي إن حبك خالٍ من الشهوات؟!

صرخت سمرء بغيرة:

__ ما الذي تقوله لك هذه الجنية؟! لقد وافقت على زواجكما لأنني كنت أعلم أنه لن
تكون هناك علاقة بينكما، فقط لأجل ما قدمته لك من مساعدات.

ضحكت ميساس بصوت خافت وقالت:

__ أخبر تلك العاجزة، أنني تزوجتك قبلها.

هنا صرخ صمصام بصوت مرتفع:

- يكفي خرج من الغرفة كمن يفتر من ساحة معركة خاسرة، وجهه يشتعل بالغضب، وصدره يضجّ بكلمات لا تجرؤ على الخروج كلها... تتم، وصوته يقطر سخريّة :

—زواج امرأتين؟ حتى وإن كانت إحداها جنية... من يطيق هذا العبث؟! كانت خطواته كوقع مطر ثقيل على أرض يابسة... وهو يسير في الممرّ، لفت نظره خيط ضوء واهن، يتسلل من تحت باب غرفة مهجورة... غرفة نسيت أنفاسها الحياة منذ زمن.

توقف، حدّق في ذلك النور كأن فيه شيئًا يخاطبه، مدّ يده ببطء، وفتح الباب... صوت المفصلات القديمة صرخ في وجهه وعندما انفتحت وجد أنّ الضوء أقوى تحت السرير اقترب ثم جثا على ركبتيه، مدّ يده تحت السرير، حتى لامست أصابعه خشبًا باردًا، متآكلًا من الزمن.

سحب الصندوق الخشبي الذي غطّاه التراب يبحث بين المحتويات عن مصدر النور إلى أن اصطدمت بشيء واحد... صندوق جوناثان.

مجرد لمسه له كان كافيًا. جسده كله ارتجف.

كانت البقعة البيضاء التي فوق الصندوق اتسعت قليلًا عن ذي قبل على حساب السواد الذي لا يزال يطغى على أغلبه.

أغمض عينيه، وعاد إليه صوت نائلة وهي تقرأ ورقة جوناثان:
"إذا غلب البياض... ظهر الترياق."

يتبع.....